

انوار البقاع

في علم البيان

تأليف

الإمام عبد القاهر الجرجاني

عُثِرَ عَلَى نَسْخَةِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ فِي قَرَاهَا دُرُوسًا فِي الْجَامِعِ الْأَيْمَنِ، وَأُودِعَ فِيهَا جِلٌّ تَعْلِيْقَاتُهُ عَلَى حَوَاشِيهَا وَوَضَعَ بِجَانِبِهَا عَرَفَ (ش) الْقَطْعَ مِنْ كَلِمَةِ سُبْحَنَا، وَعَلَّنَ مَوَاصِيحَهُ

السيد محمد رشيد رضا

مُنَشِّرُ الْمَنَارِ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

01204223

Bibliotheca Alexandrina

اِنَّ رَبَّكَ بِمَا
فِيْ عِلْمِ الْبَيِّنَاتِ

انوار البلاء

في علم البيان

تأليف
الإمام عبد القاهر الجرجاني

صححها على نسخة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده التي قراها دُروساً في الجامع
الأزهر، وأودع فيها جلّ تعليقاته على صوابها ووضع بجانبها حرفي (ش)
المقتطع من كلمة شيخنا، وعلق هوامشه

السيد محمد رشيد رضا

مُنشئ المنار
رحمته الله تعالى



Digitization Center of the Alex
andria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية
رقم الكتاب ٤٩٢ : ٧٨
٢٠٠٢
رقم التسجيل ٩٤٠٩٢

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

يطلب من: **دار الكتب العلمية** بيروت - لبنان
هاتف: ٣٦٦١٣٥
ص: ١١/٩٤٢٤ تليكس: Nasher 41245 Le

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمن علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان * فله الحمد أن علم ، والشكر على ما أنعم ، ومنه الصلاة والتسليم ، على نبيه الرؤوف الرحيم ، الذي جاء بتوحيد اللغة والدين ، وجعل الكتاب والحكمة في الأميين ، فكانوا بذلك أئمة وكانوا هم الوارثين .

الإنسان يمتاز بالعلم ، وإنما العلم بالتعلم ، والتعلم باللغة ، واللغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان ، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير . وفي صورتها وأجراس كلها بعذوبة النطق ، وسهولة اللفظ والإلقاء ، والخفة على السمع . وإن للغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح ، والجواد القاسح ، يعرف ذلك من أخذها بحق ، وجرى فيها على عرق ، فكان من مفرداتها على علم ، وضرب في أساليبها بسهم . ومن آية ذلك لغير العارف ، أن أوائك الشراذم والأوزاع من أهلها قد حملوها إلى الأمم التي كان للغاتها في العلوم قدم ، ولم يحملهم عليها بالإلزام ، ولا بالتعليم العام . وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغة المصريين من مصرهم ، والرومانيين من شامهم ، واستعملت على الفارسية العذبة في مهدا وموطنها ، وامتد شعاعها إلى الأندلس في غربي أوربة بعد ما طاف ساحل أفريقيا الشمالي ، وإلى جدار الصين من الشرق — كل ذلك في زمن قريب لم يعرف في التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم ، وتعميمها بالتعليم العام ، وضروب الترغيب والترهيب .

كانت لغة أميين وثنيين جاهليين ، فظهر فيها أكل الأديان ، فكانت له
أكل مظهر ، وتجلى لها العلم فكانت له خير تجلى . وصارت بذلك لغة الدين
والشريعة ، وعلوم العقل والطبيعة ، ولكن عدت على أهلها عواد كونية ،
وطرأت عليهم أمراض اجتماعية ، فضعف فيهم كل مقوم من مقومات الأمم
الحية . ومن تلك المقومات الحقيقية اللغة فقد فسدت ملكتها في الألسنة ،
والتوى طريق تعليمها في المدارس ، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس .
ظهر ضعف اللغة في القرن الخامس ، وكانت في ريعان شبابها ، وأوج
عزها وشرفها ، وكان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو ،
ومدلول الألفاظ المفردة ، والجلل المركبة ، والانصراف عن معاني الأساليب ،
ومغازي التركيب ، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه ، وضروب التحوز
والكناية فيه — وهذا ما بحث عزيمة الشيخ عبد القاهر الجرجاني إمام علوم
اللغة في عصره إلى تدوين علم البلاغة ، ووضع قوانين للمعاني والبيان كما وضعت
قوانين النحو عند ظهور الخطأ في الإعراب فوضع هذا الكتاب في البيان ،
ومن فاتحته يتنسم القارئ أن دولة الألفاظ كانت قد تحكمت في عصره ، واستبدت
على المعاني ، وأنه يحاول بكتابه تأييد المعاني ونعمرها ، وتعزيز جانبها وشد أسرها .
كتب قبل عبد القاهر في مسائل من البيان بعض البلغاء كالجاحظ وابن دريد
وقدامة السكاتب ، ولكنهم لم يبلغوا فيما بنوه أن جعلوه فناً مرفوع القواعد
مفتح الأبواب كما فعل عبد القاهر من بعدهم ، فهو واضح علم البلاغة كما صرح به
بعض علماءها . وإن لم يذكر له هذه المنقبة المؤرخون الذين رأينا ترجمته
في كتبهم ، حتى أن ابن خلدون الذي تصدى دون القوم للإمام بتاريخ الفنون
أهمل ذكره ، وزعم أن الذي هذب الفن بعد أولئك الذين كتبوا في مسائل متفرقة
منه هو النسكاكي ، وما كان النسكاكي إلا عيالا على عبد القاهر ، تلا تلوه ، وأخذ عنه ،
مع الخالفة في شيء من الترتيب والتبويب ولكنه لم يسلم من التكلف في بعض

عبارته ، والتعقيد في بعض منازعه ، فإذا جاز لنا أن نقول : إنه فاق لتأخره بالترتيب المعلوم ، وبما حرره من الحدود والرسوم . فإننا لا ننسى من فضل المتقدم سلامة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وغوصه على أسرار الكلام ، ووضع دررها في أبداع نظام .

كان السكاكي وسطاً بين عبد القاهر الذي جمع في البلاغة بين العلم والعمل وأضرابه من البلاء العاملين ، وبين المتكلمين من المتأخرين الذين سلكوا بالبيان مسلك العلوم النظرية ، وفسروا اصطلاحاته كما يفسرون المفردات اللغوية ، ثم تنافسوا في الاختصار والإيجاز ، حتى صارت كتب البيان أشبه بالمعجمات والألغاز ، فضاعت حدوده بتلك الحدود ، ودرست رسومه بهاتيك الرسوم ، وكان من أثر فساد ذوق اللغة اختيار هذه الكتب التي ملكت العجمة عليها أمرها ، على الكتب التي تهديك إلى العلم الصحيح بمفانيها ، وتهدي إليك الذوق السليم بأساليبها ومناحيها ، فسكادت كتب عبد القاهر تمحي وتنسخ ، وصارت حواشي السعد تطبع وتنسخ ، وهذا هو حظ العلم النافع إذا ألقى إلى الأمة في طور التدلى والضعف ، فمثل عبد القاهر في أسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، كمثل ابن خلدون في مقدمته والسلطان سليمان العثماني في قوانينه .

ربّ غذاء طيب نافع عافته النفس لمرض ألمّ بها حتى إذا نقمت أو أبلّت اشتهمته وطلبته . وهذا هو مثلنا أمس واليوم ، فقد كنا متفقين على أخذ العلم من كتب علمائنا المتأخرين كما يختار المريض الغذاء الضار ، فظهر فينا هداة مرشدون يسعون في إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا ومصنفات أئمتنا . ويدلوننا على العلم الحى الذى تفجر من ينابيع النفوس الحية ، لنفرق بينه وبين الرسوم الميتة التي سماها الجهل علماً .

ولما ساجرت إلى مصر في سنة ١٣١٥ لإنشاء (المنار) الإسلامى أقيمت إمام النهضة الإسلامية الحديثة الأستاذ الحكيم الشيخ محمداً عبده رئيس جمعية إحياء العلوم العربية ومفتى الديار المصرية ، اليوم مشغولاً في بعض وقته بتصحيح كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني . وقد استحضرت نسخته من المدينة المنورة

ومن بغداد ليقابلها على النسخة التي عنده ، فسأله عن كتاب (أسرار البلاغة) للإمام المذكور فقال : إنه لا يوجد في هذه الديار . فأخبرته بأن في أحد بيوت العلم في طرابلس الشام نسخة منه ، فحفظني على استحضارها وطبعها فطلبتها من صديقي الحميم العالم الأديب عبد القادر أفندي المغربي ، وهي مما تركه له والده فابى الطلب . وعلمنا أن نسخة أخرى من الكتاب في إحدى دور الكتب السلطانية في دار السلطنة السنية ، فندبنا بعض طلاب العلم الأذكياء لمقابلة نسختنا بتلك النسخة . فخرج لنا من مجموعهما نسخة صحيحة شرعنا في طبعها ووضعنا في ذيل المطبوع شرحاً لطيفاً ضبطنا فيه الكلمات الغريبة وفسرنا منها ومن جمل الكتاب ما رأيناه يستحق التفسير . وأشرنا إلى الخلاف بين النسختين ، فيما يحتمل صحة الاثنتين .

أما كون عبد القاهر هو واضع الفن ومؤسسه . فقد صرح به غير واحد من العلماء الأعلام ، أجابهم قدراً ، وأرفعهم ذكراً ، أمير المؤمنين ، محيي علوم اللغة والدين ، السيد يحيى بن حمزة الحسيني صاحب كتاب (الطراز ، في علوم حقائق الإعجاز) فقد قال في فاتحة كتابه هذا وهو من أحسن ما كتب في البلاغة بعد القاهر ما نصه : « وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني ، فلقد فك قيد الغرائب بالتيقيد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكامها ، وفتح أزواره بعد استغلاقتها واستلبهامها ، فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء ، وجمل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والجزاء ، وله من المصنفات فيه كتابان أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شيء منهما . مع شغفي بحبهما وشدة إعجابي بهما ، إلا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما » .

وأما مكانة هذا الكتاب وبيان ما يمتاز به على كتب البيان فحسبي في بيانها عرضه على الأنظار مع التنبيه على مسألتين نافعتين (إحداهما) أن العلم هو صورة المعلوم مأخوذة عنه بواسطة الإدراك كما تؤخذ الصورة الشمسية بالآلة المعروفة فإن كان

المعنى المنتزع من الجزئيات قانوناً كلياً يرشد إليها فهو القاعدة وإن كان صورة تناسبها وتقربها من الفهم فهو المثل . (والثانية) أن القاعدة الكلية هي صورة إجمالية للمعلومات الجزئية والأمثلة والشواهد صور تفصيلية لها . والتعليم النافع إنما يكون بقرن الصور المفصلة بالصورة الجملة ، إذ بالتفصيل تعرف المسائل ، وبالإجمال تحفظ في العقل . وبهذه الطريقة يجمع بين العلم والعمل الذي يثبت به العلم ، وهي طريقة عبد القاهر في كتابه هذا وكتاب دلائل الإعجاز ، على أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى كله من آيات البلاغة فهو يعطيك علمها بمعانيه ، وعملها بمبانيه ، وبهذه المميزات يفضل هذا الكتاب جميع ما بين أيدينا من كتب الفن لأنها إنما تقتصر على سرد القواعد والأحكام بعبارات اصطلاحية ، تنكرها بلاغة الأساليب العربية . ولا تذكر من الشواهد والأمثلة إلا القليل النادر ، الذي أدلى به السابق إلى اللاحق والأول إلى الآخر .

لهذا بادر الأستاذ الإمام . مفتي الديار المصرية في هذه الأعوام ، إلى تدريس الكتاب في الأزهر الشريف عقيب شروعه في طبعه فأقبل على حضور درسه مع أذكى الطلاب كثيرون من العلماء والمدرسين وأساتذة المدارس الأميرية . وقد قال أحد فضلاء هؤلاء الأستاذين^(١) بعد حضور الدرس الأول « إننا قد اكتشفنا في هذه الليلة معنى علم البيان » .

وقد ظهر الأستاذ في غضون التدريس والمطالعة أغلاط في الكتاب بعضها من الطبع ، وبعضها من تحريف النساخ في الأصل ، وأغلاط أخرى في التعليقات فأحصيناها كلها من نسخته ، ووضعنا لها جدولاً في آخر الكتاب إتماماً للفائدة . ومما يجب التنبيه عليه أن بعض تراجم فصول الكتاب هي من وضعنا فإن المصنف رحمه الله تعالى كان يكتفي في كثير منها بكامة (فصل) .

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدي بك مدرس البلاغة وآداب اللغة العربية في المدارس العليا : دار العلوم فمدرسة القضاء الشرعي والجامعة المصرية .

ونحتم هذه المقدمة بملخص ترجمة المصنف رحمه الله تعالى فنقول :
اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين ولقبوه بالإمام واشتهر بالنحوى
من قبل أن يضع علم البلاغة . على أنه كان متكلماً وفقهاً أيضاً ، قال الحافظ الذهبي
في تاريخه (دول الإسلام) : « وفى سنة إحدى وسبعين وأربعمئة مات إمام الفحاة
أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني صاحب التصانيف » وقال تاج الدين
السبكي فى طبقات الشافعية الكبرى « عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ الكبير
أبو بكر الجرجاني النحوى المتكلم على مذهب الأشرى الفقيه على مذهب الشافعى
أخذ النحو بجرجان عن أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى بن أخت الشيخ أبى
على الفارسى ، وصار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات ، مع الدين المتين ،
والورع والسكون قال السلفى : كان ورعاً قانعاً دخل عليه لص وهو فى الصلاة
فأخذ ما وجد وعبد القاهر ينظر ولم يقطع صلاته . (ثم قال السبكي) : ومن مصنفاته
كتاب المغنى على شرح الايضاح فى نحو ثلاثين مجلداً وكتاب المقصد فى شرح
الايضاح أيضاً ثلاث مجلدات وكتاب إيجاز القرآن الصغير والعوامل المائة والمفتاح
وشرح الفاتحة والعمدة فى التصريف وكتاب الجمل المختصر المشهور » .

وفى كتاب (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) نحو من ذلك وزاد فى ذكر
المصنفات شرح كتاب الجمل . وذكر أن على بن أبى زيد الفصيحى أخذ عنه .
وذكروا له شعراً فمنه ما أورده الصلاح السكتى فى فوات الوفيات :

لا تأمن النقمة من شاعر ما دام حياً سالماً ناطقاً
فإن من يمدحكم كاذباً يحسن أن يهجوكم صادقاً

واتفقوا على أنه توفى سنة ٤٧١ قال السبكي « وقيل ٤٧٤ » رحمه الله تعالى .

محمد ربيع رضاء

منشئ مجلة (المنار)

تنبيهات لقراء الطبعة الثانية وما بعدها

(١) نفذت نسخ الطبعة الأولى من أسرار البلاغة منذ بضع عشرة سنة بعد أن صارت النسخة من الورق غير الجيد تباع بثلاثين قرشاً صحيحاً وكانت تباع بخمسة عشر ولم نوفق لإعادة طبعه إلا في هذه الأيام ، بعد إلحاح وزارة المعارف بطلبه في كل عام .
(٢) كنا ذكرنا في مقدمة الطبع أننا أحصينا ما صححه شيخنا الأستاذ الإمام من الكتاب في أثناء قراءته له في الجامع الأزهر ، ووضعنا له جدولاً في آخر الكتاب ولكن لم يتم لنا هذا في الطبعة الأولى كما كنا نؤمل عندما طبعنا المقدمة . فإننا لم نجتمع من تلك التصحيحات في جدول الخطأ والصواب إلا ما كان منها إلى غاية صفحة ١٥٨ وهي أقل من النصف وإما تم لنا في هذه الطبعة (الثانية) .

إننا زدنا على تصحيحات الأستاذ الإمام في هذه الطبعة ما علقه على الكتاب من تفسيره لبعض غريبه ، أو ما غمض من عباراته ، وبعض ما رأينا من الزيادة على ذلك من عندنا ، وبذلك زادت صفحات هذه على ما قبلها ٢١ صفحة وفي بعض زياداتنا استدراك في بعض المواضع على شيخنا رحمه الله تعالى .

(٤) إننا إلى الآن لم نعثر على نسخة مخطوطة من هذا الكتاب فالنسخة التي طبعناها بتصحيح شيخنا لها مع الاستعانة بإمام اللغة وأدبياتها في هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمه الله تعالى) — هي الأصل الصحيح الوحيد لهذا الكتاب — لهذا لم يتجرأ أحد على طبعه ولو غفلاً من التعليق عليه لأنه يحاكم فيحكم عليه (٥) ينبغي لقارئ هذا الكتاب وصنوه دلائل الإعجاز أن يتأمل حق التأمل ما انفرد به الإمام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة — البيان والمعاني والبديع — من قبيل العلوم الطبيعية كعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الفلسفة العقلية — لا مجرد مواضع واصطلاحات — فإنه يقيم فيها الدلائل ويسوق الحجج على كون البليغ من الكلام ما شتماله على التشبيه والتمثيل والحجاز العقلي أو اللغوي من قواعد البيان ، أو براعة نكت المعاني في التفكير والحصر والتأكيد والفصل والوصل وغير ذلك — إنما كان بإيغاً بذلك لأمر حقيقي في عقول الناس وشعورهم وتأثير الكلام في أنفسهم ولم يسبقه بهذا التحقيق سابق ، ولم يلحقه فيه لاحق ، ولا يتم الانتفاع بكتابه إلا لمن يفقه ذلك منهما ويذوقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله أجمعين .

اعلم أن الكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ،
ويكشف عن صورها ، ويبنى صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ،
ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان ،
ونبه فيه على عظم الامتنان ، فقال عز من قائل : (الرحمن علم القرآن *
خلق الإنسان * علمه البيان) فلولا لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ،
ولاصح من العاقل أن يفتق عن أزاخير العقل كائمه ، ولتعطلت قوى
الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية في موجودها وقائنها ،
نعم ، ولوقع الحى الحساس في مرتبة الجاد ، ولكان الإدراك كالذى
ينافيه من الاضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعاني مسجونة
في مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهان عن سلطانها
معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان ، ولما ظهر
فرق بين مدح وتزيين ، وذم وتهجين ، ثم إن الوصف الخالص به والم

المثبت انسبه : أنه يريك المعلومات بأوصافها التي وجدها العلم عليها ، ويقرر كيفياتها التي تناولها^(١) المعرفة إذا سميت إليها .

وإذا كان هذا الوصف مقوّم ذاته ، وأخصّ صفاته ، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر ، وبه أولى وأجدر ، ومن ههنا يبين للمحصل ، ويتقرر في نفس المتأمل ، كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن الهين الجلى أن التباين في هذه الفضيلة . والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة . ليس بمجرد اللفظ^(٢) كيف ؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتفق ، وأبطلت نظده^(٣) ونظامه الذي عليه بنى ، وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول في « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » : « منزل قفا ذكرى من نبك حبيب » أخرجته من كمال البيان ، إلى محال الهذيان ، نعم وأسقطت نسبه من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ، ونسب يختص بمتكلم ، وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه السكلم بيت شعر ، أو فصل خطاب ، هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ، وهذا الحكم - أعني الاختصاص

(١) أصالة تناولها ، وفي نسخة : تناولتها .

(٢) وفي نسخة : الألفاظ .

(٣) نضد المتاع نضداً يسكون الضاد من باب ضرب ضم بعضه إلى بعض متسقاً أو مركوماً وقد أجراه في تركيب الكلام تجوزاً أو النضد بالتحريك والنضيد الذي لنضود

في الترتيب — يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس ، المنتظمة فيها على قضية العقل ، وإن يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير ، وتخصيص في ترتيب وتنزيل ، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدونه فقيل : من حق هذا أن يسبق ذلك ، ومن حكم ماها هنا^(١) أن يقع هنالك^(٢) كما قيل في المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل ، حتى حظ في جنس من الكلم بعينه أن يقع إلا سابقاً ، وفي آخر أن يوجد إلا مبنياً على غيره وبه لاحقاً ، كقولنا : إن الاستفهام له صدر الكلام ، وإن الصفة لا تتقدم على الموصوف إلا أن تزال عن الوصفية — إلى غيرها من الأحكام ، فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ، أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلور شيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائح ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبثق عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف^(٣) وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده .

وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه ، فلا يكاد يعد نمطاً واحداً ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ، ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً ، أو عامياً سخيفاً : سخفه^(٤) بإزالته عن موضوع اللغة ، وإخراجه عما فرضته من الحكم ، والصفة ، كقول العامة « أشقات » و « انفسد » وإنما شرطت هذا الشرط فإنه ربما استسخف اللفظ بأمر يرجع إلى المعنى دون مجرد اللفظ ، كما يحكى من قول

(١) في نسخة هنا

(٢) وفي نسخة هناك

(٣) جمع جرس — بكسر الجيم وبفتحتها — وهو الصوت ، أو الخفي منه

(٤) السخف — بالضم — مصدر كالسخافة ، وأكثر ما يستعمل الأول في رقة

العقل وضعفه . والجملة بيان للعامى السخيف

عبيد الله بن زياد لما دهش « افتحوا لى سيفى » وذلك أن الفتح خلاف الاغلاق ،
فحقه أن يتناول شيئاً هو فى حكم المطلق والمسدود ، وليس السيف مسدود ، وأقصى
أحواله أن يكون كونه فى النعمد بمنزلة كون الثوب فى العكم^(١) والدرم فى الكيس
والمناع فى الصندوق . والفتح فى هذا الجنس^(٢) يتعدى أبداً إلى الوعاء المسدود على
الشيء الخارجى له لا إلى ما فيه ، فلا يقال : افتح الثوب ، وإنما يقال : افتح العكم
وأخرج الثوب وافتح الكيس .

وهنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة . وقبل إتمام العبارة : أن الحسن والقبح
فيها لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما يناعى فيه العقل والنفس ، ولما إذا حقق النظر
مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو .

القول فى التجنيس

أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما
من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أترك استضعفت
تجنيس أبى تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون : أمذهب أم مذهب

واستحسن تجنيس القائل « حتى نجا من خوفه وما بجا »^(٣) وقول المحدث^(٤)

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

(١) العكم — بالكسر — كالعدل وزنا ومعنى . والمراد بالعدل هنا الفرارة
والجوالق والعكم أيضاً تمط تجعل المرأة فيه ذخيرتها

(٢) وفى نسخة المعنى

(٣) نجا الأولى بمعنى أحدث ، والثانية بمعنى خلص

(٤) هو الفتح البستى وقبله :

قل للقلب : مادهاك ؟ أجيبنى قال لى : بائع الفرانى فرانى

— لأمر^(١) يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعتك حروفاً مكبرة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا بمجهولة منكورة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفأها ، فهذه السريرة صار التجنيس — وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة — من حلى الشعر — ومذكوراً في أقسام البديع .

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به . وذلك أن المعاني لاتدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدَمُ المعاني والمصرفة في حكمها ، وكانت المعاني هي المالكسة سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذا الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ، أمكن في القول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوى التحصيل ، وأسلم من التفاوت^(٢) وأكشف عن الأغراض ، وأنصر للجبهه التي تنحون نحو العقل ، وأبعد من التعمد^(٣) الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة في نفس الصورة وذات الخلقة

(١) متعلق بقوله : أنراك استضعفت . . واستحسننت .

(٢) التفاوت : التباعد والاختلاف

(٣) التعمد : التصنع

إذا أكثر فيها عن الوشم والنفش ، وأثقل صاحبها بالحلي والوشى ، قياس الحلى على السيف الددان^(١) والتوسع فى الدعوى بغير برهان ، كما قال :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها^(٢) وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناء فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس^(٣) بأصناف الحلى ، حتى يغالما من ذلك مكروه فى نفسها . فإن أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جنابة منه عليه ، وانتقاصاً له وتعويقاً دونه ، فاظر إلى خطب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا — والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع ، فإنها تروى وتتناقل تنقل الأشعار ، ومحلها محل النسيب والتشبيب^(٤) من الشعر الذى هو كأنه لا يراد منه

(١) فى نسخة : بالسيف ، والدان — بالفتح — الكليل فهو كالكمهم وزنا ومعنى ويطلق على ضده وهو القطاع

(٢) الشيات : جمع شية كمعدة وعدات ، وهى كل لون فى الشئ . يخالف معظم لونه الأصل ، وهو من الوشى . والكلام فى الحيل وقوله : وما الحيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لا يجرب

(٣) وفى نسخة : على العروس

(٤) نسب بالمرأة — كنسر وضرب — : وصف محاسنها بالشعر . والنسيب والتشبيب بالنساء واحد

إلا الاحتفال في الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط القريحة^(١) والأخبار عن فضل القوة ، والافتدار على التفنن في الصفة . قال في أول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الخيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سببا ، وبين الصدق نسباً ، وحجب إليك الثبوت ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشمر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك مافى الباطل من الزلة ، وما في الجهل من القلة » .

فقد ترك أولاً أن يوفق بين الشبهة والخيرة في الإعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، ويشفع الحق بالصدق ، ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيثاً يكون رديفاً له ، لأنه رأى التوفيق بين المعاني أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون أخوة من أب وأم ، ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ، على حسب اتفاقها بالميلاد — ، أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطلب الوزن ، أولاد علة عسى أن لا يوجد بينها وفاق إلا في الظواهر ، فأما أن يتعدى ذلك إلى الضمائر ، ويخلص إلى العقائد والسرائر ، ففي الأقل النادر .

وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه : ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملائمة — وإن كان مطلوباً — بهذه المنزلة وفي هذه الصورة وذلك كما يمثلون به أبدأ من قول

(١) الشوط : هو الجرى مرة واحدة إلى غاية

الشافعي رحمه الله تعالى - وقد سئل عن التبيذ - فقال « أجمع أهل الحرمين على تحريمه » وما تجده كذلك قول البحتري :

يعشى غن المجد الغبيء ؛ وان ترى في سؤدد أرباً لغير أريب
وقوله :

فقد أصبحت أغلب تغليبا على أيدي العشيرة والقلوب
وما هو شبيه به قوله :

وهوى هوى بدموعه فتبادرت نسقا يطأن تجلداً مغلوباً
وقوله :

مازلت تفرع باب بابل بالقنا وتزوره في غارة شعواء
وقوله :

ذهب الأعلى حيث تذهب مقلة فيه بناظرها حديد الأسفل^(١)

ومثال ما جاء من السجع هذا الجيء ، وجرى هذا الجرى في لين مقادته ، وحل

(١) البيت في وصف الفرس ، وقبله :

جدلان ينقض عذرة في غرة يقق تسيل حجوله في جندل

كالرايح النشوان أكثر مشيه عرضاً على السنن البعيد الأطول

العرض - بالضم - مشى محمود في الخيل مذموم في الإبل ، والعذرة : علامة تعلق

على ناصية الفرس ، وينقضها : يحل فتلها من نشاطه وخفة حركته . - هذا ما كتبه

في حاشية الطبعة الأولى ، ولكن الشنقيطي كتب إلى الأستاذ الإمام أن الرواية

الصحيحة ينقض - بالفاء - فللمناسب إذاً أن يراد بالعذرة شعر الناصية ، وإن كان فيها

خلاف فقد قيل : هي شعر السكاهل أو شعرات في القفا ، والنقض : تحريك خاص

للشيء يراد به خروج الغبار منه ، شبه كثرة تحريك الفرس لغرته بتحريك رأسه .

هذا المحل من القبول : قول القائل : اللهم هب لي حذاء ، وهب لي مجداً ، فلا يجد إلا بفعل^(١) ولا فعال إلا بمال . وقول ابن العميد : فإن الإبقاء على خدام السلطان عدل الإبقاء على ماله ، والاشفاق على حاشيته وحشمه ، عدل الإشفاق على ديناره ودرهمه .

ولست تجد هذا الضرب يكثر في شيء ويستمر كثرتة واستمراره في كلام القدماء ، كقول خالد : ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ، وبهيمة مهملة . وقول الفضل بن عيسى الرقاشي : سل الأرض ، فقل : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبي عليه السلام تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التي قدمت ، وذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله صلوات الله عليه « لا تزال أمتي بخير ما لم تر الغنى مغنا ، والصدقة مغرمًا » وقوله : « يا أيها الناس ، أفسحوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع ، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه وأبرّ به ، وأهدى إلى مذهبه ، ولذلك أنكر الأعرابي — حين شكّا إلى عامل المكا بقوله : « حَلَّات ركابي^(٢) وشققت ثيابي ، وضربت صحابي . فقال له العامل : ويسجع أيضاً — إنكار^(٣) العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول ؟ وذاك أنه لم يعلم أصلاح لما أراد

(١) الفعال بالفتح : الكرم ويؤيده ما بعده .

(٢) الركاب — بالكسر — المطى ، واحداً راحلة من غير لفظها . وأما الركوبة بالفتح فهي الناقة التي تركب ، كذا في أصل اللغة ، ثم استعيرت لكل ما يركب . وحلّات الركاب بالتحفيف والتشديد : منعها ورود الماء .

(٣) إنكار مفعول لا نكر الأعرابي .

من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخللاً بمعنى ، أو محدثاً في الكلام استكراهاً ؛ أو خارجاً إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد في غرضه . وقال الجاحظ : لأنه لو قال : حلات إيلي أو جمالي أو نوقي أو بعراني أو صيرمتي^(١) لكان لم يعبر عن خفي معناه ، وإنما حُلَّت ركابه ، فسكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابي وضربت صحابي .

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول : هو أن المتكلم لم يقصد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ؛ وعبر به الفرق عليهما^(٢) حتى إنه لورام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقود المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبهة بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر .

وان نجد أيمن طائراً ، وأحسن أولاً وآخرأ ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعاني على سجيتهما ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ . فإنها إذا تركت وما تريد لم تكنس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها^(٣) فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض^(٤) الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم ، فإن ساعدك الجذ كسا ساعد في قوله « أودعاني أمت بما أودعاني » وكسا ساعد أبا تمام في نحو قوله :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدني على ساكني نجد

(١) الصرمة - بالكسر : القطعة من الإبل بين ٣٠ إلى ٤٠ أو ٥٠ أو من ١٠ إلى ٤٠

(٢) الفرق - بالفتح : الفصل بين الشيئين ، ومن معانيه بالكسر : الموجه .

(٣) المعارض - جمع معرض كمنبر - ثوب تجلى فيه الجارية ليلة المرس .

(٤) نظر إليه عن عرض وعرض أي عن جانب . والعرض الجانب والتاحية اهـ

وقوله :

هنّ الحمام فإن كسرت عيافة^(١) من حائهن فإهن حمام
فذاك : وإلا أطلقت السنة العيب ، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث
لم يحسن الطلب ، إلى أخش الإساءة وأكبر الذنب ، ووقعت فيما ترى من
ينصرك لا يرى أحسن من أن لا يرويه لك ، ويود لو قدر على نفيه عنك ،
وذلك كما تجده لأبي تمام إذا أسلم نفسه للتكلف ، ويرى أنه إن مر على
اسم موضع يحتاج إلى ذكره ، أو يتصل بقصة يذكرها في شعره ، من دون
أن يشتق منه تجنيساً ، أو يعمل فيه بديعاً ، فقد باء بإثم ، وأخل بفرض
حتم ، من نحو قوله :

سيف الأمام الذي سمته هيبته لما تخرم أهل الأرض مخترما
إن الخليفة لما صال كنت له حليفة الموت فيمن جار أوظلما
قرت بقران عين الدين واشتريت^(٢) بالأشتين عيون الشرك فاصطلما
وكقول بعض المتأخرين :

البس جلايب القناعة ، إنها أوقى رداء
ينجيك من داء الحرص ص معاً ومن أوقار داء^(٣)

(١) عفت الطير ، أعيفها عيافة : زجرتها . وهو أن تعتبر بأسمائها وما يقرب
أو يشتق منها أو يحرف إليها ، وبمساقطها وأصواتها . فتتفاءل أو تتشام ، والحمام
بالكسر — الموت

(٢) الشتر : انقلاب الجفن من أعلى وأسفل وسترخاؤه . وقران — بالضم
وتشديد الراء ، والأشتران : مواضع . والجناس في البيت يسمونه المطلق

(٣) قوله أوقار داء : الاوقار فيه : جمع وقر بالفتح . وهو الحمل الثقيل ،
أى أثقال داء . والجناس في قائية البيتين يسمونه المركب ، وتركيبه من الطرايين

وكتول أبى الفتح البُستى :

جفوا ، فما فى طينهم للذى يعصره من ريلة بالله
وقوله :

أخ لى لفظه در وكل فعـاله بر

تلقانى ، فـيـانى بوجه بشره بشر^(١)

لم يساعدهما حسن التوفيق كما ساعد فى نحو قوله :

وكل غنى يتيه به غنى فـرتـجـع بموت أو زوال

وهب جدى طوى لى الأرض طراً أليس الموت يزوى مازوى لى ؟
ونحوه :

منزلى تحفظ من ذاتى وباحتى تكرم ديباجتى^(٢)

واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، وجعلتها العلة فى استيعابه الفضيلة ،
وهى حسن الإفادة ، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة ، وإن كانت لا تظهر
الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى المتفق الصورة منه ، كقوله :

مامات من كرم الزمان ، فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

أو المرفو الجارى هذا الجرى . كقوله « أودعانى أمت بما أودعانى » فقد^(٣)

يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضاً . فما يظهر ذاك فيه ما كان نحو قول أبى تمام :

(١) البشر - بالتحريك - جمع بشرة . وهى ظاهر الجلد وسكن الشين للضرورة

(٢) الباحة بالمهمله : الساحة ، والنخل الكثير ، وقال شيخنا فى الجنس : إنه

شئ من المسحف المطرف . وأظن أن الباحة : بالجيم ، وهى الطريقة المستوية ، أو
كناية عن الضيافة ، من قولهم : اجعل البأجات واحدة ، أى ألوان الطعام ، وهو
معرب . وأصله الهمز ويترك وكل من المعنى والجناس فيه أظهر .

(٣) جواب : وإن كانت ؛ أى النكتة لا تظهر الخ .

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب^(١)
وقول البحترى :

لئن صدفت عنا فرُبَّتْ أنفسي صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادف
وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة ، كاليم من عواصم ، والباء
من قواضب : أسها هي التي مضت ، وقد أرادت أن تبيثك ثانية ، ونعود إليك
مؤكددة ، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن
ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفي ذلك ما ذكرت لك من
طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى
ترى أنه رأس المال .

فأما ما يقع التجالس فيه على العكس من هذا^(٢) . وذلك أن تختالف الكلمات
من أولها . كقول البحترى :

بسيوف إيماضها أوجال للأعادي ، ووقمها آجال
وكذا قول المتأخر^(٣) :

وكم سبقت منه إلى عوارف ثنائى من تلك العوارف وارف
وكم غُرر من يره ولطائف لشكرى^(٤) على تلك اللطائف طائف
وذلك أن زيادة عوارف على وارف بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة
في الجملة فانه^(٥) لا يبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيل^(٦) فيه ،
وإن كان لا يقوى تلك القوة ، كأنك ترى أن اللفظة أعيدت عليك ، مبدلاً

(١) الجناس فى كل من المصراعين من الطرف الناقص .

(٢) أى الطرف الناقص .

(٣) ذكر بعضهم : أنه هو المصنف وهو خطأ . وكتبه شيخنا .

(٤) وفي معاهد التنصيص : فشكرى .

(٥) جواب : فاما

(٦) وفي نسخة : التخيل .

من بعض حروفها غيره أو محذوفها منها . ويبقى في تتبع هذا الموضع كلام حقه غير هذا الفصل . وذلك حيث يوضع .

فصل

في قسمة التعجيس وتنويعه

فالذي يجب عليه الاعتماد في هذا الفن : أن التوهم على ضربين ، ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقاداً ، وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ، ولكنه شيء يجري في الخاطر . وأنت تعرف ذلك وتتصور وزنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشئيين يشبهان الشبه التام ، والشئيين يشبه أحدهما بالآخر على ضرب من التقريب ، فأعرفه .

وأما الحشو فإنما كرهه وذم ، وأنكر ورد ، لأنه خلا من الفائدة ، ولم يحل^(١) منه بعائدة ولو أفاد لم يكن حشواً ، ولم يدع لغواً ، وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعاً من القبول أحسن موقع ، ومدركاً من الرضى أجزل حظ ، ذاك لإفادته إياك على مجيئه بجيء مالا يعول في الإفادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسننة تأنيك من حيث لم ترقبها ، والنافعة أتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلي ظرفاً يحظى به حتى يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم ، والأحباب الذين وثق بالأنس منهم وبهم .

وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن

(١) هو من حلى - كرضى - بمعنى تزين .

والقبح لا يمتزج الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة ، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين ، تصعيد وتصويب .

أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ، ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، والقياس يجري فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ؛ وتستغنى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان .

وأما التطبيق : فأمره أبين ؛ وكونه معنويًا أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده ؛ والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة ثم مجال ، فخذ إليك الآن بيت الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسف اللفظ :

وما مثله في الناس إلا مُملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه
فانظر ، أنتصور أن يكون ذلك للفظه من حيث أنك أنكرت شيئا من
حروفه أو صادفت وحشيا غريبا ، أو سوقيا ضعيفا ؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتب
الألفاظ في الذكر ، على موجب ترتيب المعاني في المذكر ، فكدر وكدر ، ومنع
السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر ، ثم أسرف في إبطال النظام ،
وإبعاد المرام ، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ، ولكن بعد أن
يراجع فيها بابا من الهندسة ، لغرط ما عادي بين أشكالها ، وشدة ما خالف
بين أوضاعها .

وإذا وجدت ذلك أمرا بينا ، لا يعارضك فيه شك ، ولا يملكك
معه امتراء ، فانظر إلى الأشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ ووصفوها
بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدمثة ، وقالوا : كأنها الماء جريانا ، والهواء لطفًا ،

والرياض حسناً ، وكأنها النسيم ، وكأنها الرحيق مزاجها التسليم ، وكأنها
الديباج الخسرواني في مرآى الأبصار ، ووشى اليمن منشوراً على أذرع التجار ،
كقوله :

ولما قضينا من مَنَى كل حاجة ومَسَحَ بالأركان من هو ماسح
وشدّت على دُهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح
ثم راجع فـكرتكَ ، واشحذ بصيرتكَ ، وأحسن التأمل ، ودع عنك
التجوز فى الرأى ، ثم انظر ، هل تجد لاستحسناتهم وخدمهم وثنائهم ومدحهم
منصرفاً إلا إلى استعارة وقعت موقعها . وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب
تكامل معه البيان ، حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ،
واستقر فى الفهم مع وقوع العبارة فى الأذن ، وإلا إلى سلامة الكلام من
الحشو غير المفيد ، والفضل الذى هو كالزيادة فى التحديد ، وشىء^(١) داخل
المعانى المقصودة مداخله الطفيل الذى يستثقل مكانه ، والأجنبي الذى يكره
حضوره ، وسلامته من التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى تطلب زيادة بقيت
فى نفس المتكلم ، فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها ، واعتمد دليل حال غير
مفصح ، أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح وذلك أن أول ما يتلقاك
من محاسن هذا الشعر : أنه قال * ولما قضينا من مَنَى كل حاجة * فعبّر عن
قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن
يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ثم نبه بقوله * ومسح بالأركان من

(١) معطوف على الحشو غير المفيد .

هو مسح * على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر ؛ ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ، ثم قال * أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * فوصل بذكر مسح الأركان ، ما يليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة « الأطراف » على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر ، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، وأنبا بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحاب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه ، فصرح أولاً بما أوما إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث ، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفي حال التوجه إلى المنازل وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطاءة الظهر ، إذ جعل سلسلة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطيفة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك في نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً . ثم قال « بأعناق المطى » ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقها ؛ ويبين أمرها من هواديها وصدورها ، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة ، وتتبعها في الثقل والخفة . ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا في أنفسهما بأفاعيل لما خاصة في العنق والرأس . ويدل عليهما بشمائل مخصوصة في المقادير . فقل الآن : هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها

فلاظة من ألفاظها ، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الـ
[٢ - أسرار البلا.

وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه ، وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي — وإن ازدادت حسناً بمصاحبة أخواتها . واكتست رونقاً بمضامة أترابها — فإنها إذا جليت للعين فردة ؛ وتركت في الخيط فذة ، لم تعدم الفضيلة الذاتية ، والبهجة التي في ذاتها مطوية ، والشذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها في القلادة ، واكتنافها لها في عنق الغادة ، وصلتها بريق حررتها ، والتهاب جواهرها . بأنوار تلك الدور التي تجاورها ، ولألاء الآلىء التي تناظرها ، تزداد جمالا في العين ، ولطف موقع من حقيقة الزين . ثم هي إن حرمت صحبة تلك العقائل وفرق الدهر الخثون بينها وبين هاتيك النفائس . لم تعر من بهجتها الأصلية ، ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية ،^(١) ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ ، وإن كان لا يبعد أن يتخيله من لا ينعم النظر ، ولا يتم التدبر ، بل حق هذا المثل أن يوضع في نصرة بعض المعاني^(٢) الحسكية والتشبيهية بعضاً ، وازدياد الحسن منها بأن يجمع شكل منها شكلاً ، وأن يصل الذكر بين متدانيات في ولادة العقول إياها . ومتجاورات في تنزيل الأفهام لها .

واعلم أن هذه الفصول التي قدمتها ؛ وإن كانت قصايا لا يكاد يخالف فيها من به طرق^(٣) فإنه قد يذكر الأمر المتفق عليه ، ليبني عليه المختلف فيه ، هذا ، ورب وفاق من موافق قد بقيت عليه زيادات أغفل النظار فيها ، وضروب من التأخيم والتعذيب لم يبحث عن أوائلها وثوانيتها ؛ وطريقة

(١) كلا ، أو مثل ما ذكرت لك سابقاً اهـ (ش)

(٢) أى فالحسن دائماً راجع إلى المعاني اهـ (ش)

(٣) — الطرق — بالفتح — ضعف الفعل . ومن معانيه بالكسر : القوة ،

وهو المراد

في العبارة عن المعزى في تلك الموافقة لم يمهدها ، ودقيقة في الكشف عن الحجة على مخالف — لو عرض من المتكلمين — لم يجدها ، حتى تراه يطلق في عرض كلامه ما برز منه وفاقاً في معرض خلاف ، ويعطيك إنكاراً وقد همّ باعتراف ، ورب صديق والاك قلبه وعاداك فعله ، فتركك مكدوداً لا تشتفى من دائك بعلاج ، وتبقى منه في سوء مزاج .

المقصد

واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته ، والأساس الذي وضعته^(١) أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني ، كيف تتفق وتختلف^(٢) ومن أين تجتمع وتفرق ، وأفضل أجناسها وأنواعها ، وأتبع خاصها ومشاعها ، وأبين أحوالها في كرم منصبها من العقل ، وتمكنها في نصابه ، وقرب رحبها منه ، أو بعدها حين تنسب عنه ، وكونها كالحليف الجارى مجرى النسب ، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ، ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه ، وإن من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب البريز الذي تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصناعات ، وجبل المعول في شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع في قدره . ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها — ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقياً معها لم يبطل — قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو ،

(١) هذا نص من المصنف بأنه هو الواضع لهذا الفن ، وهو ما لم ينكره عليه أحد .

(٢) لو آخر « تتفق » لجاءت السجعة مقفاة ، مع تفرق فيما بعدها . ولكنه رأى المعنى دون اللفظ على قاعدته .

والارغبة إليها انصباب ، وللنفوس بها إعجاب ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وضامت الحادثات أربابها ، وفجعتهم فيها بما يسلب حسناتها المكتسب بالصناعة ، وجعلها المستفاد من طريق العرض ، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبها ، وعادت الرغبات التي كانت فيها زهداً ، وأوسعها عيون كانت تطمح إليها إغراضاً دونها وصدأ ، وصارت كمن أحظاه الجد^(١) بغير فضل كان يرجع إليه في نفسه ، وقدمه البخت من غير معنى يقضى بتقدمه ، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته ، وتنبه لغلطته ، فأعاده إلى دقة أصله ، وقلة فضله ، وهذا غرض لا ينال على وجهه ، وطالبة لا تدرك كما ينبغي ، إلا بعد مقدمات تقدم ، وأصول تمهد ، وأشياء ، هي كالأدوات فيه ، حقها أن تجمع ، وضروب من القول ، هي كالمسافات دونه ، يجب أن يسار فيها بالفكر وتقطع .

وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه : القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة . فإن هذه أصول كثيرة كان جل محاسن الكلام — إن لم نقل كلها ، متفرعة عنها ، وراجعة إليها . وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها . وأقطار تحيط بها من جهاتها . ولا مثل قولهم « الفكرة فنج العمل » وقوله * وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله * وقوله « السفر ميزان القوم » وقول الأعرابي « كانوا إذا اصطفوا سمرت بينهم السهام ، وإذا تصالحوا بالسيوف قفز الحمام » والتمثيل كقوله * فانك كالليل الذي هو مدركي * ويؤتى بأمثلة إذا حُقق النظر في الأشياء يجمعها الاسم الأعم ، وينفرد كل منها بخاصية من لم يقف عليها^(٢) كان قصير الهمة في طلب

(١) في تاج العروس : أحظيت فلاناً على فلان : فضلته عليه (ش) والجد

— بالفتح — الحظ والبخت .

(٢) جملة « من لم يقف عليها » في محل خفض صفة « خاصة » .

الحقائق ، ضعيف المنة^(١) في البحث عن الدقائق ، قليل التوق إلى معرفة اللطائف .
يرضى بالجميل^(٢) والظواهر ، ويرى أن لا يعطيل سفر الخاطر ، ولعمري إن ذلك
أروح للنفس ، وأقل للشغل ، إلا أن من طلب الراحة : ما يعقب تعباً ، ومن
اختيار ما تقل معه الكلفة : ما يفضى إلى أشد الكلفة ، وذلك أن الأمور
التي تلتقى عند الجملة وتباین لدى التفصيل ، وتجتمع في وحدة ثم يذهب بها
الشعب ويقسمها قبيلًا بعد قبيل ، إذا لم تعرف حقيقة الحال في تلاقيها حيث
التقت ، وافتراقها حيث افترت ، كان قياس من يحكم فيها إذا توسط الأمر^(٣)
قياس من أراد الحكم بين رجلين في شرفهما وكرم أصلهما ، وذهاب عرقهما
في الفضل ، ليعلم أيهما أقعد في السؤدد وأحق بالفخر ، وأرسخ في أرومة المجد^(٤) ،
وهو لا يعرف من نسبتهما أكثر من ولادة الأب الأعلى والجد الأكبر ، لجواز
أن يكون واحد منهما قرشياً أو تميمياً ، فيكون في المعجز عن أن يرم قضية في
معناها ؛ ويبين فضلاً أو نقصاً في منماها ، في حكم من لا يعلم أكثر من أن كل
واحد منهما آدمي ذكر ، أو خلق مصور .

واعلم أن الذي يوجبه ظاهر الأمر ، وما يسبق إليه الفكر : أن نبداً
بجملة من القول في الحقيقة والمجاز ، وتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل ،
ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ، ونأتي بهما في أثرهما ، وذلك أن المجاز

(١) المنّة — بالضم — القوة

(٢) الجمل — بالفتح الجمع .

(٣) وسطهم وتوسطهم جلس وسطهم .

(٤) أرومة المجد — أصله (ش) وهو مجاز والأرومة بفتح الهمزة وضمها

أصل الشجرة .

أعم من الاستعارة ، والواجب في قضايا المراتب : أن نبدأ بالعام قبل الخاص .
والتشبيه كالأصل في الاستعارة ، وهي شبيه بالفرع له أو صورة مقتضية من صورته .
إلا أن ههنا أموراً اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة وبيان صدر منها ، والتنبيه
على طريق الانقسام فيها . حتى إذا عترف بعض ما يكشف عن حالها ، ويقف على
سعة مجالها ، عطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين ، فوفى حقوقهما ، وبين
فروقهما ، ثم ننصرف إلى استقصاء القول في الاستعارة .

(تعريف الاستعارة)

اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً
تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر
في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم ، فيكون هناك كالعمارية .

(تقسيم الاستعارة)

ثم إنها تنقسم أولاً قسمين . أحدهما : أن لا يكون لنقله فائدة . والثاني : أن
يكون له فائدة .

وأنا أبدأ بذكر غير المفيد ، فإنه قصير الباع ، قليل الانساع . ثم أتكلم
على المفيد الذي هو المقصود . وموضع هذا الذي لا يفيد نقله ، حيث يكون اختصاص
الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتنوُّق^(١) في

(١) التنوُّق في الأمر : التأنق فيه ، والاسم منه النيقة . وفي المثل « خرقاء
ذات نيقة » يضرب للجاهل بالأمر ومع جهله يدعى المعرفة ويتأنق في الإرادة

مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها ، كوضعهم للمضوء الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للإنسان ، والمشر للبعير ، والجمحلة للفرس ، وما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت في غير لغة العرب وربما لم توجد ، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه ، كقول البجاج « وفاحماً ومرسناً مسرجاً » يعنى أنفاً برق كالسراج ، والمرس في الأصل للحيوان ، لأنه الموضع الذي يقع عليه الرسن وقال الآخر يصف إبلاً :

تسمع للماء كصوت المسحل بين ورديها وبين الجمحل^(١)

وقال آخر : * والحشو من حَفَانِها كالحنظل^(٢) * فأجرى الحفان على صفار الإبل ، وهو موضوع لصفار النعام ، وقال آخر :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا نزع من شفتيه الصفارا^(٣)

فاستعمل الشفة في الفرس ، وهي موضوعة للإنسان . فهذا ونحوه لا يفيدك شيئاً لو لزم^(٤) الأصل لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه ، وقوله : من جحفلاتيه ، لو قاله . إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب . بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءاً من الفائدة أشبه . وذلك أن الاسم في هذا النحو إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة دل

(١) المسحل - كمنبر بالحاء - حمار الوحش ، له حشرجة ، يشبهون بها كثيراً ، وهو من سحل سحلا وسحالا . ومن المجاز : خطيب مسحل ولسان مسحل ، جعل كالمبرد ، كافي الأساس ، والمسحل آلة السحل أى النحت والسحق والفشر والبرد ومنه المبرد . (٢) الحشو : صفار الإبل ورذال الناس .

(٣) الصفار - بالضم - القراد ، وما بقى في أصول أسنان الدابة من تبين ونحوه وهو المراد هنا .

(٤) جملة « لو لزم » في محل نصب صفة « شيئاً » .

ذكره على العضو وما هو منه . فإذا قلت الشفة دلت على الإنسان ، أعنى تدل على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره . فإذا توهمت جرى الاستعارة في الاسم زالت عنها هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك . فإذا قلت : الشفة في موضع قد جرى فيه ذكر الإنسان والفرس ، دخل على السامع بعض الشبهة لتجويزه أن تكون استعرت الاسم للفرس ، ولو فرضنا أن تعدم هذه الاستعارة من أصلها وتحظر ، لما كان لهذه الشبه طريق على المخاطب فاعرفه .

وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعانى وغرض من الأغراض ، لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة وذلك الغرض التشبيه إلا أن طرقة تختلف حتى تقوت النهاية ، ومذاهبه تنشعب حتى لا غاية ، ولا يمكن الانفصال^(١) منه إلا بفصول جمة وقسمة بعد قسمة ، وأنا أرى أن اقتصر الآن على إشارة تعرف صورته على الجملة بقدر ما تراه ، وقد قابل خلافه الذى هو غير المفيد . فقيم تصورك للغرض والمراد ، فإن الأشياء تزداد بياناً بالأضداد ، ومثاله قولنا : رأيت أسداً — وأنت تعنى رجلاً شجاعاً ، وبحراً — تريد رجلاً جواداً ، وبدراً وشمساً — تريد إنساناً مضى الوجه متهللاً ، وسللت سيفاً على العدو — تريد رجلاً ماضياً فى نصرتك ، أو رأياً نافذاً ، وما شا كل ذلك . فقد استعرت اسم الأسد للرجل ، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك وهو المبالغة فى وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه فى نفس السامع صورة الأسد فى بطشه وإقدامه وبأسه

(١) وفى نسخة : الاتصاف ، بدل الانفصال

وشدته ، وسائر المعاني المركوزة في طبيعته ، مما يعود إلى الجرأة ، وهكذا أفدت باستعارة البحر سعته في الجود وفيض الكف ، وبالشمس والبدر مالهما من الجمال والبهاء والحسن المالىء للعيون والباهر المناظر .

وإذ قد عرفت المثال في كون الاستعارة مفيدة على الجملة وتبين لك مخالفة هذا الضرب للضرب الأول الذى هو غير المفيد ، فإنى أذكر بقية قول مما يتعلق به — أعنى بغير المفيد — ثم أعطف على أقسام المفيد وأنواعه وما يتصل به ويدخل في جملة من فنون القول بتوفيق الله عز وجل ، وأسأله عز اسمه المأمونة ، وأبرأ إليه من الحول والقوة ، وأرغب إليه في أن يجعل كل ما ينصرف فيه منصرفاً إلى ما يتصل برضاه^(١) ومصروفاً عما يؤدي إلى سخطه .

اعلم أنه إذا ثبت أن اختصاص المرسل بغير الآدمى لا يفيد أكثر مما يفيد الأنف في الآدمى ، وهو فصل هذا العضو من غيره ، ولم يكن باستعارته للآدمى مفيداً ما لا يفيد بالأنف ، لم يتصور^(٢) أن يكون استعارة من جهة المعنى . وإذا كان مدار أمره على اللفظ لم يتصور أن يكون في غير لغة العرب ، بلى إن وجد في لغة الفرس مراعاة نحو هذه الفروق ثم نقلوا الشيء من الجنس المخصوص به إلى جنس آخر كانوا قد سلكوا في لغتهم مسلك العرب في لغتها ، وليس كذلك المفيد ، فإن الكثير منه تراه في عداد ما يشترك فيه أجيال الناس ، ويجرى به العرف في جميع اللغات فقولك : رأيت أسداً — تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة — أمر يستوى فيه العربى والعجمى ، وتجدد في كل جيل ، وتسمعه

(١) وفي نسخة : إلى ما يرضاه .

(٢) قوله « لم يتصور » جواب « إذا ثبت » .

من كل قبيل ، كما أن قولنا : زيد كالأسد — على التصريح بالتشبيه — كذلك ، فلا يمكن أن يدعى أننا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة فقد عمدنا إلى طريقة في المعقولات لا يعرفها غير العرب ، أو لم تتفق لمن سوام ، لأن ذلك بمنزلة أن تقول : إن تركيب الكلام من الاسمين ، أو من الاسم والفعل يختص بلغة العرب ، وإن الحقائق التي تذكر في أقسام الخبر ونحوه مما لا نعقله إلا من لغة العرب ؛ وذلك مما لا يخفى فساد .

فإذا ذكر المجاز وأريد أن يعد هذا النحو من الاستعارة فيه فالوجه أن يضاف إلى العقلاء جملة ، ولا تستعمل لفظة توهم أنه من عرف هذه اللغة ، وطرقها الخاصة بها ، كما تقول — مثلاً — فيما يختص باللغة العربية من الأحكام ، نحو الإعراب بالحركات والصرف ومنع الصرف ، ووضع المصدر مثلاً موضع اسم الفاعل ، نحو رجل صوم وضيع ، وجمع الاسم على ضروب ، نحو جمع السلامة والتكسير وجمع الجمع ، وإعطاء الاسم الواحد في التكسير عدة أمثلة ، نحو فرخ وأفرخ وفراخ وفروخ ، وكالفرق بين المذكر والمؤنث في الخطاب ، وجملة الضمائر وما شا كل ذلك ، ولإغفال هذا الموضع ، والتجاوز في العبارة عنه ، دخل الغلط على من جعل الشيء من هذا الباب سرقة وأخذاً ، حتى نعى عليه ، وبين أنه من المعاني العامة والأمور المشتركة التي لا فضل فيها للعربي على العجمي ، ولا اختصاص له بجيل دون جيل على ما ترى القول فيه — إن شاء الله تعالى — في موضعه ، وهو تعالى ولي المن بالتوفيق له بفضل وجوده .

ولو أن مترجماً ترجم قوله * وإلا النعام وحفانه * ففسر الحفان باللفظ المشترك الذي هو كالأولاد والصغار لأنه لا يجد في اللغة التي بها يترجم

لفظاً خاصاً ، لكان مصيباً ومؤدياً للكلام كما هو . ولو أنه ترجم قولنا : رأيت أسداً ، يريد رجلاً شجاعاً ، فذكر ما معناه معنى قولك « شجاعاً شديداً » وترك أن يذكر الاسم الخاص في تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجماً للكلام بل كان مستأنفاً من عند نفسه كلاماً . وهذا باب من الاعتبار يحتاج إليه ، فحقه أن يحفظ ، وعسى أن يجيء له زيادة بسط فيما يستقبل .

فألم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذي هو استعارة من طريق اللفظ ويعد في قبيله ، وهو — إذا حققت — ناظر إلى الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى وجار في سبيله ، فمن ذلك : قولهم « إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر » ، وذلك أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الدم فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته في الغلظ مشفر البعير وجحفة الفرس ، وعلى ذلك قول الفرزدق :

فلو كنت ضبيّاً عرفت قرابتى وأكنّ زنجياً غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك : « وأكنّ زنجياً كأنه جل لا يعرفنى ولا يهتدى لشرفى » ، وهكذا ينبغي أن يكون القول في قولهم : « أشب فيه نخاله » ؛ لأن المعنى على أن يجعل له في التعلق بالشيء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته والبازى مع صيده ، وكذا قول الخطيئة .

قرّوا جارك العيان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره^(١)

حقه — إذا حققت — أن يكون في القليل المعنوى ، وذلك أنه وإن كان عنى نفسه بالجار فقد يجوز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء

(١) العيان : العطشان إلى اللبن أشد العطش ، وقلص يستعمل لازماً ومتعدياً

الحال ، ويعطيها صفة من صفات النقص ليزيد بذلك في التهمك بالزبرقان^(١) ويؤكد ما قصده من رميه بإضاعة الضيف وأطراحه وإسلامه للضر والبؤس ، ولبس ببعيد من هذه الطريقة من ابتداء شعراً في ذم نفسه ولم يرض في نفسه ، ولم يرض في وصف وجهه بالتقبيح والتشويه ، إلا بالتصريح الصريح دون الإشارة والتنبيه .

وأما قول مَزَرَّد^(٢) :

فما رقد الولدان حتى رأيت على المكريميه بساق وحافر^(٣)

فقد قالوا : إنه أراد أن يقول : بساق وقدم ، فلما لم تطاوعه القافية وضع الحافر موضع القدم ، وهو وإن كان قد قال بعد هذا البيت ما يدل على قصده أن يحسن القول في الضيف وتباعده من أن يكون قصد الزراية عليه ، أو يحول^(٤) حول الجزء به والاحتقار له وذلك قوله :

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بهذا الحيتاً من محيٍ وزائر

فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضى ، وأن يكون الذي أفضى به إلى ذكر الحافر : قصده أن يصفه بسوء الحال في مسيره ، وتقاذف نواحي الأرض به ، وأن يبالغ في ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره ، واستفراغ مجهوده في نفسه ، ويؤنس بذلك أن تنظر إلى قوله قبل :

(١) الزبرقان — بكسر الزاي والراء — لقب الحصين بن بدر الصحابي لقب به لجماله ، أو لصفرة عمامته كما في الفاموس ، فالأول لأن الزبرقان اسم للقمر وقيدته الليث بالقمر في الليلة الخامسة عشرة — والثاني من الزرقة وهي صبغ الثوب بالأحمر أو الأصفر .

(٢) من شعراء الصحابة رضى الله عنهم ، وفي نسخة : لقب أخى الشماخ .

(٣) معنى يمريه : يستخرج ما عنده من الجرى .

(٤) يحول : أى يتحرك .

وأشعث مسترخى العلابي طوحت به الأرض من باد عريض وحاضر^(١)
فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر^(٢)
وبعده (فما رقد الولدان) فإذا جعله أشعث مسترخى العلابي فقد قربت المسافة
بينه وبين أن يجعل قدمه حافراً ، ليعطيه من الصلابة وشدة الوقع على جنب البكر
حظاً وافراً ، وهكذا قول الآخر :

سأمنعها ، وسوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشق
هو في حد التشبيه والاستعارة ، لأن المعنى على أن الأظلاف لمن تزني بالملك
عن مشابهة ، كأنه قال أجعل أمرها إلى ملك لا إلى عبد جاف ، متشقق الأظلاف .
ويدل على ذلك أن أبا بكر بن دريد قال في أول الباب الذى وضعه للاستعارة :
« يقولون للرجل إذا عابوه : جاءنا حافياً متشقق الأظلاف » ثم أنشد البيت . فإذا
كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها في موضع العيب والنقص فلا شك
في أنها معنوية وكذا قوله :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا^(٣)
فأجرى التواب على ولد المرأة وهو لولد الحمار فى الأصل ، وذلك لأنه يصف
حال ضر وبؤس ، ويذكر امرأة بائسة فقيرة . والعادة فى مثل ذلك الصفة
بأوصاف البهائم ليسكون أبلغ فى سوء الحالة وشدة الاختلال . ومثله سواء
قول الآخر :

(١) العلابي : جمع علباء بالكسر ، وهى عصابة صفراء فى صفحة العنق وهما
علباوان بينهما منبت العرف .

(٢) النشز : المكان المرتفع .

(٣) البيت لأوس بن حجر والهدم بالكسر الثوب البالى أو المرقع . والنواشر
جمع ناشرة وهى عصب فى الذراع من داخل وخارج وقيل عروق وعصب فى باطن
الذراع . وتصمت تسكت ولدها بالصمته وهى بالضم ما يسكت به . والجدع السوء الغداء

وذكرت أهلى بالعرا ق وحاجة الشعث التوالب

كأنه قال : الشعث التى لورأيتها حسبتها توالب ، لما بها من الغبرة وبذاذة الهيئة^(١) ، والجذع فى البيت بالذال غير معجمة . حكى شيخنا رحمه الله قال : أنشد المفضل * تصمت بالماء تولبا جذعا * بالذال المعجمة : فأنكره الأصمعى وقال : إنما هو : « تصمت بالماء تولبا جذعا » ، وهو السيء . الغذاء . قال فجعل المفضل يصيح ، فقال الأصمعى : لو نفخت فى الشبور^(٢) ما نفعتك تكلم بكلام الحكل واصب^(٣) .

وأما قول الأعرابى : كيف الطلا واه ؟^(٤) فمن جنس المفيد أيضا ، لأنه أشار إلى شيء من تشبيه المولود . بولد الظبي . ألا تراه قال بعد أن انصرف عن السخط إلى الرضى ، وبعد أن سكن عنه فورة الجوع الذى دعاه إلى أن قال : أصنع به ؟ آكله أم أشربه ؟ حتى قالت المرأة « غرثان فار بكوا له »^(٥) ، وأما قوله :

(١) بذاذة الهيئة : رثائتها

(٢) الشبور : البوق أو النفير معرب شوفر ، عبرانية

(٣) الحكل — بالضم — مالا يسمع له صوت كالذر وتكلم كلام الحكل أى

لا يفهم . ومنه سمى سليمان عليه السلام نبى الحكل

الابل — بالفتح — ولد الظبي ساعة يولد ، أو الولد الصغير من كل شيء

: ٥ () أشن المثل : أن ابن لسان أشرة دخل على أهله وهو جائع عطشان فبشروه

وآتوه به ، فقال ما أدرى آكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته « غرثان فار بكوا له »

من الريكة وهو شيء من حساء وأقط . وفى رواية « فابكلوا له » من البكيلة وهى

أقط بليت بسمن فلما طعم وشرب قال « كيف الطلا واه » فأرسلها مثلاً يضرب لمن

ذهب همه وتفرغ لغيره . وضبط شيخنا « الحجرة » بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة .

قال واسمه عبد الله بن حسين ، أو ورقاء بن الأشعر

إذا أصبح الديك يدعو بعض أسرته عند الصباح وهم قوم معازيل^(١)
 فاستعارة القوم — ههنا وإن كانت في الظاهر لا تفيد أكثر من معنى الجمع —
 فإنها مفيدة من حيث أراد أن يعطيها شبيهاً مما يعقل . على أن هذا — إذا حققنا —
 في غير ما نحن فيه وبصده في هذا الفصل ، وذلك أنه لم يحتلب الاسم المخصوص
 بالآدميين ، حتى قدم تنزيلها منزلتهم فقال « هم » فأتى بضمير من يعقل . وإذا
 كان الأمر كذلك كان القوم جارياً مجرى الحقيقة . ونظيره : أنك تقول : أين
 الأسود الضارية ؟ وأنت تعنى قوماً من الشجعان ، فيلزم في الصفة حكم ما لا يعقل
 فتقول : « الضارية » ولا تقول : « الضارون » البتة ، لأنك وضعت كلامك
 على أنك كأنك تحدث عن الأسود في الحقيقة . وعلى هذه الطريقة ينبغي أن يجرى
 بيت المتنبي :

زحل — على أن السكواكب قومه — لو كان منك لكان أكرم معشراً

وإن لم يكن معنا اسم آخر سابق يثبت حكم ما يعقل للسكواكب كالضمير
 في قوله « هم قوم » وذلك أن ما يفصح به الحال من قصده أن يدعى^(٢) للسكواكب
 هذه المنزلة يجرى مجرى التصريح بذلك ، ألا ترى أنه لا يتضح وجه المدح فيه
 إلا بدعوى أحوال الآدميين ومعارفهم للسكواكب ، لأنه يفاضل بينه وبينها
 في الأوصاف العقلية ، بدلالة قوله « لكان أكرم معشراً » وإن يتحصل ثبوت
 وصف شريف معقول لها ولا السكواكب على الوجه الذي يتعارف في الناس حتى
 تجعل كأنها تعقل وتميز . ولو كانت المفاضلة في النور والبهاء وعلو المحل ومشاكل

(١) قوله « معازيل » جمع معزال ، ومن معانيه كما كتب (ش) الراعي المنزل ،
 والنازل ناحية من السفر ، أي المنزل عن جماعة المسافرين ، ومن لارمح معه
 (٢) قوله « أن يدعى » في تأويل مصدر مفعول « قصده » وجملة يجرى
 هي خبر أن .

ذلك لكان لا يلزم حينئذ ما ذكرت ، وحق القول في هذا القبيل — أعني ما يدعى فيه لما لا يعقل العقل — فصل يفرد به ولعله يجيء في موضعه بمشيئة الله وتوفيقه .

القول في الاستعارة المفيدة

اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول ، وهي أمد ميداناً ، وأشد افتناناً^(١) وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة ، وأبعد غوراً ، وأذهب نبجاً في الصناعة وغوراً ، من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحصن فتونها وضروبها ، نعم وأسحر سحراً ، وأملأ بكل ما يملأ صدراً^(٢) ويمتع عقلاً ، ويؤنس نفساً ، ويوفر أنساً ، وأهدى إلى أن تهدي إليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعنى بها السكال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر ، وردت تلك بصفرة الخجل ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدتها تبراً لم تر مثله ، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى وتريك الحلى الحقيقي ، وأن تأتيك على الجلة بمقائل^(٣) يأنس إليها الدين والدنيا ، وشرائف^(٤) لها من الشرف الرتبة العليا ، وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفي جملة جمالها .

ومن الفضيلة الجامعة فيها : أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة

(١) افتن افتناناً أخذ في فنون من القول اهـ (ش)

(٢) أى أملك وأكفل

(٣) هو جمع عقيلة كسفينة ، وهي من النساء الكريمة المخدرة ، ومن القوم

سيدهم ، ومن كل شيء أكرمه . وعقيلة البحر : درته .

(٤) وفي نسخة : وفضائل بدل وشرائف .

تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف مفرد وفضيلة مرموقة ، وخلاصة موموقة ، ومن خصائصها التي تذكر بها ، وهي عنوان مناقبها : أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ؛ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ؛ وتجنّي من الغصن الواحد أنواعا من الثمر . وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حدّ البلاغة ، ومعهما يستحق وصف البراعة ، وجدتها تفتقر إلى أن تعبرها حلاها ، وتقصر عن أن تنازعها مداها ؛ وصادفتها نجوما هي بذرها ، وروضا هي زهرها ، وعرائس ما لم تعرها حليها فهي عواطل ، وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل ، فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبيّنة ، والمعاني الخفية ، بادية جليلة ، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها ، ولا رونق لها ما لم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها ، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفّت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون ، وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها ، وإنما ينبجلى الغرض منها ويبين إذا تسكّم على التفاصيل وأفرد كل فن بالتمثيل . وسترى ذلك إن شاء الله ، وإليه الرغبة في أن نوفق للبلوغ إليه ، والتوفّر عليه .

وإذ قد عرفت أن لها هذا المجال الفسيح ، والشأو البعيد ، فإنني أضع لك فصلا بعد فصل ، وأجتهد بقدر الطاقة في الكشف والبحث .

فصل

وهذا فصل قسمتها فيه قسمة عامية ومعنى العامية : أنك لا تجد في هذه الاستعارة قسمة إلا أخص من هذه القسمة ، وأنها قسمة الاستعارة من حيث المعقول المتعارف في طبقات الناس ، وأصناف اللغات ، وما تجد وتسمع أبداً نظيره^(١) من عوامهم ، كما تسمع من خواصهم .

أعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلاً . فإذا كانت اسماً فإنه يقع مستعاراً على قسمين (أحدهما) أن تنقله عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم ، فتجريه عليه وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف وذلك قولك : رأيت أسداً - وأنت تعني رجلاً شجاعاً - ورنث لناظبية^(٢) وأنت تعني امرأة ، وأبديت نورا ، تعني^(٣) هدى وبياناً وحجة ، وما شا كل ذلك . فالاسم في هذا كله كما تراه متناولاً شيئاً معلوماً يمكن أن ينص عليه ، فيقال إنه عني بالاسم وكنتي به عنه ، ونقل عن مسماه الأصلي فجعل اسماً له على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه . (والثاني) أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم ، والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائباً منابه . ومثاله قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
وذلك أنه جعل للشمال يداً ؛ ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه ، يمكن أن تجري اليد عليه ، كاجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك : انبرى لي أسد يزأر ، وسللت سيفاً على العدو لا يفل - والظباء على النساء في قوله « من الظباء الغيد » والنور على الهدى والبيان في قولك « أبديت

(١) كلمة « نظيره » مفعول « تجد وتسمع » والضمير المضاف إليه يعود إلى ما تجد .

(٢) أى نظرت وفي نسخة : وعنت ، بتشديد النون .

(٣) وفي نسخة : وأنت تعني

نوراً ساطعاً» وكأجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك «أتنازعني في يد بها أبطش ، وعين بها أبصر» يريد إنساناً له حكم اليد وفعلها ، وغذاؤها ودفعها ، وخاصة العين وفائدتها ، وعزة موقعها ، ولطف موضعها ، لأن معك في هذا كله ذاتا ينص عليها . وترى مكانها في النفس ، إذا لم تجد ذكرها في اللفظ ، وليس لك شيء من ذلك في بيت لبيد ، بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصرف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير المصرف لما زمامه بيده ، ومقادته في كفه . وذلك كله لا يعتمدى التخيل والوهم ؛ والتقدير في النفس ، من غير أن يكون هناك شيء يحس ، وذات تتحصل . ولا سبيل لك إلى أن تقول : كنى باليد عن كذا ، وأراد باليد هذا الشيء ، أو جعل الشيء الفلاني يداً كما تقول : كنى بالأسد عن زيد وعنى به زيدا وجعل زيدا أسداً . وإنما غايتك التي لا مطلع وراءها أن تقول : أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفا كتصرف الإنسان في الشيء بقلبه فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه ، وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال ؛ إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه ، ولكنه وفي المبالغة شرطها من الطرفين ، فجعل على الغداة زماما يكون أنتم في إثباتها مصرفة ، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ في تصويرها مصرفة . ويفصل بين القسمين أنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المعزى من كل استعارة تفيد ، وجدته يأتيك عفواً ؛ كقولك في «رأيت أسداً» رأيت رجلاً كالأسد ، ورأيت مثل الأسد أو شبيهاً بالأسد وإن رمت في القسم الثاني وجدته لا يواتيك تلك المواتاة إذ لا وجه لأن يقول : «إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال» ، أو حصل شبيه باليد للشمال ، وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تحرق إليه سترأ ، وتعمل تأملاً

وفسكراً . وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول^(١) ، كقولك إذا أصبحت الشمال ولها في قرة تأثيرها في الغداة شبه المالك تعريف الشيء بيده ، وإجراؤه على موافقته ، وجذبه نحو الجهة التي تقتضيها طبيعته ، وتنحوها إرادته ، فأنت كما ترى تجسد الشبه المنزع ههنا إذا رجعت إلى الحقيقة ، ووضعت الاسم المستعار في موضعه الأصلي ، لا يلقاك من المستعار نفسه ، بل مما يضاف إليه . ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد ومشبهة باليد كما جعلت الرجل كالأسد ومشبهها بالأسد ؟ ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء . فأنت تجعل في هذا الضرب المستعار له وهو نحو الشمال ذا شيء وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشيء في فعل أو غيره لا نفس ذلك الشيء فاعرفه .

وهكذا قول زهير : « وعرّى أفراس الصبا ورواحله » ، لا نستطيع أن تثبت ذواتا أو شبه الذوات تتناولها الأفراس والرواحل في البيت على حد تناول الأسد الرجل الموصوف بالشجاعة ، والبدر الموصوف بالحسن أو البهاء ، والسحاب المذكور بالسخاء والسماحة ، والنور العلم والهدى والبيان . وليس إلا أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل ، وفقد نزاع النفس إليه وبطل ، فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطل آلاته ، وتطرح أدواته ، وكالجهة من جهات المسير نحو الحج أو الغزو أو التجارة يقضى منها الوطر فتعطل عن الخيل التي كانت تركب إليها لبودها وتلقى عن الإبل التي كانت تحمل لها قنودها^(٢) ، وقد يجيء وإن كان كالتكلف أن تقول إن الأفراس عبارة

(١) وفي نسخة : الحدو الأول .

(٢) جمع قند بالتحريك وبالكسر خشب الرجل .

عن دواعي النفوس وشهواتها ، وقواها في لذاتها ، أو الأسباب التي تقتل في حبل الصبا ، وتنصر جانب الهوى ، وتلهب أريحية النشاط ، وتحرك مرج الشباب ، كما قال * ونعم مطية الجهل الشباب * وقال * كأن الشباب مطية الجهل * وليس من حقت أن تتكلف هذا في كل وضع فانه ربما خرج بك إلى ما يضر المعنى وينبذ عنه طبع الشعر . وقد يتعاطاه من يخالطه شيء من طباع التعمق فتجد ما يفسد أكثر مما يصلح ، ولو أنك تطلبت للمطية في بيت الفرزدق :

لعمري لئن قيدت نفسي لطالما سميت وأوضعت المطية في الجهل

مثل هذا التأول تباعدت عن الصواب ، وعدلت عما يسبق إلى القلب ، وذلك أن المعنى على قولك : لطالما سميت في الباطل وقديماً كنت في الإسراع إلى الجهل بصورة من يوضع المطية في سقره . وهذا الموضع يتجلى تمام التجلى إذا تكلم على الفرق بين التشبيه والتمثيل وسيأتيك ذلك إن شاء الله تعالى . وكذا قولهم : هو مرخي العنان ومُلقي الزمام . لا وجه لأن تتوقع إلا أن تجرى العنان عليه ويتناوله المعنى على انتزاع الشبه من الفرس في حال ما يرخي عنانه ؛ وأن ينظر إلى الصورة التي توجد من حاله تلك في العقل ثم يجاء بها فيعمار لها الرجل ، ويتصور بمقتضاها في النفس ويتمثل . ولو قلت : إن العنان ههنا بمعنى النهي وإن المراد أن النهي قد أبعد عنه ونحو ذلك ، دخلت في ظاهر من التكلف ، وأنعتبت نفسك في غير جدوى ، وعادت زيادتك نقصاناً ، وطلبك الإحسان إساءة .

واعلم أن إغفال هذا الأصل الذي عرفت من أن الاستعارة لا تكون على هذا الوجه الثاني كما تكون على الأول مما يدعو إلى مثل هذا التعمق

وأنه نفسه قد يصير سبباً إلى أن يقع قوم في التشبيه ، وذلك أنهم إذا وضعوا في أنفسهم أن كل اسم يستعار فلا بد أن يكون هناك شيء يمكن الإشارة إليه بتناوله في حال المجاز كما يتناول مساء في حال الحقيقة ، ثم نظروا في مخرج قوله تعالى (ولتصنع على عيني * واصنع الفلك بأعيننا) فلم يجدوا للفظه العين ما يتناوله على حد تناول النور مثلاً للهدى والبيان . ارتبكوا في الشك وحاموا حول الظاهر ، وحملوا أنفسهم على لزومه حتى يفضى بهم إلى الضلال البعيد ، وارتكاب ما يقدر في التوحيد ، ونعوذ بالله من الخذلان .

وطريقة أخرى : في بيان الفرق بين القسمين ، وهو أن الشبه في القسم الأول الذي هو نحو : رأيت أسداً — تريد رجلاً شجاعاً — وصف موجود في الشيء الذي له استعرت . واليد ليست توصف بالشبه ، ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها ، وهي التصرف على وجه مخصوص وكذا قولك « أفراس الصبا » ليس الشبه الذي استعرت له الأفراس موجوداً في الأفراس بل هو شبه يحصل لما يضاف إليه الأفراس حيث يراد الحقيقة نحو قولنا « عُرِّيَ أفراس الغزو وأجمعت خيل الجهاد » وذلك ما يوجب الفعل الواقع على الأفراس نحو إن وقوع الفعل الذي هو عُرِّيَ على أفراس الغزو يوجب الإمساك عن الغزو والترك له — وعلى هذا القياس .

وإذا تقرر أمر الاسم في كون استعارته على هذين القسمين فمن حقنا أن ننظر في الفعل هل يحتمل هذا الانقسام ؟ والذي يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شيء كما يتصور في الاسم ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في الزمان الذي تدل صيغته عليه . فإذا قلت ضرب زيد — أثبت الضرب لزيد في زمان ماض وإذا

كان كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل فإنه يثبت باستعارته له وصفاً هو شبيهه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه .

بيان ذلك أن تقول ؛ نطقت الحال بكذا ؛ وأخبرتني أسارى وجهه بما فى ضميره ، وكلمتني عيناه بما يحوى قلبه . فتجد فى الحال وصفاً هو شبيهه بالنطق من الإنسان ، وذلك أن الحال تدل على الأمر ويكون فيها أمارات يعرف بها الشيء كما أن النطق كذلك . وكذلك العين فيها وصف شبيهه بالكلام وهو دلالاتها بالعلامات التى تظهر فيها وفى نظرها وخواص أوصاف يتحدد بها ما فى القلوب من الإنكار والقبول . ألا ترى إلى حديث الجمحي ؟

حكى عن بعضهم قال أثبت الجمحي استشيرته فى امرأة أردت التزوج بها فقال أقصيرة هى أم غير قصيرة ؟ قال فلم أفهم ذلك ، فقال لى كأنك لم تفهم ما قلت ، إني لأعرف فى عين الرجل إذا عرف ، وأعرف فيها إذا أنكر ، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر . أما إذا عرف فإنها تتخاوص ، وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو ، وإذا أنكر فإنها تجحظ^(١) أردت بقول قصيرة أى هى قصيرة النسب تعرف بأبيها أو جدها . قال الشيخ أبو الحسن وهذا من قول النسابة البكرى لرؤبة بن العجاج لما أناء فقال له من أنت ؟ قال رؤبة بن العجاج . فقال قصرت وعرفت . قال وعلى هذا المعنى قول رؤبة :

قد رفع العجاج ذكرى فادعنى باسم إذا الأنساب طالت يكفى

وأمر العين أظهر من أن تحتاج فيه إلى دليل ، ولكن إذا جرى الشيء فى

(١) تخاوص أصله تتخاوص مضارع من تخاوص إذا غص من بصره قليلا مع تحديق كمن يقوم سها ، وتسجو تسكن ، وتجحظ من جحظت العين إذا عظمت مقلتها وتأت وجاء « جحظ إليه » بالتشديد أى حدد النظر .

الكلام هو دعوى في الجملة كان الأنس للقارىء أن يقترب به ما هو شاهد فيه فلم يُرَ شيء أحسن من إيصال دعوى ببرهان .

وإذا كان أمر الفعل في الاستعارة على هذه الجملة رجع بنا التحقيق إلى أن وصف الفعل بأنه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذي اشتق منه فإذا قلنا في قولهم « نطق الحال » إن نطق مستعار فالمعنى أن النطق مستعار وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر كان الكلام فيه على ما مضى .

ومما تجب مراعاته أن الفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذي رفع به ومثاله ما مضى ويكون أخرى استعارة من جهة مفعوله وذلك نحو قول ابن المعتز :

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحيا السباحا

فقتل وأحيا إنما صارا مستعارين بأن عديا إلى البخل والسباح ولو قال قتل الأعداء وأحيا لم يكن « قتل » استعارة بوجه ولم يكن « أحيا » استعارة على هذا الوجه وكذا قوله :

وأقرى الهموم الطارقات حزامه^(١)

هو استعارة من جهة المفعولين جميعاً فأما من جهة الفاعل فهو محتمل للحقيقة وذلك أن تقول : أقرى الأضياف النازلين اللحم العبيط^(٢) ومثله قوله : « قري الهم إذ ضاف الزماع »^(٣) وقد يكون الذي يعطيه حكم الاستعارة أحد المفعولين دون الآخر كقوله :

نقريهم لهذميات نقباً بها ما كان خاط عليهم كل زراد

(١) أقرى المتكلم من قري الضيف وحزامه مفعوله وهو مصدر حرم فهو بمعنى الحزم أى أقرى الطارقات حزماً .

(٢) العبيط الطرى .

(٣) المعنى أنه إذا نزل به الهم يقر به الشجاعة والمضاء ، لأن هذا هو معنى الزماع

فصل

أعلم أن الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه أبداً وقد قلت إن طرقه تختلف ووعدتك الكلام فيه وهذا الفصل يعطى بعض القول في ذلك بإذن الله تعالى وأنا أريد أن أدرجها من الضعف إلى القوة وأبدأ في تنزيهاها ثم بما يزيد في الارتفاع لأن التقسيم إذا ارتفع في خارج من الأصل فالواجب أن يبدأ بما كان أقل خروجاً منه وأدنى مدى في مفارقتة . وإذا كان الأمر كذلك فالذى يستحق بحكم هذه الجملة أن يكون أولاً من ضروب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص ، والقوة والضعف ، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه ومثاله استعارة الطيران لغير ذى الجناح إذا أردت السرعة ، وانقضاض السكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علو ، والسباحة له إذا عدا عدواً كان حاله فيه شبيهاً بحالة السابح في الماء . ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام في حركتها فأفردوا حركة كل نوع منها باسم . ثم إنهم إذا وجدوا في الشيء في بعض الأحوال شبيهاً من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس فقالوا في غير ذى الجناح طار كقوله :

* وطرت بمنصلى في يعملات^(١) *

(١) المنصل بوزن القنفذ : السيف وتفتح الصاد . واليعملات : جمع يعمل

بالفتح وهى الناقة النجبية المطبوعة على العمل .

وكما جاء في الخبر « كلما سمع هيمة طار إليها »^(١) وكما قال :

لو يشا طار به ذو ميعة لاحق الأطال نهد ذو خصل^(٢)

ومن ذلك أن « فاض » موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط ثم إنه استعير للفجر كقوله :

* كالفجر فاض على مجوم الغيب *

لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبساط الماء وحركته في فيضه .

فأما استعارة فاض بمعنى الجود فنوع آخر غير ما هو المقصود ههنا لأن القصد الآن إلى المستعار الذي توجد حقيقة معناه من حيث الجنس في المستعار له وكذلك قول أبي تمام :

وقد نثرهم روعة ثم أحـدقوا به مثلما ألقت عقداً منظماً

وقول المتنبي :

نثرهم فوق الأحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدرام

استعارة لأن النثر في الأصل الأجسام الصغار كالدرام والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها لأن لها هيئة مخصوصة في التفرق لا تأتي في الأجسام الكبار ، ولأن القصد بالنثر أن تجتمع أشياء في كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة ، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك لكنه لما اتفق في الحرب تـساقط المهزمين على غير ترتيب ونظام كما يكون

(١) ولفظ الحديث « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع

هيمة طار إليها » والهيعة : الصوت تفرع منه وتخافه من عدواه (ش) .

(٢) البيت لامرأة من بني الحارث والميعة : أول جرى الفرس وأنشطه والأطال

جمع إطل بكسر فسكون وبكسرتين وهي الحاصرة ، والراد ضامر الجنبين والنهد بالفتح الفرس العظيم المشرف وخصل الشعر معروفة

في الشيء المنثور عبر عنه بالثر ، ونسب ذلك إلى المدوح إذ كان هو سبب ذلك الانتثار . فالتفرق الذي هو حقيقة الثثر من حيث جنس المعنى وعمومه موجود في المستعار له بلا شبهة : ويبينه أن النظم في الأصل لجمع الجواهر وما كان مثلها في السلوك ثم لما حصل في الشخصين من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبدع في الطعن في ربح واحد ذلك الضرب^(١) من الجمع عبر عنه بالنظم كقولهم « انتظمهما بربحه » وكقوله :

* قالوا أينظم فارسين بطعنة *

وكان ذلك استعارة لأن اللفظة وقعت في الأصل لما يجمع في السلوك من الحروب والأجسام الصغار إذ كانت تلك الهيئة في الجمع تخصها في الغالب ، وكان حصولها في أشخاص الرجال من النادر الذي لا يكاد يقع وإلا فلو فرضنا أن يكثر وجوده في الأشخاص الكبيرة - كان لفظ النظم أصلاً وحقيقة فيها ، كما يكون حقيقة في نحو الحبوب ، وهذا النحو لشدة الشبه فيه يكاد يلحق بالحقيقة ومن هذا الحد قوله :

وفي يدك السيف الذي امتنعت به صفاة الهدى من أن ترق فتخرقا

وذلك أن أصل الخرق أن يكون في الثوب وهو في الصفاة استعارة لأنه لما قال « ترق » قربت حالهما من حال الثوب ، وعلى ذلك فإننا نعلم أن الشق والصدع حقيقة في الصفاة ، ونعلم أن الخرق يجمعها في الجنس لأن الكل تفريق وقطع ولو لم يكن الخرق والشق واحداً لما قلت : شققت الثوب ، والشق عيب في الثوب « وتشقق الثوب » قول من لا يستعير ولكن لو قلت « خرق الحشمة » لم يكن من الحقيقة في شيء ، وكان خارجاً من هذا الفن الذي

(١) قوله ذلك الضرب مفعول مطلق أقوله يجمعهما الحاذق مبين للنوع «ش»

نحن فيه لأنه ليس هناك شق . ولو جاء شق الحشمة أو صدع مثلاً كان كذلك
أعنى لا يكون له أصل في الحقيقة ولا شبه بها

ومن هذا الضرب قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) يعد استعارة من حيث
إن الممزيق للثوب في أصل اللغة إلا أنه على ذلك راجع إلى الحقيقة من حيث
إنه تفريق على كل حال ، ولبس يحسن غيره إلا أنهم خصوا ما كان مثل الثوب
بالممزيق كما خصوه بالخرق ، وإلا فأنت تعلم أن تمزيق الثوب تفريق بعضه من
بعض . ومثله أن القطع إذا أطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التي تلتزق
أجزاؤها . وإذا جاء في تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم من بعض كقوله تعالى :
(وقطعناهم في الأرض أممًا) كان شبه الاستعارة وإن كان المعنى في الموضعين
على إزالة الاجتماع ونفيه فإن قلت « قطع عليه كلامه » أو قلت « تقطع الوقت »
بكذا كان نوعاً آخر .

ومن الاستعارة القريبة من الحقيقة قولهم « أترى فلان من الجدد وأفلس من
المروءة » وكقوله :

إن كان أغناها السلو فإنني أسيت من كبدي ومنها معدما
وذلك أن حقيقة الإثراء من الشيء كثرته عندك ووصف الرجل بأنه كثير
الجد أو قليل المروءة ، كوصفه بأنه كثير العلم أو قليل المعرفة في كونه حقيقة .
وكذلك إذا قلت أترى من الشوق أو الوجد أو الحزن كما قال :
وفي الركاب حريب من الغرام ومثري^(١)

فهو كقولك : كثر شوقه وحزنه وغرامه وإذا كان كذلك فهو في أنه
نقل إلى شيء جنسه جنس الذي هو حقيقة فيه بمنزلة « طار » أو « طر »

(١) الحريب : المحروب أي مسلوب المال يقال حربه ماله أي سلبه إياه وتركه

بلا شيء .

أمراً منه . وكذا معنى أعدم من المال أنه خلا منه وأن المال يزول عنه ، فإذا أخبر أن كبده قد ذهبت عنه فهو في حقيقة من ذهب ماله وعدمه ، والعدم^(١) في المال وفي غير المال بمنزلة واحدة لا تتغير له فائدة ، والمعدم موضوع لمن عدم ما يحتاج إليه ، فالكبد مما يحتاج إليه ، وكذلك المحبوبة فإنما تقع هذه العبارة في نفسك موقع الغريب من حيث إن العرف جرى في الإعدام^(٢) بأن يطلق على من عدم ما جنسه جنس المال . ويؤنسك بما قلت أنك لو قلت : عدم كبده — لم يكن مجازاً ، ولم تجد بينه وبين : خلا من كبده وزالت عنه كبده ، كبير فرق . ألا تراك تقول الفرس عادم للطحال ، تريد ليس له طحال . وهذا كلام لا استعارة فيه ، كما أنك لو قلت : الطحال معدوم في الفرس — كان كذلك .

ومن اللائق بهذا الباب البين أمره ما أنشده أبو العباس في السكامل من قول الشاعر :

لم تلق قوماً ثم شر لإخوتهم منا عشية يجرى بالدم الوادى
نقريهم لهذميات نقصد بها ما كان خاط عليهم كل زرداد^(٣)
قال لأن الخياطة تضم خرق القميص والزرد يضم حلق^(٤) الدرع أفلا
تراه بين أن جنسهما واحد ، وأن كلا منهما ضم ووصل ، وإنما يقع الفرق

(١) العدم بالضم وبضميتين وبالتحريك : فقدان الشيء وغاب على فقدان المال « ش » .

(٢) الإعدام مصدر أعدم وهو لارم كقولك : أعدم فلان بمعنى افتقر وهو المراد ومتعد لمفعول واحد كأعدمه الشيء إذا لم يجده وإلى مفعولين كأعدمه إياه أى أفقده إياه .

(٣) اللهذميات : جمع لهذم بكسر هاء وهو السنان القاطع .

(٤) الحلق : بكسر ففتح وفتحيتين جمع حلقة فهي كقصعة وقصع وخشبة وخشب .

من حيث إن الخياطة ضم أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم والزرد ضم حلق الدرع بمداخلة توجد بينها إلا أن الشكاك^(١) الذى يلزم أحد طرفى الحلقة الآخر بدخوله فى ثقبتيهما فى صورة الخيط الذى يذهب فى منافذ الإبرة^(٢) واستقصاء القول فى هذا الضرب والبحث عن أسرارها لا يمكن إلا بعد أن تقرر الضروب المخالفة له من الاستعارة فاقصر منه على القدر المذكور وأعود إلى القسمة .

« ضرب ثان » يشبه هذا الضرب الذى مضى وإن لم يكن إياه وذلك أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هى موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك قولك « رأيت شمساً » تريد إنساناً يتהלل وجهه كالشمس فهذا له شبه بالاستعارة « طار » لغير ذى الجناح وذلك أن الشبه مراعى فى التلاؤ وهو كما يعلم موجود فى نفس الإنسان المتهلل ؛ لأن رونق الوجه الحسن من حس^(٣) البصر بجائس لضوء الأجسام النيرة . وكذلك إذا قلت « رأيت أسداً » تريد رجلاً ، فالوصف الجامع بينهما هو الشجاعة وهى على حقيقة موجودة فى الإنسان وإنما يقع الفرق بينه وبين السبع الذى استعرت اسمه له فيها من جهة القوة والضعف والزيادة والنقصان ، وربما ادعى لبعض الحكمة والبهيم^(٤) مساواة الأسد فى

(١) الشكاك ككتاب : البيوت أو الخيام المصطفة ولكنه هنا مابه الشك وانظم أشياء متعددة فى نظام واحد .

(٢) الحلقات غير مفرغة فالذى يجمع بين طرفى كل حلقة هو الشكاك : يذهب هكذا فى الحلقات يجمع طرفى كل واحدة اه « ش » .

(٣) وفى نسخة « فى حس » .

(٤) الحكمة جمع كى على غير قياس وقيل جمع كام وجعلوه لكى لأن فاعلاً وفعللاً يشتركان كثيراً كالم وعليم والكى الشجاع أو لابس السلاح وهو الذى يشهد له =

حقيقة الشجاعة التي عمود صورتها انتفاء المخافة عن القلب حتى لا تخامره ، وتفرق خواطره ، وتحال عزيمته في الأقدام على الذي يباطشه ويريد قهره . وربما كف الشجاع عن الإقدام على العدو لا لخوف يملك قلبه ويسلبه قواه ولكن كما يكف المنهى عن الفعل لا تخونه في تعاطيه قوة . وذلك أنه العاقل من حيث الشرع منهى عن أن يهلك نفسه ألا ترى أن البطل الكمي إذا عدم سلاحاً يقاتل به^(١) فلم ينهض إلى العدو كان فاقداً شجاعته وبأسه ومهبرئاً من النبجدة التي يعرف بها .

ثم إن الفرق بين هذا الضرب وبين الأول أن الاشتراك ههنا في صفة توجد في جنسين مختلفين مثل أن جنس الإنسان غير جنس الشمس وكذلك جنسه غير جنس الأسد ، وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فإنهما جنس واحد بلا شبه ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة وإنما يقع الاختلاف بالسرعة . وحقيقة السرعة قلة تخلل السكون للحركات وذلك لا يوجب اختلافاً في الجنس^(٢) (فإن قلت) : فإذاً لا فرق بين استعارة « طار » للفرس

= الاشتقاق لأن كمي الشيء وكما بالتشديد بمعنى ستره والكمي يستر نفسه بالدرع والبيضة ، والبهيم بضم ففتح جمع بهيمة (كغرفة وغرف) وهو الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأناه .

(١) المقابلة للدفاع أي يقابل به العدو ويلقاه عندما يعتدى عليه ، وفرق بين الهجوم والدفاع فترك الهجوم لعدم السلاح لا ينافي الشجاعة كترك الدفاع والمقابلة

(٢) تقدم أن من ذلك النوع المستعار لحركة الفرس مستعاراً من إنقضاض الكواكب والظاهر أن الجنس مختلف هنا والجواب أن الكلام في اختلاف المستعار والمستعار له من حيث وجه الشبه فاختلف الجنس واقع في وجه الشبه أيضاً فإن تلاؤ الشمس غير تلاؤ الوجه في الجنس وشجاعة الأسد ليست مثل شجاعة الإنسان فإن شجاعة الإنسان يدخل فيها العقل بخلاف شجاعة الأسد وأما الحركات التي ذكرها =

وبين استعارة الشفة للفرس فهلا عدت هذا فى القسم اللفظى غير المفيد ؟ ثم إنك إن اعتذرت بأن فى « طار » خصوص وصف ليس فى « عدا » و « جرى » فكذلك فى الشفة خصوص وصف ليس فى الجحفة . (فالجواب) أنى لم أعدته فى ذلك القسم لأجل أن خصوص الوصف الكائن فى « طار » يراعى فى استعارته للفرس ، ألا تراك لا تقوله فى كل حال بل فى حال مخصوصة ؟ وكذا السباحة لأنك لا تستعيرها للفرس فى كل أحوال جريه ، نعم وتأبى أن تعطىها كل فرس ، فالقطوف^(١) البليد لا يوصف بأنه ساجح . وأما استعارة اسم لعضو نحو الشفة والأنف فلم يراع فيه خصوص الوصف ، ألا ترى أن العجاج لم يرد بقوله « ومرسنا مسرجا » أن يشبه أنف المرأة بأنف نوع من الحيوان لأن هذا العضو من غير الإنسان لا يوصف بالحسن كما يكون ذلك فى العين والجيد . وهكذا استعارة الفرسن للشاة فى قول عائشة رضى الله عنها : « ولوفرسن شاة »^(٢) وهو للبعير فى الأصل ليس

= فإنها جنس واحد والخلاف فى عرض وهو السرعة والجواب الأفضل أن الضرب الأول يكون فيه المستعار له على قرب من الشبه فى مفهوم المستعار منه لولا غلبة التفرق بالتخصيص وأما فى الضرب الثانى فذلك القرب فى وجه الشبه أتم فشجاعة البطل تدخل فى حد شجاعة الأسد لكن المستعار له لا يمكن أن يدخل فى جنس المستعار منه على وجه الحقيقة بحال ، فلا يدخل الرجل فى الأسد ولا فى الشمس الخ هذا الذى يظهر من عبارة المصنف اهـ (ش) .

(١) القطوف : سبي ، السير بطيئه .

(٢) الحديث « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو فرسن شاة » والفرسن بكسر الفاء والسين وهو خف البعير ويستعار لظلف الشاة كما فى الحديث . وكتب شيخنا فى حاشية نسخة الدرس : وفى الفراسن السلامى (بالضم) وهى عظام الفرسن وقصبتها ثم الرسغ فوق ذلك ثم الوظيف ثم فوق الوظيف من يد البعير الذراع ثم فوق الذراع العضد ثم فوق العضد الكتف . وفى رجله بعد الفرسن الرسغ ثم الوظيف ثم الساق ثم الفخذ ثم الورك اهـ .

لأن يشبه هذا العضو من الشاة به من البعير كيف ولا شبه هناك وليس إذن في مجيء الفرس بدل الظلف أمراً أكثر من العضو نفسه

* * *

« ضرب ثالث » وهو الصميم الخالص من الاستعارة . وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة السكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب كما جاء في التنزيل من نحو قوله عز وجل (واتبعوا النور الذي أنزل معه) وكاستعارة الصراط للدين في قوله تعالى : (اهتدوا الصراط المستقيم * وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فأنت لانشك في أنه ليس بين النور والحجة ما بين طيران الطائر وجري الفرس من الاشتراك في عموم الجنس ، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام ، وكذا ليس بينهما ما بين الرجل والأسد من الاشتراك في طبيعة معلومة تكون في الحيوان كالشجاعة ، فليس الشبه الحاصل من النور في البيان والحجة ونحوها إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه ، وجال في معارفه^(١) وانتشر ، وانبث في المسافة

(١) معارف الإنسان ما يعرف به ويتميز به من غيره في شكل وجهه . وكتب شيخنا في نسخة الدرس هنا مانعه :

المعارف من الضياء ما يظهر فيه وأصلها ما يظهر من المرأة والوجوه والمعروفون (كذا) من الناس وقد يعود الضمير في معارفه على البصر أي جال في الأشياء ما لم يعرفها البصر ، ويفسره قوله : وانبث في المسافة الخ أو معارف البصر ما يعرف منه كالمقلة اهـ

التي يسافر طرف الإنسان فيها وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس ، ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخل في الخلقة ، وإنما هو صورة عقلية .

واعلم أن هذا الضرب هو الميزة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شامت المجال في تفننها وتصرفها ، وههنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعى الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب ، ولها ههنا أساليب كثيرة ، ومسالك دقيقة مختلفة . والقول الذي يجري مجرى القانون والقسمه يغمض فيها إلا أن ما يجب أن تعلم في معنى التقسيم لها أنها على أصول :

(أحدها) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة المعاني المعقولة (والثاني) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلي (والأصل الثالث) أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول . فمثال ما يجري على الأصل الأول ما ذكرت لك من استعارة النور للبيان والحجة ، فهذا شبه أخذ من محسوس لمعقول . ألا ترى أن النور مشاهد محسوس بالبصر والبيان والحجة مما يؤديه إليك العقل من غير واسطة من العين أو غيرها من الحواس ، وذلك^(١) أن الشبه ينصرف إلى الماهوم من الحروف والأصوات ، ومدلول الألفاظ هو الذي ينور القلب لا الألفاظ . هذا والنور يستعار للعالم نفسه أيضاً والإيمان ،

(١) قوله وذلك الخ دفع لما يقال : أن الحجة كلام والكلام أصوات محسوسة فالاستعارة في محسوس لمحسوس (ش)

وكذلك حكم الظلمة إذا استعيرت للشبهة والجهل والكفر ، لأنه لا شبهة في أن الشبهة والشكوك من المعقول . ووجه التشبيه أن القلب يحصل بالشبهة والجهل في صفة البصر إذا قيده دجى الليل فلم يجد منصرفاً^(١) وإن استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبهما كن يسعى في الظلمة فيذهب في غير الطريق وربما دفع إلى هلاك وتردى في أهوية^(٢) ومن ذلك استعارة القسطاس للعدل ونحو ذلك من المعانى المعقولة التى تعطى غيرها صفة الاستقامة والسداد كما استعاره الجاحظ في فصل يذكر فيه علم الكلام فقال : « وهو العيار على كل صناعة ، والزام على كل عبارة ، والقسطاس الذى به يستبان نقصان كل شيء ورجحانه ، والراوق الذى به يعرف صفاء كل شيء وكدره ، » وهكذا إذا قيل فى النحو إنه ميزان الكلام ومعياره فهو أخذ شبه من شيء هو جسم يحس ويشاهد لمعنى يعلم ويعقل . ولا يدخل فى الحاسة وذلك أظهر وأبين من أن يحتاج فيه إلى فضل بيان . وأما تفننه وسعته وتصرفه من مرضى ومسخوط ومقبول ومرذول فحق الكلام فيه بعد أن يقع الفراغ من تقرير الأصول .

ومثال الأصل الثانى وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلى قول النبى صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن »^(٣) الشبه مأخوذ للمرأة

(١) يعنى أن العقل يصير بسبب الشبهة والجهل المانع من إدراك الحقائق العلمية كالبحر إذا اشتدت على صاحبه ظلمة الليل فلم يدر أين يذهب .

(٢) فى نسخة وقع بدل دفع والهلك بالضم اسم مصدر ، وهلك من باب ضرب هلاكاً والأهوية بضم الهمزة وتشديد الياء : الوعدة العميقة .

(٣) تنمة الحديث : قيل وما ذاك ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السيئ » شبه المرأة بما ينبت فى الدمن من الكلال يكون له غضارة وهو وبىء المرعى منتن الأصل قال زفر بن الحارث : =

من النبات كما لا يخفى وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك ولا ما يسمى طبعاً كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن^(١) بدن الحيوان ويبرد بمصوله فيه ولا شيء من هذا الباب بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسنة في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر في رأى العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل كما أنهم إذا قالوا :

هو غسل إذا يأسرته وإن عامرته فهو صاب

كما قال : غسل الأخلاق ما يأسرته فإذا عامرت ذقت السلما^(٢)

فالتشبيه عقلي ، إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وإنما المعنى أنك تجد منه في حالة الرضى والمواقفة ما يملؤك سروراً وبهجة حسب ما يجدي ذائق العسل من لذة الحلاوة ، ويهجم عليك في حالة السخط والإباء ما يشدد كراهتك ويكسبك كرباً ويجعلك في حال من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى .

ومن هذا الأصل استعمارة الشمس للرجل تصفه بالنباهة والرفعة والشرف والشهرة ، وما شاكل ذلك من الأوصاف العقلية المحضة التي لا تلابسها إلا بفريزة العقل ، ولا تعلقها إلا بنظر القلب

ويظهر من هنا أصل آخر . وهو أن اللفظة الواحدة تستعار على

= وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا
والدمنة الموضع الذي فيه السرقين (الزبل) وكذلك هو ما اختلط من الماء
والطين عند الحوض (ش) .

(١) سخن الماء وغيره مثلث الحاء أى جاء من جميع الأبواب .

(٢) السلع بالتحريك : شجر مر ويقال إنه ضرب من الصبر .

طريقين مختلفين ، ويذهب بها في القياس والتشبيه مذهبين ، أحدهما يفضى إلى ما تناله العميون ، والآخر يوصى إلى ما تمثله الظنون ، ومثال ذلك قولك : « نجوم الهدى » تعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم ، فإنه استعارة توجب شبهة عقلياً . لأن المعنى أن الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتدوا بهم في الدين كما يهتدى السارون بالنجوم وهذا الشبه باق لهم إلى يوم القيامة فبالرجوع إلى علومهم وآثارهم وفعالهم وهديتهم تنال النجاة من الضلالة ، ومن لم يطلب الهدى من جهتهم فقد حرم الهدى ووقع في الضلال ؛ كما أن من لم ينظر إلى النجوم في ظلام الليل ولم يتلق دلائلها على المسالك التي تفضى إلى العمار ومعادن السلامة وخالفها وقع في غير الطريق . وصار بتركه الاهتداء بها إلى الضلال البعيد ، والهلك المييد ، فالقياس على النجوم في هذا ليس على حد تشبيه المصابيح بالنجوم أو النيران في الأماكن المتفرقة ، لأن الشبه هناك من حيث الحس والمشاهدة ، لأن القصد إلى نفس الضوء واللمعان والشبه ههنا من حيث العقل ، لأن القصد إلى مقتضى ضوء النجوم وحكمه وعائده ثم ما فيها من الدلالة على المنهاج ، والأمن من الزيغ عنه والاعوجاج والوصول بهذه الجملة منها إلى دار القرار ومحل الكرامة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك ، ويديم توفيقنا للزوم ذلك الاهتداء ، والتصرف في هذا الضياء ، إنه عز وجل ولى ذلك والقادر عليه .

وبما لا يكون الشبه فيه إلا عقلياً . قولنا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملح الأنام » وهو مأخوذ من قوله عليه السلام : « مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام . لا يصلح الطعام إلا بالملح » قالوا فكان

الحسن رحمة الله عليه . يقول : فقد ذهب ملحننا فكيف نصنع ؟ فأنت تعلم أن لا وجه ههنا للتشبيه إلا من طريق الصورة العقلية . وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً . وينطوى هذا التشبيه على وجوب موالة الصحابة رضي الله عنهم ، وأن تمزج محبتهم بالقلوب والأرواح ، كما يمزج الملح بالطعام ، فبإتحاده به ومداخلته لأجزائه يطيب طعمه ، وتذهب عنه وخامته ، ويصير نافعا مغذيا . كذلك بمحبة الصحابة رضي الله عنهم تصلح الاعتقادات ، وتنتفي عنها الأوصاف المذمومة ، وتطيب وتغذو القلوب ، وتنمي حياتها . وتحفظ صحتها وسلامتها . وتقيها الزيف والضلال ، والشك والشبهة والحيرة . وأما حكمه في حال القلب^(١) من حيث العقل فحكم الفساد الذي يعرض لمزاج البدن من أكل الطعام الذي لم يصلح بالملح ، ولم تنتف عنه المضار التي من شأن الملح أن يزيلها . وعلى ذلك جاء في صفتهم أن حبهم إيمان وبغضهم نفاق . هذا ولا معنى لصلاح الرجل بالرجل إلا صلاح نيته واعتقاده ، ومحال أن تصلح نيتك واعتقادك بصاحبك وأنت لا تراه معدن الخير وممانه^(٢) . وموضع الرشد ومكانه ، ومن علمته كذلك مازجتك، محبته لا محالة وسيط وده بلحمك ودمك^(٣) وهل تحصل من المحبة إلا على الطاعة والموافقة في الإرادة والاعتقاد . وقياسه قياس المازجة بين الأجسام . ألا تراك تقول

(١) القلب هنا مصدر قلب أى العكس وهو عدم المحبة بدل المحبة .

(٢) المعان : المباءة والمنزل .

(٣) سيط ماض مبني للمفعول من ساط بمعنى خلط وينسب لعلى كرم الله وجهه

من أبيات

وبنت محمد سكنى وعرسى مسوط لهما بدى ولحى

فلان قريب من قلبي تريد الوفاق والمحبة . وعلى هذه الطريقة جرى تمثيلهم النحو بالملح في قولهم : « النحو في الكلام ، كالملح في الطعام » إذ المعنى أن الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص كما لا يجدى الطعام ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه وهي التغذية ما لم يصلح بالملح .

فأما ما يتخيلونه من أن معنى ذلك أن القليل من النحو يغنى وأن الكثير منه يفسد الكلام كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه فتحرير وقول بما لا يتحصل على البحث . وذلك أنه لا تتصور الزيادة والنقصان في جريان أحكام النحو في الكلام . ألا ترى أنه إذا كان من حكمه في قولنا « كان زيد ذاهباً » أن يرفع الاسم وينصب الخبر لم يخل هذا الحكم من أن يوجد أو لا يوجد فإن وجد فقد حصل النحو في الكلام وعدل مزاجه به ونفى عنه الفساد وأن يكون كالطعام الذي لا يغذو البدن^(١) وإن لم يوجد فيه فهو فاسد كائن بمنزلة طعام لم يصلح بالملح فسامعه لا ينتفع به بل يستضر ، لوقوعه في عمياء وهجوم الوحشة عليه كما يوجبه الكلام الفاسد العارى من الفائدة . وليس بين هاتين المنزلتين واسطة يكون استعمال النحو فيها مذموماً ، وهكذا القول في كل كلام وذلك أن إصلاح الكلام الأول بإجرائه على حكم النحو لا يغنى عنه في الكلام الثاني والثالث حتى يتوهم أن حصول النحو في جملة واحدة من قصيدة أو رسالة يصلح سائر الجمل ، وحتى يكون أفراد كل جملة بحكمها منه تكريراً له وتكثيراً لأجزائه ، فيكون مثله مثل زيادة أجزاء الملح على قدر الكفاية . وكذلك لا يتصور

(١) جملة وأن يكون عطف على الفساد أى ونفى عنه كونه كالطعام الخ .

في قولنا « كان زيد منطلقاً » أن يتكرر هذا الحكم ويتكرر على هذا الكلام فيصير النحو كذلك موصوفاً بأن له كثيراً هو مذموم ، وأن الحمود منه القليل ، وإنما وزانه في الكلام وزان وقوف لسان الميزان حتى ينبيء عن مساواة ما في إحدى الكفتين الأخرى . فكما لا يتصور في تلك الصفة زياده ونقصان حتى يكون كثيرها مذموماً وقليلاً محموداً ، كذلك الحكم في الصفة التي تحصل للكلام بإجرائه على حكم النحو ووزنه بميزانه . فقول أبي بكر الخوارزمي « والبعض عندي كثرة الإعراب » كلام لا نحصل منه عل طائل ، لأن الإعراب لا يقع فيه قلة وكثرة إن اعتبرنا الكلام الواحد والجملة الواحدة وإن اعتبرنا الجمل الكثيرة وجعلنا إعراب هذه الجملة مضموماً إلى إعراب تلك فهي الكثرة التي لا بد منها ، ولا صلاح مع تركها ، والخليق بالبعض من ذمها^(١) وإن كان أراد نحو قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وما كان من الكلام معقداً موضوعاً على التأويلات المتكلفة فليس ذلك بكثرة وزيادة في الإعراب بل هو بأن يكون نقصاً له ونقصاً أولى لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما في نفسه ويبينه ويوضح الغرض ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة في التقديم والتأخير زائل عن الإعراب ، زائغ عن الصواب ، متمرض للنيليس والتعمية ، فكيف يكون ذلك كثرة في الإعراب ؟ إنما هو كثرة عناء على من رام أن يرده إلى الإعراب ، لا لكثرة الإعراب ، وهذا هو كالاعتراض على طريق شجون الحديث ، ويحتاج إليه في أصل كبير وهو أن من حق العاقل أن لا يتعدى

بالتشبيه الجهة المقصودة ولا سيما في العقلیات . وارجع إلى النسق .

« مثال الأصل الثالث » وهو أخذ الشبه من المعقول للمعقول . أول ذلك وأعمه تشبيه الوجود من الشيء مرة بالعدم ، والعدم مرة بالوجود ، أما الأول فعلى معنى أنه لما قل في الممانى التى بها يظهر للشيء قدر ، وبصيرله ذكر ، صار وجوده كلا وجود^(١) وأما الثانى فعلى معنى أن الفان كان موجوداً ثم فقد وعدم ، إلا أنه لما خلف آثاراً جميلة تحيى ذكره ، وتديم فى الناس اسمه ، صار لذلك كأنه لم يعدم . وأما ما عداهما من الأوصاف فيجىء فيها طريقان (أحدهما) هذا^(٢) وذلك فى كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، والذي إذا خلت منه لم تستحق الشرف والفضل .

تفسير هذا أنك وصفت الجاهل بأنه ميت وجملت الجهل كأنه موت على معنى أن فائدة الحياه والمقصود منها هو العلم والإحساس فتى عدمهما الحى فكأنه قد خرج عن حكم الحى ، ولذلك جعل النوم موتاً إذ كان النائم لا يشعر بما يحضرته كما لا يشعر الميت .

والدرجة الأولى فى هذا أن يقال : فلان لا يعقل وهو بهيمة وحمار وما أشبه ذلك مما تحطه عن معانى المعرفة الشريفة ، ثم أن يقال : فلان لا يعلم ولا يفقه ولا يحس فينبى عنه العلم والإحساس جملة لضعف أمره فيه ، وغلبة

(١) نظم هذا المعنى بعضهم فقال :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكانهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد فكانهم رزقوا وما رزقوا

(٢) الطريق الثانى هو ما يأتى من قول المصنف (والطريق الثانى) فى شبه المعقول الخ فى ص ٦١ أى بغداد صفحات .

الجهل عليه ، ثم تجعل التعريض تصريحاً فيقال : هو ميت خارج من الحياة وهو جمد ، تأكيداً وتناهيًا في إبعاده عن العلم والمعرفة وتشديدًا في الحكم بأن لا مطمع في انحسار غيابة الجهل عنه^(١) وإفاقة مما به من سكرة النسي والغفلة ، وأن يؤثر فيه الوعظ والتنبيه .

ثم لما كان هذا مستقرى في العادة أعنى جعل الجاهل ميتاً خرج منه أن يكون المستحق لصفة الحياة هو العالم المتيقظ لوجه الرشد ثم لما لم يكن علم أشرف وأعلى من العلم بوحداية الله تعالى وبما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم جعل من حصل له^(٢) العلم بعد أن لم يكن كأنه إنما وجد الحياة وصارت صفة له مع وجود نور الإيمان في قلبه وجعل حالته السابقة التي خلا فيها من الإيمان كحالة الموت التي تعدم معه الحياة وذلك قوله تعالى « أو من كان ميتاً فأحييناه » وأشبهه ذلك .

ومن هذا الباب قولهم « فلان حي القلب » يريدون أنه ثاقب الفهم جيد النظر مستعد لتمييز الحق من الباطل فيما يرد عليه ، بعيد من الغفلة التي كالموت . ويذهبون به في وجه آخر وهو أنه حرك^(٣) نافذ في الأمور غير بطيء النهوض . وذلك أن هذه الأوصاف من أمارات الصحة واعتدال المزاج وتوقد نار الحياة ، وهذا يصلح في الإنسان والبهائم لأنه تعريض بالقدرة والقوة . والمذهب الأول إشارة إلى العلم والعقل وكلتا الصفتين أعنى القدرة والعلم مما يشرف به الحي ومما يضاده الموت وينافيه ، ولما كان الأمر كذلك صار إطلاق الحياة مرة عبارة عن العلم وأخرى عن القدرة ، وإطلاق الموت

(١) الغاية : كل ما أظن الإنسان من فوق رأسه كالسحابة والغبرة .

(٢) المناسب هذا العلم .

(٣) غلام حرك : بوزن فرح : خفيف ذكي .

إشارة إلى عدم القدرة وضعفها تارة ، وإلى عدم العلم وضعفه أخرى .
والقول الجامع في هذا ، أن تنزيل الوجود منزلة العدم إذا أريد المبالغة
في حط الشيء ، والوضع منه ، وخروجه عن أن يعتد به ، كقولهم هو والعدم
سواء معروف متمكن في العادات ، وربما دعاهم الإيغال وحب السرف إلى
أن يطلبوا بعد العدم منزلة هي أدون منه ، حتى يقعوا في ضرب من التهوس
كقول أبي تمام :

* وأنت أنزر من لا شيء في العدد *^(١)

وقول ابن نباتة^(٢) :

ما زلت أعطف أيامى فتمنحني نيلا أدق من المعدوم في العدم
ويتفرع على هذا إثبات الفضيلة للمذكور بإثبات اسم الشيء له ويكون
ذلك على وجهين (أحدهما) أن يريد المدح وإثبات المزية والفضل على
غاية المبالغة حتى لا يحصل عليه مزيداً ، فإذا أردت ذلك جعلت الإثبات كأنه
مقصود عليه لا يشارك فيه ، وذلك قولك : « هذا هو الشيء وما عداه فليس

(١) المصراع الأول من البيت (أفى تنظم قول الزور والفند) والفند بالتحريك
الخطأ في القول والرأى والكذب . ويطلق أيضاً على الحرف وإنكار العقل لهرم أو
مرض . وفي نسخة : زيادة وهى وقال أيضاً :

هب من له شيء يريد حجابيه ما بال لاشيء عليه حجاب
والبيت الأول من أبيات في هجو محمد بن يزيد . والثانى من قصيدة في هجو
موسى بن إبراهيم الرافعى .

(٢) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد الملقب بالسعدى ينتهى
نسبه إلى زيد مناة من تميم . كان شاعراً مجيداً جمع بين حسن السبك وجودة المعز
ومدح الملوك والوزراء والرؤساء كسيف الدولة ابن حمدان وغيره وطاف البلاد ،
ولد سنة ٣٣٧ وتوفى سنة ٤٠٥ في بغداد وهو غير ابن نباتة الخطيب وابن
نباتة المصرى .

بشيء « ، أى أن ما عداه إذا قيس إليه صغر وحقر حتى لا يدخل فى اعتداد وحتى يكون وجدانه كنفقده ، فقد نزلت الوجود فيمن عدا المذكور منزلة العدم . وإما أن يكون التفضيل على توسط ، ويكون القصد الإخبار بأنه غير ناقص على الجملة ، ولا ملفى منزل منزلة المعدم ، وذلك قولك : « هذا شيء » ، أى داخل فى الاعتداد . وفى هذه الطريقة أيضاً تفاوت فإنك تقول مرة : « هذا إما لا شيء » ، تريد أن تقول إن الآخر ليس بشيء ولا اعتداد به أصلاً ، وتقول أخرى : « هذا شيء » تريد شيء له قدر وخطر ، وتجري لك هذه الوجوه فى أسماء الأجناس كلها تقول : هذا هو الرجل ومن عداه فليس من الرجولية فى شيء . وهذا هو الشعر فحسب : تبالغ فى التفضيل وتجعل حقيقة الجنسية مقصورة على المذكور ، وتقول : « هذا رجل » تريد كامل من الرجال ، لا أن من عداه فليس برجل على السكال ، وقد تقول : « هذا إما لا رجل » ، تريد يستحق أن يعد فى الرجال ، ويكون قصدك أن تشير إلى أن هناك واحداً آخر لا يدخل فى الاعتداد أصلاً ولا يستحق اسم الرجل .

وإذا كان هذا هو الطريق المهيىج^(١) فى الوضع من الشيء وترك الاعتداد به والتفضيل له والمبالغة فى الاعتداد به ، فكل صفتين تضادتا ثم أريد نقص الفاضلة منهما عبر عن نقصها باسم ضدها فجعلت الحياة العارية من فضيلة العلم والقدرة موتاً والبصر والسمع — إذا لم ينتفع صاحبهما بما يسمع ويبصر ، فلم يفهم معنى المسموع ولم يعتبر بالمبصر أو لم يعرف حقيقته — عمى وصما ، وقيل للرجل : « هو أعمى أصم » — يراد أنه لا يستفيد شيئاً مما يسمع

(١) أى الواسع وهو من الهيىج بمعنى الانبساط على وجه الأرض ، لامن الهيىع : الجين .

ويبصر فكأنه لم يسمع ولم يبصر : وسواء عبرت عن نقص الصفة بوجود ضدها أو وصفها بمجرد العدم^(١) ، وذلك أن في إثبات أحد الضدين وصفاً للشيء ونفيًا للضد الآخر لاستحالة أن يوجد معاً فيه ، فيكون الشخص حياً ميتاً معاً ، أصم سميعاً في حالة واحدة . فتقولك في الجاهل : هو ميت ، بمنزلة قولك : ليس بحى ، وأن الوجود في حياته بمنزلة العدم . هذا هو ظاهر المذهب في الأمر ، والحكم إذا أطلق القول . فأما إذا قيد كقوله : « أصم عما ساءه سميع » فتثبت له الصفتان معاً على الجملة . إلا أن مرجع ذلك إلى أن يقال أنه كان يفقد السمع في حال ويعود إليه في حال أو أنه في حق هذا الجنس فاقد الإدراك مسلوبه ، وفيما عداه كائن على حكم السميع فلم يثبت له الصمم على الجملة إلا للحكم بأن وجود سمعه كالعدم ، إلا أن ذلك في شيء دون شيء ، وعلى التقييد دون الإطلاق .

فقد تبين إذن أن أصل هذا الباب تنزيل الموجود منزلة المعدوم لكونه بحيث لا يعتد به وخلوه من الفضيلة .

(والطريق الثانى) فى شبه المعقول من المعقول أن لا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم ، ولكن على اعتبار صفة معقولة^(٢) يتصور وجودها مع ضد ما استعرت اسمه . فمن ذلك أن يراد وصف الأمر بالشدة والصعوبة والبلوغ فى كونه مكروهاً إلى الغاية القصوى فيقال : « لقي الموت » يريدون لقي الأمر الأشد الصعب الذى هو فى كراهة النفس له كالموت .

(١) وفى نسخة « أو وصفها »

(٢) الصفة المعقولة كشدة الصعوبة والكراهة ويتصور وجودها مع الحياة وهو

ضد ما استعرت لها اسمه وهو الموت (ش)

ومعلوم أن كون الشيء شديداً صعباً مكروهاً ، صفة معلومة لا تنافي الحياة ولا يمنع وجودها منه كما يمنع وجود الموت مع الحياة . ألا ترى أن كراهة الموت موجودة في الإنسان قبل حصوله ؟ كيف وأكره ما يكون الموت إذا صفت مشاريع الحياة ، وخصبت^(١) مسارح اللذات ، فكما كانت الحياة أمكن وأتم ، كانت الكراهة للموت أقوى وأشد ، ولم تخف كراهته على العارفين^(٢) ، إلا لرغبتهم في الحياة الدائمة الصافية من الشوائب بعد أن تزول عنهم هذه الحياة الفانية ، ويدركهم الموت فيها ، فتصورهم لذة الأمن منه ، قلل كراهتهم له ، كما أن ثقة العالم بما يعقبه الدواء من الصحة يهون عليه مرارته . فقد عبرت ههنا عن شدة الأمر بالموت واستعمرته له من أجلها . والشدة ومحصولها الكراهة موجودة في كل واحد من المستعار له والمستعار منه ، فليس التشبيه إذن من طريق الحكم على الوجود بالعدم وتنزيل ما هو موجود كأنه قد خلع صفة الوجود ، وذلك أن هذا الحكم إنما جرى في تشبيه الجاهل بالموت ، وجعل الجاهل ميتاً من حيث كان للجاهل ضد يناfi الموت ويضاده وهو العلم ، فلما أردت أن تبالح في نفي العلم الذي يجب مع نفيه الجاهل ، جعلت الجاهل موتاً لتؤيس من حصول العلم المذكور ، وليس لك هذا في وصف الأمر الشديد المكروه بأنه موت ؛ ألا ترى أن قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

لا يفيد أن للسؤال ضداً يناfi الموت أو يضاده على الحقيقة ، وأن هذا القائل قصد بجعل السؤال موتاً نفي ذلك الضد ، وأن يؤيس من وجوده وحصوله بل أراد أن في السؤال كراهة ومرارة ، مثل ما في الموت . وأن نفس الحر

(١) خصب من بابي ضرب وعلم .

(٢) أي العارفين بالله المنصرفين لعبادته .

تنفر منه كما تنفر نفوس الحيوان جملة من الموت وتطلب الحياة ما أمكن في الخلاص منه .

فإن قلت : المعنى فيه أن السؤال يكسب الدل وينفى العز ، والدليل كالميت لفقد القدرة والتصرف ، فصار كتسميتهم خول الذكر موتاً ، والذكر بعد الموت حياة ، كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه « مات خزان المال والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة » ، (قلت) إني آنس أنهم لم يقصدوا هذا المعنى فى السؤال وإنما أرادوا الكراهة ، ولذلك قال بعد البيت الذى كتبتة :

كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك لدل السؤال^(١)

هذا ، وليس كل ما يعبر عنه بالموت لأنه يكره ويصعب ولا يستسلم له للعاقل إلا بعد أن تعوزه الحيل فإنه يحمل هذا الحمل وينقاد لهذا التأويل ، أترى المتنبي فى قوله :

وقدمت أمس بها^(٢) موة ولا يشتهى الموت من ذاقه

أراد شيئاً غير أنه لقي شدة ، وأما العبارة عن خول الذكر بالموت فإنه وإن كان يدخل فى تنزيل الوجود منزلة العدم من حيث يقال إن الحامل لما لم

(١) وفى نسخة : أشد من ذاك على كل حال .

(٢) الضمير راجع إلى الخمر فإن الكلام فيها ، قال قبل البيت :

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب أشواقه
تسوء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
وأنفس ما للفتى لبه وذو اللب يكره إنفاقه

قال شيخنا فى قوله تسوء من المرء تأديبه الخ : أى تغلبه فتخرجه عن قيود الحشمة فى اللفظ والحركات ، ولكنها تغلب منه الخوف والبخل فيشجع ويسخو وهذا ما يريد من تحسينها لأخلاقه .

يذكر ولم يبين منه ما يتحدث به صار كالميت الذي لا يكون منه قول بل ولا فعل يدل على وجوده ، فليس دخوله فيه ذلك الدخول ، وذلك أن الجهل ينافي العلم ويضاده كما لا يخفى ، والعلم إذا وجد فقد وجدت الحياة حتماً واجباً ، وليس كذلك خمول الذكر والذكر ، لأنه ليس إذا وجد الذكر فقد وجدت الحياة لأنك تحدث عن الميت بأفعاله التي كانت منه في حال الحياة فيتصور الذكر ولا حياة على الحقيقة ، ولا يتصور العلم ولا حياة على الحقيقة ، وهكذا القول في الطرف الآخر وهو تسمية من لا يعلم ميتاً وذلك أن الموت هاهنا عبارة عن عدم العلم وانتفائه : وعدم العلم على الإطلاق حتى لا يوجد منه شيء أصلاً وحتى لا يصح وجوده يقتضى وجود الموت على الحقيقة ، ولا يمكن أن يقال إن خمول الذكر يوجب الموت على الحقيقة فأنت إذن في هذا تنزل الوجود منزلة العدم على وجه لا ينصرف إلى الحقيقة ولا يصير إليها وإعما يمثّل ويخيّل ، وأما في الضرب الأول وهو جعل من لا يعلم ميتاً ومن يعلم هو الحي فإنك تلاحظ الحقيقة وتشير إليها وتحطّب في حباها^(١) فأعرفه .

وأما قولهم في الغنى إذا كان بخيلاً لا ينتفع بماله « إن غناء فقر » فهو في الضرب الأول أعنى تنزيل الوجود منزلة العدم لعري الوجود بما هو المقصود منه ، وذلك أن المال لا يراد لذاته وإنما يراد للانتفاع به في الوجوه التي تعدّها العقلاء انتفاعاً ، فإذا حرم مالك هذه الجدوى وهذه الفائدة فملكه له وعدم الملك سواء ، والغنى إذا صرف إلى المال فلا معنى له سوى ملك الإنسان الشيء الكثير منه ، ألا تراه يذكر مع الثروة فيقال

(١) أى تنصرها وتميل إليها (ش) وحطّب من باب ضرب .

« غنى مثر مكثر » . فإذا تبين بالعلة التي مضت أنه لا يستفيد بملكه هذا المال معنى ، وأن لا طائل له فيه ، فقد ثبت أن غناه والفقير سواء ، لأن الفقر أن لا يملك المال الكثير . وأما قول الأئمة : إن انتفاعه في اعتقاده أنه متى شاء انتفع به ، وما يجد في نفسه من عزة الاستظهار ، وأنه يهين ويكرم من أجله ، فمن أضاليل المني ، وقد يهان ويذل ، ويعذب بسببه حتى تنزع الروح دونه .

ثم إن هذا الكلام وضعه العقلاء الذين عرفوا ما الانتفاع ، وهذا المخالف لا ينكر أن الانتفاع لو عدم كان ملكه الآن لمال وعدم ملكه سواء ، وإنما جاء يتطلب عذراً ، ويرى دون لومه سترأ ، ونظير هذا أنك ترى الظالم المجترى على الأفعال القبيحة يدعى ، لنفسه الفضيلة بأنه مديد الباع طويل اليد ، وأنه قادر على أن يلجىء غيره إلى التطامن له ، ثم لا يزيده احتجابه إلا خزيًا وذلاً عند الله وعند الناس . وترى المصدق له في دعواه أذم له وأهجى من المكذب لأن الذى صدقه أيس من أن ينزع إلى الإنسانية بحال ، والذى كذب رجا أن ينزع عند التنبيه والكشف عن القبيح .

وأما قولهم في القناعة إنها الغنى : كقوله : * إن القنوع^(١) الغنى لا كثرة المال . يريد القناعة ، وكما قال الآخر :

إن القناعة فاعلمن غنى والحرص يورث أهله الفقرا

(١) القنوع — بالضم — السؤال ، فتنع يقنع كسأل يسأل وزنا ومعنى . ومنه (وأطعموا القانع والمعتز) أى السائل والمعتز الذى يطيف ولا يسأل ، وأما القناعة فهي ضد القنوع ، ومعناها الرضى بما قسمه الله تعالى وعدم السؤال والاستشراف وفعلها من باب فرح قنعا — بالتحريك — وقناعة فهو قنع — كفرح — وقنوع قال شيخنا : ومن دعائهم : نسأل الله القناعة ونعوذ به من القنوع . وفي الأساس : العز في القناعة والذل في القنوع ، وهو السؤال .

وجعلهم الكثير المال^(١) إذا كان شرهاً حريصاً على الازدياد فقيراً .
 فما يرجع إلى الحقيقة المحضة ، وإن كان في ظاهر الكلام كالتشبيه والتشثيل .
 وذلك أن حقيقة الغنى هو انتفاء الحاجة ، والحاجة أن تريد الشيء ولا تجده ،
 والكثير المال إذا كان الحرص عليه غالباً ، والشره له أبداً صاحباً ، وكان
 حاله كحل من به كلب الجوع يأكل ولا يشبع ، أو من به البغر^(٢) يشرب
 ولا يروى ، فكما أن إصابته من الطعام والشراب القدر الذى يشبع ويروى
 — إذا كان المزاج معتدلاً والصحة صحيحة — لا تنفى عنه صفة الجائع والظمان
 لوجود الشهوة ودوام مطالبة النفس وبقاء لبيب الظام وجهد العطش وكذلك
 الكثير المال ، له لا تحصل صفة الغنى ولا تزول عنه صفة الفقر ، مع بقاء
 حرصه الذى يديم له القرم^(٣) والشهوة والحاجة والطلب والضجر حين يفقد
 الزيادة التى يريدتها وحين يفوته الربح من تجاراته ، وسائر متصرفاته ، حتى
 لا يكاد يفصل بين حاله وقد فاتته ما طلب ، وبينها وقد أخذ بعض ماله
 وغضب ، ومن أين تحصل حقيقة الغنى لذى المال الكثير وقد تراه من بخله
 وشحه كالمقيد دون ما ملكه ، والمغلول اليد يموت صبراً ويعانى بؤساً ولا تمتد
 يده إلى ما يزعم ، أنه يملكه فينفقه فى لذة نفس ، أو فيما يكسب حمداً
 اليوم وأجراً غداً ؟ ذاك لأنه عدم كرمًا يبسط أنامله ، وجوداً ينصر آمله ،
 وعقلاً ينصره ، وهمة تمكنه مما لديه ، وتسلبه عليه ، كما قال البحتري .

وواجد مال أعوزته سجية تسلطه يوماً على ذلك الوُجد

(١) هذا مقابل ما سبق من عدم الانتفاع بالمال ، فإن ذلك مجازه إذا سمى فقيراً
 وأما الحريص مع كثرة المال إذا سمى فقيراً فهو حقيقة (كتبه ش) .

(٢) البغر بالغين المعجمة محرّكا عطش يصيب الإبل فتشرب ولا تروى ، وفعله
 كفرح ومنع .

(٣) القرم شدة شهوة أكل اللحم ، وتجاوز به عن الشوق الشديد للشيء .

فقولهم إذن « إن القناعة هي الغنى لا كثرة المال » إخبار عن حقيقة نفذت بها قضايا العقول وصححتها الخبرة والعبرة ، ولكن رب قضية من العقل نافذة قد صارت كأنها من الأمور المتجاوز فيها أو دون ذلك في الصحة لغلبة الجهل والسفه على الطباع ، وذهاب من يعمل بالعقل ويدعن له ، ويطرح الهوى ويصبو إلى الجليل ، ويأنف من القبيح ، ولذهاب الحياء وبطلانه ، وخروج الناس من سلطانه ، ويأس العاقل من أن يصادف عندهم — إن نبه أو ذكر — سمعاً يعي ، وعقلاً يراعى ، فجرى الغنى على كثرة المال والعقر على قلته مما يزيله العرف عن حقيقته في اللغة . ولما كان الظاهر من حال الكثير المال أنه لا يعجز عن شيء يريد من لذاته وسائر مطالبه سمي المال الكثير غنى ، وكذلك لما كان من قل ماله عجز عن إرادته سمي قلة المال فقراً ، فهو من جنس تسمية السبب باسم المسبب ، وإلا لحقيقة الغنى انتفاء الاحتياج وحقيقة الفقر الاحتياج ، والله تعالى الغنى على الحقيقة ، لاستحالة الاحتياج عليه جل وتعالى عن صفات المخلوقين . وعلى ذاك ما جاء في الخبر من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع » قال : « المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاته وزكاته وصيامه ، فيأتي وقد شتم هذا وأكل مال هذا وقذف هذا وضرب هذا وسفك دم هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » وذاك أنه صلى الله عليه وسلم بين الحكم في الآخرة فلما كان الإنسان إنما يرد غنيا في الدنيا بماله لأنه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم في الآخرة للعمل الصالح ، ثبت لا محالة أن يكون

الخالى — نعوذ بالله — من ذلك : هو المفلس ، إذ قد هرب مما لأجله يسمى الخالى من المال فى الدنيا مفلساً ، وهو ما يوصله إلى الخير والنعيم ، ويقيه الشر والمذاب ، نسأل الله التوفيق لما يؤمن من عقابه .

وإذا كان البحث والنظر يقتضى أن الفنى والفقر فى هذا الوجه دالان على حقيقة هذا التركيب فى اللغة^(١) كقولك غنيت عن الشيء واستغنيت عنه إذا لم تحتج إليه ، وافترقت إلى كذا إذا احتجت إليه ، وجب أن لا يعدواها ههنا فى المستعار والمنقول عن أصله .

فصل

إن قال قائل : إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزلة الوجود ليس من حديث التشبيه فى شيء لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك أو حكماً من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحبة حكم النور ، فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء . وإذا قلت فى الرجل القليل المعانى هو معدوم أو قلت هو والعدم سواء فلست تأخذ له شياً من شيء ولكنك تنفيه وتبطل وجوده كما أنك إذا قلت : ليس هو بشيء أو ليس برجل كان كذلك . وكما لا يسمى أحد نحو قولنا « ليس بشيء » تشبيهاً ، كذلك ينبغى أن لا يكون قولك وأنت تقلل الشيء أخبرت عنه « معدوم » تشبيهاً . وكذلك إذا جعلت المعدوم موجوداً ، كقولك مثلاً للمال يذهب ويفنى ويشمر صاحبه ذكراً جميلاً وثناء حسناً

(١) قوله « حقيقة هذا التركيب » أى الحاجة إلى الشيء أو عدم الحاجة إليه قال شيخنا والمراد من هذا التركيب ما ذكره بقوله . غنيت عن الشيء واستغنيت عنه .

« إنه باق لك موجود » لم يكن ذلك تشبيهاً بل إنكاراً لقول من نفى عنه الوجود ، حتى كالك تقول عينه باقية كما كانت : وإنما استبدل بصورة صورة فصار جمالا ، بعد ما كان مالا ، ومكارم ، بعد أن كان دراهم . وإذا ثبت هذا في نفس الوجود والعدم ثبت في كل ما كان على طريق تنزيل الصفة الموجودة كأنها غير موجودة ، نحو ما ذكرت من جعل الموت عبارة عن الجهل ، فلم يكن ذلك تشبيهاً لأنه إذا كان لا يراد بجعل الجاهل ميتاً إلا نفى الحياة عنه مبالغة ونفى العلم والتمييز والإحساس الذي لا يكون إلا مع الحياة كان محسوله أنك لم تعتد بحياته ، وترك الاعتداد بالصفة لا يكون تشبيهاً إنما هو نفى لها وإنكار لقول من أثبتها .

فالجواب : أن الأمر كما ذكرت ، ولكن تتبعمت فيما وضعته ظاهر الحال ونظرت إلى قولهم « موجود كالمعدوم ، وشيء كلا شيء ، ووجود شبيه بالعدم » فإن آيت أن تعمل على هذا الظاهر لم أضيق فيه إلا أن من حقتك أن تعلم أنه لا غنى بك عن حفظ الترتيب الذي رتبته في إعطاء العقول اسم معقول آخر أغنى لا بد من أن تعلم أنه يحىء على طريقين . أحدهما : تنزيل الوجود منزلة العدم كما مضى من أن جعل الموت عبارة عن الجهل وإيقاع اسمه عليه يرجع إلى تنزيل حياته الموجودة كأنها معدومة . والثاني : أن لا يكون هذا المعنى ولكن على أن لأحد المعنيين شبيهاً بالآخر ، نحو أن السؤال يشبه في كراهته وصعوبته على نفس الحر : الموت .

واعلم أنى ذكرت لك في تمثيل هذه الأصول الواضح الظاهر ، القريب المتناول ، الكائن من قبيل المتعارف في كل لسان ، وما تجد اعترافاً به وموافقة عليه من كل إنسان ، أو ما يشابه هذا الحد ويشاكله ،

ويدخل هذا الضرب ويشاركه ، ولم أذكر ما يدق ويغمض ، ويلطف ويغرب ، وما هو من الأسرار التي أثارته الصنعة ، وغاصت عليها فكرة الأفراد من ذوى البراعة فى الشعر ، لأن القصد إذا كان لتمهيد الأساس ، ووضع قواعد للقياس ، كان الأولى أن يعمد إلى ما هو أظهر وأجلى من الأمثلة لتكون الحجة بها عامة ، لا يصرف وجهها بحال ، والشهادة تامة لا تجرد من السامعين غير قبول وإقبال ، حتى إذا تمهدت القواعد ، وأحكمت العرى والمعاقد ، أخذ حينئذ فى تتبع ما اخترعته القرائح ، وعمد إلى حل المشكلات بعن ثقة بأن هيئت المفاتيح .

هذا — وفى الاستعارة بعد من جهة القوانين والأصول شغل الفكر ، ومذهب القول ، وخفايا ولطائف تبرز من حجبها بالرفق ، والتدريج والتلطف والنأى . ولكنى أظن أن الصواب أن أنقل الكلام إلى القول على التشبيه والتمثيل وحقيقتيهما ، والمراد منهما ، خصوصاً فى كلام من يتكلم على الشعر ، ونتعرف : أهما متساويان فى المعنى أو مختلفان ؟ أم جنسهما واحد إلا أن أحدهما أخص من الآخر ؟ وأنا أضع لك جملة من القول نبين بها هذه الأمور .

التشبيه والتمثيل

التشبيه وأقسامه

اعلم أن الشئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول .

والآخر : أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول . فمثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه وبالحلقة في وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخلدود بالزبد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار . وتشبيه سقط النار^(١) بعين الديك ، وما جرى في هذا الطريق ، أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنثور ، والرجس بمداهن^(٢) در حشوهن عقيق . وكذلك التشبيه من جهة الهيئة ، نحو أنه مستو منتصب مديد ، كتشبيه القامة بالرمح ، والقدر اللطيف بالغصن . ويدخل في الهيئة حل الحركات في أجسامها كتشبيه الذهاب على الاستقامة بالسهم السديد ، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح^(٣) ، ونحو ذلك . وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره ، كتشبيه أطيط الرجل بأصوات الفراريج ، كما قال :

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس إيقاض الفراريج^(٤)

تقدير البيت : كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا ، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله « من إيغالهن » كتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي ، كما قال :

(١) السقط — مثلثة والكسر أشهر — ما يسقط بين الزندين عند القدح ، وزاد بعضهم : قبل استحكام الوري .

(٢) المداهن — جمع مدهن — بضمتين وهو ما يجعل فيه الدهن ووزنه شاذ والقياس الكسر ، لأنه من أسماء الآلة .

(٣) الأريحية بسكون الراء حالة يرتاح معها إلى البذل والبارح الريح الشديدة

(٤) الميس شجرة تتخذ منه الرجال لئنه وقوته ويطلق على الرجال نفسها وهو

المراد هنا .

كأن على أنيابها كل سحرة صياح البوازي من صريف اللوائك^(١)

وأشبه ذلك من الأصوات المشبهة له . وكنشبيه بعض القواكه الحلوة بالعسل والسكر ، وتشبيه اللين الناعم بالنعز والخنن بالمسح^(٢) ، أو رائحة بعض الرياحين برائحة السكافور أو رائحة بعضها ببعض كما لا يخفى ، وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة والذئب في النكر . والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللاؤم . وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بها .

فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأول ولا يفتقر إليه في تحصيله ، وأى تأول يجري في مشابهة الخلد للورد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل .

— ومثال الثنى وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأول — كقولك هذه حجة كالشمس في الظهور ، وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء ، من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرها إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول . وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين

(١) السحرة — بالضم — : السحر الأعلى وهو ما قبل انصداع الفجر ، والسحر الآخر عند انصداعه واللوائك المواضع جمع لائكة اسم فاعل مؤنث من اللوك وهو المضغ أو أهونه كمنشغ البعير .

(٢) المسح — بالكسر — البلاس وهو ثوب من الشعر غليظ كما في التهذيب (ش) وجمع المسح مسوح كحمل وحمول ، والبلاس بالفتح فارسى معرب . ويتخذ بساطاً وكساء .

العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء لك ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب .

ثم تقول : إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول ، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه ، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه . ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذى يروم القلب إدراكه ، وبصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساد ، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم . قيل : هذا ظاهر كالشمس ، أى ليس ههنا مانع عن العلم به ، ولا للتوقف والشك فيه مساغ ، وأن المنكر له إما مدخول فى عقله أو جاحد مباغت ومسرف فى العناد ، كما أن الشمس الطالمة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها إلا من لا عذر له فى إنكاره . فقد احتجت فى تحصيل الشبه الذى أثبتته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأويل كما ترى .

ثم إن ما طريقه التأويل يتفاوت تفاوتاً شديداً . فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ويعطى المقادة طوعاً ، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذى ليس من التأويل فى شيء ، وهو ما ذكرته لك . ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل ، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجهِ إلى فضل روية ولطف فكرة .

فما يشبه الذى بدأت به فى قرب المأخذ وسهولة المأتى قولهم فى صفة الكلام : ألفاظه كالماء فى السلاسة ، وكالنسيم فى الرقة ، وكالعسل فى الخلاوة . يريدون أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه ، وليس هو بغريب وحشى يستنكره لكونه غير مألوف ،

أو ما ليس فى حروفه تكرير وتنافر ، يكذب اللسان من أجلهما^(١) فصارت لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق ، والنسيم الذى يسرى فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويهذى إلى القلب روحاً ويوجد فى الصدر انشراحاً ، ويفيد النفس نشاطاً ، وكالعسل الذى يلذ طعمه ، وتهش النفس له ، ويميل الطبع إليه ، ويحب وروده عليه . فهذا كله تأول ورد شئ إلى شئ بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلاً فى حقيقة التأول ، وأقوى حالاً فى الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس .

وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع ، فنحو قول كعب الأشقرى ، وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيهم وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله فى آخر القصة . قال : فكيف كان بنو المهلب فيهم^(٢) ؟ قال : كانوا حماة السرح نهراً ، فإذا أيلوا ففرسان البيات^(٣) . قال : فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها^(٤) . فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر

(١) الكد الاتعاب ، ويقال كد لسانه تجوزاً ، كما فى الأساس .

(٢) أى فى القوم المحاربين .

(٣) السرح المال السائم من الانعام . وأيلوا — كما كرموا — دخلوا فى الليل والبيات الهجوم على العدو ليلاً . قال شيخنا أى يظنون لا يطرقهم طارق إلا كانوا على صهوات خيولهم للملاقاة وأنهم يتبعون العدو ليلاً فيفجعونه اهـ .

(٤) هذا المثل من كلام فاطمة بنت الحرشب — بضم فسكون فضم — الامارية إحدى المنجيات فى الجاهلية وهى أم السكلة من بنى عبس : الربيع وعمارة وأنس الفوارس وإخوتهم . سألتها أبو سفيان حين قدمت عليه مكة حاجة فى الجاهلية « أى بنيك أفضل ؟ » فقالت : الربيع لابل وعمارة لابل أنس الفوارس ، شككتهم إن كنت أدري أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة الخ . فقد أخذه كعب الأشقرى ووصف به بنى المهلب .

يرتفع به عن طبقة العامة . وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس ، فإنه كالمشترك البين الاشتراك ، حتى يستوى في معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل .

وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده في كلام العamy . فأما ما كان مذهبه من اللطف مذهب قوله « هم كالحلقة » فلا تراه إلا في الآداب والحكم الماثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة .

الفرق بين التشبيه والتمثيل

وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين ، فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً . فأنت تقول في قول قيس ابن الخطيم :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنفود ملاحية حين نوراً^(١)
إنه تشبيه حسن . ولا تقول هو تمثيل ، وكذلك تقول : إن المعتز حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض ، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول ، كقوله :

كأن عيون اليرجس الغض حولها مداهن دُرّ حشوهن عقيق
وقوله :

وأرى الثريا في السماء كأنها قدم تبدد من ثياب حداد
وقوله :

وتروم الثريا في الغروب مراما
كانكباب طمر^(٢) كاد يلقي الاجاما^(٢)

(١) الملاحى — بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها — غيب أبيض طويل ، ونور الزرع تنويراً : أدرك ، والتمر خلق فيه النوى .

(٢) الطمر — بكسر تين وراء مشددة — : الفرس الجواد أو المستعد للوثب والعدو

وقوله :

قد انتقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفأغر شره يفتح فاه لأكل عنقود

وقوله :

لما تعرى أفق الضياء مثل ابتسام الشفة الغياء
وشمطت ذوائب الظلماء قدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء ويعرف الزجر من الدعاء
بإذن ساقطة الأرجاء كورد السوسنة الشهباء^(١)
ذا برثن كيثقب الحذاء ومقلة قليلة الأقداء
* صافية كقطرة من ماء *^(٢)

(١) في رواية : الشلاء ، بدل الشهباء .

(٢) هذا ما وجد في الكتاب باتفاق النسختين ، والذي في ديوان ابن المعتز بعد قوله « داهية محذورة اللقاء » هو :

شائلة كالعقرب السمراء مرهفة مطلقة الأحشاء كمدة من قلم سوداء
أوهدة من طرف الرداء تحملها أجنة الهواء تستلب الخطو بلا إبطاء
تمشى الانكسب في الرمضاء أسرع من جفن إلى إغضاء ومخطفاً موثق الأعضاء
خالفاً بجلدة بيضاء كأثر الشهاب في السماء
وللكلام تنمة أيضاً بعد ما أورده المصنف وهي :

ينساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حية رقطاع آنس بين الصفح والفضاء
سرب ظباء رتع اطلأ في غارب منور خلاء أحوى كبطن الحية الخضراء
غيه كنتش الحية الرفشاء كأنها صفائر الشمطاء يصطاد قبل الاين والاعاء
خسین لاتنقص فی الاحصاء

الرجز في الصيد ووصف كلبة وكلب من جوارحه والاعياء السمراء ، أو اللعساء أى
الموشومة . وقوله « وشمطت » الح الشمط محرّكة احتلاط الشعر الأسود والأبيض =

وما كان من هذا الخنس ولا تريد ، نحو قوله ^(١) :

اصبر على مضمض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وذلك إن إحسانه في النوع الأول أكثر ، وهو به أشهر . وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضاً فلا يقال : ابن المعتز حسن الأمثال تريد به نحو الأبيات التي قدمتها ، وإنما يقال صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال في شعره يراد نحو قوله :

وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقا نادراً بعد الذي أبصرت من يده

= يريد أول ظهور نور الفجر في ظلمة الليل — وقدنا بوزن قلنا — من القود والقيادة والعين بكسر العين جمع أعين وهو اسم لثور بقر الوحش غلب عليه لاتساع عينه وسواده والاشئ عيناء . وقوله « داهية » شروع في وصف الكلبة والسائلة التي تشول بذنبها أي ترفعه والعقرب سائلة دائماً والناقة السائل وصف الكلبة والسائلة ما أتى على حبابها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وخف لبنها . وقوله تمشى الانكب أي تتمشى انكب — وهو البعير ذو النكب — وهو بالتحريك الظلمع في المشية وقيل داء عنه الظلمع . وهكذا تمشى السكالب السلوقية وهذا الوصف لا ينافي السرعة فيه .

وقوله « ومخطفاً » شروع في وصف السكالب وهو يضم اليم وفتح الطاء منظوم الأحشاء . وموثق الأعضاء بالتشديد محكمها . وخالفها أي خالف الكلبة . ومثقب الخداء : الاسكاف ، معروف . وآس أبصر الرتع جمع الراع ، أي الراعية والاطلاء جمع طلي بالفتح وهو ولد الظبي ساعة يولد والعازب السكالب في فلاة لا زرع فيها ولا تصل إليه الماشية وأراد مكانه ، والنور اسم فاعل من نور الزرع بمعنى أدرك ، ولأحوى الضارب إلى السواد من شدة خضرته وكذا الأحمر الضارب إلى السواد . والأين الأعياء (١) « وما كان » الخ عطف على « تشبيهه المبصرات » . وكل ما لا يوجد الخ في ص ٧٥ وقوله « ولا تريد » الخ عطف على « تعنى تشبيهه قبله » . أعنى أن هذا المعطوف على الفعل « تعنى » وما قبله معطوف على مفعوله .

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجري فيه التأول ، ولكن إن قلت
في قول ابن المعتز :

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنه تمثيل ، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال ، لأن تشبيه الحسود إذا صبر
عليه وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التى لا تمتد بالحطب حتى يأكل
بعضها بعضاً مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة .

فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل . وفى تتبع ما أجملت
من أمرها وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس
بالحقائق .

فصل

اعلم أن الذى أوجب أن يكون فى التشبيه هذا الانقسام أن الاشتراك
فى الصفة يقع مرة فى نفسها وحقيقة جنسها ، ومرة فى حكم لها ومقتضى ،
فالحد يشارك الورد فى الحمرة نفسها ، ويجدها فى الموضوعين بحقيقتها ، واللفظ
يشارك العسل فى الحلاوة لا من حيث جنسه بل من جهة حكم وأمر يقتضيه ،
وهو ما يجده الذائق فى نفسه من اللذة ، والحالة التى تحصل فى النفس
إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إليه الطبع ويقع منه بالموافقة ، فلما
كان كذلك احتيج للاحالة — إذا شبه اللفظ بالعمل فى الحلاوة — أن
يبين أن هذا التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها ، ولكن من
مقتضى لها ، وصفة تتجدد فى النفس بسببها ، وأن القصد أن يخبر بأن السامع
يجد عند وقوع هذا اللفظ فى سمعه حالة فى نفسه شبيهة بالحالة التى يجدها

الذائق للحلاوة من العسل حتى لو تمثلت الحالتان للعيون لكانتا تريان على صورة واحدة ولوجدتا من التناسب على حد الحمرة من الخد والحمرة من الورد ، وليس ههنا عبارة أخص بهذا البيان من التأول ، لأن حقيقة قولنا « تأولت الشيء » أنك تطلبت ما يؤول إليه من الحقيقة أو الوضع الذي يؤول إليه من العقل لأن « أولت وتأولت » — فعلت وتمعلت من آل الأمر إلى كذا يؤول إذا انتهى إليه والمآل المرجع . وليس قول من جعل أولت وتأولت « من أول » بشيء لأن ما فاؤه وعينه من موضع واحد ككوكب ودَدَن لا يصرف منه فعل ، و « أول » أفعل بدلالة قولنا « أول منه » كقولنا « أسبق منه وأقدم » فالواو الأولى فاء والثانية عين^(١) وليس هذا موضع الكلام في ذلك فيستقصى .

وأما الضرب الأول فإذا كان المثبت من المشبه في الفرع من جنس المثبت في الأصل كان أصلاً بنفسه ، وكان ظاهر أمره وباطنه واحداً ، وكان حاصل جمعك بين الورد والخد أنك وجدت في هذا وذاك حمرة والجنس لا تتغير حقيقته بأن يوجد في شيئين . وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة والقلة والصنف والقوة ، نحو أن حمرة هذا الشيء أكثر وأشد من حمرة ذاك .

وإذا تقررَت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول ، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه . ويزيد ذلك بياناً أن مدار التشبيه على أنه يقتضى ضرباً من الاشتراك ومعلوم أن الاشتراك في نفس الصفة أسبق في التصور من الاشتراك في مقتضى

(١) أصل أول قيل : أوأل على أفعل أو فوعل — أو — ووأل أى فعأل وعلى هذا يكون ما ذكره الشيخ رأياً آخر (ش) .

الصفة كما أن الصفة نفسها مقدمة في الوجود على مقتضاها ، فالحلاوة أولاً ثم إنها تقتضى اللذة في نفس الذائق لها . وإذا تأملنا متصرف^(١) تركيبه وجدناه يقتضى أن يكون الشيطان من الاتفاق والاشتراك في الوصف بحيث يجوز أن يتوهم أن أحدهما الآخر . وهكذا تراه في العرف والمعقول فإن العقلاء يؤكدون ابتداءً أمر المشابهة بأن يقولوا لا يمكنك أن تفرق بينهما ولو رأيت هذا بعد أن رأيت ذاك لم تعلم أنك رأيت شيئاً غير الأول حتى تستدل بأمر خارج عن الصورة ، ومعلوم أن هذه القضية إنما توجد على الإطلاق والوجود الحقيقي في الضرب الأول . وأما الضرب الثاني فإنما يحىء فيه على سبيل التقدير والتنزيل ، فاما أن لا تجد فصلاً بين ما يقتضيه العمل في نفس الذائق ؛ وما يحصل باللفظ المرضي والكلام المقبول في نفس السامع ، فما لا يمكن ادعاءؤه إلا على نوع من المقاربة أو المجازفة ، فإما على التحقيق والقطع فلا . فالمشابهات المتأولة التي ينتزعاها العقل من الشيء للشيء لا تكون في حد المشابهات الأصلية الظاهرة بل الشبه العقلي كان الشيء^(٢) به يكون شبيهاً بالمشبه به .

فصل

ثم إن هذا الشبه العقلي ربما انتزع من شيء واحد كما مضى من انتزاع الشبه لامظ من حلاوة العمل . وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيثيين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد لا سبيل

(١) وفي نسخة منصرف بالنون .

(٢) وفي نسخة « كاد الشيء » بدل كان الشيء .

الشئيين يجمع بينهما وتحفظ صورتها . ومن ذلك قوله عز وجل (مثل الذين حملوا الثوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له بما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جنبه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض .

بيان ذلك أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التي فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثبث ذلك بجهل الحمار ما فيها حتى يحصل الشبه المقصود . ثم إنه لا يحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد ولا يتصور أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثاني ويدخل الثاني في الأول ، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لا يتعلق أيضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار ، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترب به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره ، فلم يجعله كالخيط الممدود ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ في مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد بل تبطل صورها المفردة التي كانت قبل المزاج وتحدث صورة خاصة غير اللواتي عهدت ويحصل مذاقها^(١) حتى لو فرضت حصولها لك في تلك الأشياء من غير امتزاج فرضت^(٢) مالا يكون — لم يتم المقصود^(٣) ولم تحصل النتيجة المطلوبة وهي الظم بالشقاء في شيء

(١) وفي نسخة : وتحصل بذاتها

(٢) فرضت جواب لو فرضت ،

(٣) لم يتم إلخ جواب فما لم يجعله كالخيط إلخ (ش) .

يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول إلى تلك الفائدة واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً إلى نيل شيء من تلك المنافع والنعم .

ومثال ما يجيء فيه التشبيه معقوداً على أمرين إلا أنهما لا يتشابهان هذا التشابك قولم « هو يصفو ويكدر ويمر^(١) ويحلو ويشج ويأسو ويسرج ويلجم^(٢) » لأنك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين فليست إحداها ممتزجة بالأخرى لأنك لو قلت هو « يصفو » ولم تتعرض لذكر الكدر أو قلت « يحلو » ولم يسبق ذكر « يمر » وجدت المعنى في تشبيهك له بالماء في الصفاء وبالعدل في الخلاوة بحاله وعلى حقيقته ، وليس كذلك الأمر في الآية لأنك لو قلت كالحمار يحمل أسفاراً ولم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقروناً بحمله وأن يكون متمدياً إلى ما تعدى إليه الحمل لم يتحصل لك المغزى منه وكذلك لو قلت هم كالحمار في أنه يجهل الأسفار ولم تشترط أن يكون حمله الأسفار مقروناً بجهله لها لكان كذلك . وكذلك لو ذكرت الحمل والجهل مطلقين ولم تجعل لهما المفعول المخصوص الذي هو الأسفار قلت هو كالحمار في أنه يحمل ويجهل ، وقعت من التشبيه المقصود في الآية بأبعد البعد . والنكته أن التشبيه بالحمل للأسفار إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه بشرط أن يقترن به الكدر

(١) كدر مثلث الدال من باب قعد وحسن وتعيب : ويمر بفتح الميم وبضمها .

(٢) لو قال يشرح أى يقطع ويلجم أى .. لكانت كما قبلها كتبه شيخنا على نسخة الدرس وذهب منه تفسير يلجم وهو بضم الياء من ألجم . فأما شرح اللحم وهو المراد فمعناه قطعه طولا ويقال ألجم العظم إذا اعترق اللحم الذي عليه كعرقه ولحم الرجل وألجمته أطعمته اللحم .

ولذلك لو قلت يصفو ولا يكدر لم تزد في صميم التشبيه وحقيقته شيئاً وإنما استدمت الصفة كقولك يصفو أبداً وعلى كل حال .

فصل

اعلم أن الشبه إذا انتزع من الوصف لم يخل من وجهين أحدهما أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه والآخر أن يكون لأمر لا يرجع إلى نفسه فالأول ما مضى في نحو تشبيه الكلام بالعسل في الحلاوة وذلك أن وجه التشبيه هناك أن كل واحد منهما يوجب في النفس لذة وحالة محمودة وبصادف منها قبولاً وهذا حكم واجب للحلاوة من حيث هي حلاوة أول للعسل من حيث هو عسل .

وأما الثاني وهو ما ينتزع منه التشبيه لأمر لا يرجع إلى نفسه فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شيء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص نحو كونه واقعاً في موقعه وعلى الصواب أو واقعاً غير موقعه كقولهم « هو كالتقبض على الماء والراقم في الماء » فالشبه ههنا منتزع عما بين القبض والماء وليس بمنتزع من القبض نفسه وذلك أن فائدة قبض اليد على الشيء أن يحصل فيها فإذا كان الشيء مما لا يتماسك ففعلك القبض في اليد لغو وكذلك القصد في الرقم أن يبقى أثر في الشيء وإذا فعلته فيما لا يقبله كان فعلك كلاً فعل وكذلك قولهم « يضرب في حديد بارد وينفخ في غير فحم » .

وإذا ثبت هذا فكل شبه كان هذا سبيله فإنك لا تجد بين المعنى المذكور وبين المشبه إذا أفردته ملابسة البتة . ألا تراك تضرب الرقم في الماء والقبض عليه لأمر لا شبه بينهما وبينها البتة من حيث هما رقم وقبض .

وإذا قد عرفت هذا فالجمل في الآية من هذا القبيل أيضاً لأنه تضمن

الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل بل لأمرين آخرين أحدهما تعديه إلى الأسفار والآخر اقتران الجهل للأسفار به ، وإذا كان الأمر كذلك كان قطعك الحمل عن هذين الأمرين في البعد من الغرض كقطعك القبض والرقم عن الماء في استحالة أن يعقل منهما ما يعقل بعد تعديهما إلى الماء بوجه من الوجوه فاعرفه .

فإن قلت ففي اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال وذلك أن الحافظ للشئ بقلبه يشبه الحامل للشئ على ظهره ، وعلى ذلك يقال حملة الحديث وحملة العلم كما جاء في الأثر « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ^(١) » ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك فإن هذا الشبه لم يقصد ههنا وإنما قصد ما يوجه تعدي الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل بهابه وهو العناء بلا منفعة . يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل في كفه أبداً دفاتر علم وهو بليد لا يفهم أو كسلان لا يتعلم : إن كان يحمل كتب العلم فالحجار أيضاً قد يحمل تريد أن تبطل دعواه أن له في حمله فائدة وأن تسوي بينه وبين الحجار في فقد الفائدة مما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود في المشبه بالحجار ، ثم التشبيه لا ينصرف

(١) هذا حديث وما بعده حديث آخر . أما الأول فقد رواه ابن منده وغيره مرفوعاً من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري وهو مختلف في صحته ولفظه « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريك الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » والبيهقي في المدخل مرسل وضعفه الكثيرون ، وروى عن أحمد تصحيحه ، وكتب شيخنا على حاشية نسخته ، قال القعني : سمعت رجلاً يحدث مالكا هذا الحديث فأعجبه . والخلف بالتحريك والسكون كل من يحى * بعد من سبقه ، إلا أنه بالتحريك في الخير وبالتسكين في الشر ، وأما الآخر فهو من ضمن حديث رواه الترمذي والضياء عن زيد بن ثابت بسند صحيح .

إليه من حيث هو حمل وإنما ينصرف إلى ما ذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة وإنما يتصور أن يكون الشبه راجعاً إلى الحمل من حيث هو حمل حيث يوصف الرجل مثلاً بكثرة الحفظ للوظائف أو جهد النفس في الأشغال المتراكمة وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه .

ومن هذا الباب قولهم « أخذ القوس باريها » وذلك أن المعنى على وقوع الأخذ في موقعه ووجوده من أهله فليست تشبه من حيث الأخذ نفسه وجنسه ولكن من حيث الحكم الحاصل له بوقوعه من باري القوس على القوس . وكذلك قولهم « ما زال يقتل منه في الذروة والغارب » الشبه مأخوذ بين القتل وما تعدى إليه من الذروة والغارب ولو أفردته لم تجد شبهاً بينه وبين ما يضرب هذا الكلام مثلاً له ، لأنه يضرب في الفعل أو القول بصرف به الإنسان عن الامتناع إلى الإجابة ، وعن الإباء عليك في مرادك إلى موافقتك والمصير إلى ما تريد منه . وهذا لا يوجد في القتل من حيث هو قتل وإنما يوجد في القتل إذا وقع في الشعر من ذروة البعير وغاربه^(١) .

واعلم أن هذا الشبه حكمه واحد سواء أخذته ما بين الفعل والمفعول الصريح أو ما يجري مجرى المفعول . فالمفعول كالقوس في قولك « أخذ القوس باريها » وما يجري مجرى المفعول الجار مع الجرور كقولك « كالرقم

(١) في حديث الزبير « سأل عائشة الخروج إلى البصرة فأبى عليه فما زال يقتل في الذروة والغارب حتى أجابته » جعل وبر ذروة البعير وغاربه مثلاً لإزالتها عن رأيها كما يفعل بالجمال النفور إذ أريد تأنيسه وإزالة نفاره . والذروة أعلى السنام من البعير ، والغارب الكاهل من (ذى) الحف وهو ما بين السنام والعنق اهـ (ش) .

في الماء . وهو كمن يخط في الماء » وكذلك الحال^(١) كقولهم : « كالحادي وليس له بعير » فقولك : وليس له بعير — جملة من الحال وقد احتاج الشبه إليها لأنه مأخوذ ما بين المعنى الذي هو الحدو وبين هذه الحال كما كان مأخوذاً بين الرقم والماء وما بين القتل والذروة والغارب . وقد تجد بك حاجة إلى مفعول وإلى الجار مع المجرور كقولك : وهل يجمع السيفان في الغمد ؟ وأنت كمن يجمع السيفين في غمد . ألا ترى أن الجمع فيه لا يغني بتعديده إلى السيفين حتى يشترط كونه جمعاً لهما في الغمد فمجموع ذلك كله يحصل الغرض وهكذا نحو قول العامة : هو كثير الجور على إلفه ، وقولهم : كبتني الصيد في عريسة الأسد » لأن الصيد مفعول وفي عريسة جار مع المجرور .

فإذا ثبت هذا ظهر منه أنه لا بد لك في هذا الضرب من التشبيه من جملة صريحة أو حكم الجملة فالجملة الصريحة قولك : أخذ القوس باريها . وحكم الجملة أن تقول : هذا منك كالرقم في الماء والقبض على الماء ، فتأتى بالمصدر أو تقول : كالراقم في الماء وكالقباض على الماء فتأتى باسم الفاعل . وذلك أن المصدر واسم الفاعل ليسا بجملة صريحة ولكن حكم الجملة قائم فيهما وهو أنك أعلمتهما عمل الفعل ، ألا ترى أنك عديتهما على حسب ما تعدى الفعل وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضبط وقد وقفتك على الطريقة .

فهذا أحد الوجوه التي يكون التشبه العقلي بها حاصلًا لك من جملة من الكلام وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه .

(١) أى والحال النحوية مثل ما تقدم من المفعول والظرف .

وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل (إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت . وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر حتى إنك لو حذفته منها جملة واحدة من أى موضع كان أخل ذلك بالمعنى من التشبيه :

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأعراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل تنسق ثانياً منها على أوله وثالثة على ثانياً وهكذا . فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدها . ألا ترى أنك إذا قلت زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء ، لم يجب عليك أن تحفظ في هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به في الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد في الشجاعة كان المعنى بحاله ، وقوله :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف غنم^(١)
 إنما يجب حفظ هذا الترتيب فيها لأجل الشعر فأما أن تكون
 هذه الجمل متداخلة كتداخل الجمل في الآية وواجباً فيها أن يكون لها
 نسق مخصوص كالنسق في الأشياء إذا رتب ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها
 صورة خاصة فلا^(٢) .

وقد يجيء الشيء من هذا القبيل يتوهم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل
 تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيها وتمثيلاً ثم لا يكون كذلك عند حسن التأمل .
 مثال ذلك قوله :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة فلما رأوها أقشعت ونجلت^(٣)
 هذا مثل في أن يظهر للمضطر إلى الشيء الشديد الحاجة إليه أمانة وجوده
 ثم يفوته ويبقى لذلك بحسرة وزيادة ترح . وقد يمكن أن يقال إن قولك « أبرقت
 قوماً عطاشاً غمامة » تشبيه مستقل بنفسه لا حاجة به إلى ما بعده من تمام البيت
 في إفادة المقصود الذي هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة ، إلا أنه وإن كان
 كذلك فإن حقنا أن ننظر في مغزى المتكلم في تشبيهه . ونحن نعلم أن المغزى أن
 يصل ابتداءً مطمعاً بانتهاء مؤبس وذلك يقتضى وقوف الجملة الأولى على ما بعدها
 من تمام البيت . ووزان هذا أن الشرط والجزاء جملتان ولكنا نقول إن حكمهما
 حكم جملة واحدة .

(١) النشر : الريح الطيبة أو أعم . والغنم بالتحريك شجرة حجازية لها ثمرة
 حمراء يشبه بها البنان المخضوب .

(٢) وفي نسخة زيادة لفظ (مقررة) بعد خاصة .

(٣) وفي رواية النسخة الأخرى (رجوها) بدل رأوها وأقشعت انجملت يقال
 قشعت الريح السحاب (من باب منع) كشفته كأقشعته فأقشع وانقشع وتقشع ، مطاوع
 كتجلى وانجلى مطاوع جلاه وجلاه بمعنى أذهب .

من حيث دخل في الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد في امتناع أن تحصل به الفائدة . فلو قلت « إن تأتني » وسكت لم يقد كما لا يفيد إذا قلت « زيد » وسكت فلم تذكر اسماً آخر ولا فعلاً ولا كان منوياً في النفس معلوماً من دليل الحال . ثم إن الأمر وإن كان كذلك فقد يجوز أن يخرج الكلام عن الجزاء فتقول « تأتيني » فتعود الجملة على الإفادة لإغنائك لها عن أن ترتبط بأخرى وإزالتك المعنى الذي أوجب فقرها إلى صاحبة لها ، إلا أن الغرض الأول يبطل والمعنى يتبدل فكذلك الاختصار على الجملة التي هي « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » تخرج عن غرض الشاعر .

فإن قلت فهذا يلزمك في قولك « هو يصفو ويكدر » وذلك أن الاختصار على أحد الأمرين يبطل غرض القائل — وقصده أن يصف الرجل بأنه يجمع الصفتين وأن الصفاء لا يدوم . فالجواب : أن بين الموضعين فرقاً وإن كان بغمض قليلاً وهو أن الغرض في البيت أن يثبت ابتداء مطعماً مؤنساً أدى إلى انتهاء مؤيس موحش ، وكون الشيء ابتداء لآخر هو له انتهاء معنى زائد على الجمع بين الأمرين والوصف بأن كل واحد منهما يوجد في المقصود ، وليس لك في قولك : يصفو ويكدر ، أكثر من الجمع بين الوصفين . ونظير هذا أن تقول هو كالصفو بعد الكدر في حصول معنى يجب معه^(١) ربط أحد الوصفين بالآخر في الذكر ويتمين به الغرض حتى لو قلت يكدر ثم يصفو فجئت بـ « ثم » التي توجب الثاني مرتباً على الأول وأن أحدهما مبتدأ والآخر بعده — صرت بالجملة إلى حد مانحن عليه

(١) وفي نسخة يوجب بدل يجب .

من الارتباط ووجوب أن يتعلق الحكم بمجموعهما . ويوجب الشبه إن شبهت ما بينهما على التشابك والتداخل ، دون التباين والتزايل .

ومن الواضح في كون الشبه معلقاً بمجموع الجملتين حتى لا يقع في الوهم تميز إحداها على الأخرى قوله^(١) « بلغنى أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » وذلك أن المقصود من هذا الكلام التردد بين الأمرين وترجيح الرأي فيهما ، ولا يتصور التردد والترجيح في الشيء الواحد ، فلوجهدت وهمك أن تتصور لقولك « تقدم رجلاً » معنى وفائدة ما لم تقل « وتؤخر أخرى » أو تنوه في قلبك كلفت نفسك شططاً .

وذكر أبو أحمد العسكري أن هذا النحو من الكلام يسمى المائلة . وهذه التسمية توهم أنه شيء غير المراد بالمثل والتمثيل ، وليس الأمر كذلك ، كيف وأنت تقول « مثلك مثل من يقدم رجلاً ويؤخر أخرى » ووزان هذا أنك تقول : زيد الأسد ، فيكون تشبيهاً على الحقيقة وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه ومثله أنك تقول : أنت ترقم في الماء ، وتضرب في حديد بارد ، وتنفخ في غير فحم ، فلا تذكر ما يدل صريحاً على أنك تشبه ولسكنك تعلم أن المعنى على قولك : أنت كمن يرقم في الماء وكمن يضرب في حديد بارد وكمن ينفخ في غير فحم ، وما أشبه ذلك مما تجيء فيه بمشبه به ظاهر تقع هذه الأفعال في صفة اسمه أو صفته^(٢) .

(١) قائله يزيد بن الوليد وكان كتب إلى محمد بن مروان وهو عامله بأرمينية يطالبه بالبيعة فجاءه كتاب غير صريح فيما يريد فكتب إليه : إني أراك الخ (ش)
(٢) بأن يقال كعابث يرقم في الماء ، وصفة اسمه بأن يقال كرجل الخ (ش)

واعلم أن المثل قد يضرب بجمل لا بد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبهاً به ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة .

بيان هذا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة »^(١) لا بد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذى هو الإبل . فلو قلت الناس لا تجد فيهم راحلة أو لا تجد فى الناس راحلة كان ظاهر التعسف . وههنا ما هو أشد اقتضاء للمحافظة على ذكر ما تعلق الجملة به وتسند إليه وذلك مثل قوله عز وجل : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) الآية . لو أردت أن تحذف الماء الذى هو المشبه به وتنقل الكلام إلى المشبه الذى هو الحياة أردت ما لا تحصل منه على كلام يعقل لأن الأفعال المذكورة المحدث بها عن الماء لا يصح إجراؤها على الحياة ، فاحفظ هذا الأصل فإنك تحتاج إليه وخصوصاً فى الاستعارة على ما يجيئ القول فيه إن شاء الله تعالى .

والجملة إذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول وتكون الجملة صلة كقولاك : أنت الذى من شأنه كيت وكيت ، كقوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله)

(١) الحديث رواه مسلم عن ابن عمر بلفظ « تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة » واختلفوا فيه على أقوال : قال النووي أجودها أن الرضى الأحوال الكامل من الناس قليل فيهم جداً كقلة الراحلة فى الإبل ، قال قالوا والراحلة هى البعير الكامل الأوصاف الحسن المنظر القوى على الأحمال والأسفار ، سميت راحلة لأنها ترحل أى يجعل عليها الرحل ، فهى فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية بمعنى مرضية ونظائره اهـ

(والثاني) أن يكون المشبه به نكرة تقع الجملة صفة له كقولنا : أنت كرجل من أمره كذا وكذا ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » وأشبه ذلك .

(والثالث) أن تجيء الجملة مبتدأة وذلك إذا كان المشبه به معرفة ولم يكن هناك الذي كقوله تعالى (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) .

فصل

في مواقع التمثيل وتأثيره

واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه^(١) ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها

(١) يقول إن للتمثيل مظهرين ، ويتجلى للأُنظار في ثوبين (أحدهما) أن يجيء المعنى ابتداء في صورة التمثيل ، وهو النادر القليل . ولكنه على قلته في كلام البلغاء كثير في القرآن العزيز ، فمنه قوله تعالى (مثاهم كمثل الذي استوقد ناراً) الآية وقوله بعدها (أو كصيب من السماء) الآية . وقوله عز وجل (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) وقوله تبارك وتعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) الآية وقوله تبارك اسمه (أنزل من السماء ماء فسال أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) الآية ، وغير ذلك (وثانيهما) ما يتأثر المعاني ويجيء في أعقابها لا يضاعفها وتقريرها في النفوس وإيداعها التأثير الخاص ، وهو الذي جعله المصنف أولاً ، ومثاله من القرآن قوله تعالى (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً رجلاً هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) فقد أورده بعد ما قرر أمر التوحيد من أول السورة وشنع على الذين اتخذوا من دونه أولياء يقربونهم إليه زلفى ، ونصب الدلائل على نفي هذا الشرك وذكر الجزاء . ومثله من الشعر ما يجيء في ضروب الكلام الآتية .

أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبَّ من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صباية وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطىها محبة وشغفا .

فإن كان مدحا كان أبهى وأخف ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزل للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعته للمادح ، وأقضى له بغرِّ المواهب والناسخ ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر^(١) .

وإن كان ذمّا كان مَسْهُ أوجع ، وميسمه أذع ، ووقعه أشد وحده أحد^(٢) .

(١) مثاله من القرآن قوله تعالى في وصف الصحابة (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) ومن الشعر قولنا في المقصورة :

وإن قسا وديده لان وإن	يكدر عليه راق ورداً وصفا
يؤمن منه الطيش في شرته	والحلم والإغضاء منه يرتجى
تواضع عن شيم ورفعة	ورقة من غير عجز وونى
ألم تر الهواء في رفته	ولطفه أوتى شدة القوى
يكاد يمس الثريا رفعة	من حيث تلقاه يصافح الثرى

والتمثيل في البيتين الأخيرين وهو من النوع الأول ، ومنها قول بعضهم :

فق عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(٢) مثاله من القرآن قوله تعالى في الذى أوتى الآيات فانسلك منها (فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى يخرج لسانه من العطش أو التعب وهو من باب منع ، وقوله تعالى (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشىناهم فهم لا يبصرون) ومقمحون =

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر^(١) .
 وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجدر ، ولسانه ألد^(٢) .
 وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل^(٣) ،
 ولغرب الغضب أفل ، وفي عُقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث^(٤) ،

= من أقمح الغل الأسير . ترك رأسه مرفوعاً لضيقه ، ومن الشعر قوله :
 رأيتم تيدون للحرب عـدة ولا يمنع الأسلاب منكم مقاتل
 فأنتم كمثل النخل يشرع شوكة ولا يمنع الخراف ما هو حامل
 لخراف بالتشديد صيغة مبالغة اسم الفاعل من خرف الثمار إذا جناها ومنه المثل :
 ولو لبس الحمار ثياب خـز لقال الناس يالك من حمار
 (١) مثاله من القرآن ما تقدم من الآيات في بيان طريق التمثيل ومن الشعر
 قول أبي العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس
 وقول غيره :

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد
 ومن الأمثال « إن العوان لا تعلم الحجرة » وهي بكسر المعجمة الهيئة من الحمار
 والعوان بالفتح النصف من النساء أي التي بين الشابة والعجوز ، والمثل يضرب في المجرب
 العارف المستغنى عن التعليم ، ومنها « كدابة وقد حلم الأديم » أي أفسده الحلم وهو
 بالتحريك دود صغير وقيل : الحلة الصغيرة من القردان والعضمة ضد

(٢) الشأو السبق والغاية والأمد . وقوله أجدر أي أعظم . والألد الشديد
 الخصومة . ما يجي في القرآن من بيان عظمة الله تعالى وكأله لا يسمى افتخاراً ومثال
 هذا الضرب من الكلام العزيز وإن اختلفت التسمية قوله (وما قدروا الله حق قدره
 والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما
 يشركون) ومثاله من الشعر قول عبد المطلب :

لا ينزل المجد إلا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى القل
 (٣) السخائم الضغائن ؛ وسلها : نزعها واستخرجها ، وغرب السيف . حده وفل
 المسيف : ثلمه . والنفث في العقد هو النفخ فيها مع إلقاء شيء من الريق عليها لأجل =

وإن كان وعظماً كان أشنى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغياية^(١) ، ويبصر الغاية ، ويبرىء

تسهيل حلها . ومنه نفث الراقى في العقدة التي بعقدها ثم يحلها يوم بذلك الناس أنه أبرم بعقدها رابطة المحبة بين فلان وفلانة ويحلها أنه حل ذلك العقد وأبطل ذلك الارتباط يستحرم ؟ وإن الكلام البليغ ليفعل بحسن التمثيل في حل عقد العقود مالا يفعل السحر ، وإن من البيان لسحراً والاعتذار لا يوجد في القرآن إلا حكاية عن أصحاب العاذير الكاذبة ليكون الاعتذار حجة عليهم فهو اعتذار في الظاهر واحتجاج في المعنى وأثره مذكور في الاحتجاج دون ما ذكرها كقوله تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) وأما أمثله في الشعر فكثيرة منها :

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرب فالطير يرقص مذبحاً من الألم

ومنها في الاعتذار عن صدود الحبيب :

بأبي حبيباً زارني في غفلة فبدأ الوشاة له فولى معرضاً

فكأنتي وكأنه وكأهم أمل ونيل حال بينهما القضا

ومن الاعتذار بذكر التمثيل ما وقع لأبي تمام في قصيدة يمدح بها أحمد بن المعتصم قيل : إنه كان ينشده إياها قبل قوله :

إقدام عمرو في سباحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

فلامه بعض الناس قائلاً : قد شبهت ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم بأجلاف العرب (أو ما هذا معناه) فأطرق هنيهة وقال ولم يكونا من التصيدة :

لاتنكروا ضربى له من دونه مثلاً شرودا في الندى واللباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وعمر وهذا هو ابن جابر بن هلال الفزارى ويقال العمران له ولبدر بن عمرو ابن جؤبة الفزارى — ومما يصلح للاعتذار من الأمثال قولهم * كل امرئ في بيته صبي يعتذر به عن الدعابة والاسترسال في المباشطة في الخلوة وقولهم « لو ترك القطا ليلاً لنام » .

(١) الغياية بياء بين مثنائين كل ما أظلك من فوق رأسك

العليل ويشفي الغليل^(١)

وهكذا الحكم إذا استقرت فنون القول وضروبه ، وتتبع أبوابه وشعوبه^(٢) ، وإن أردت أن تعرف ذلك ، وإن كان ثقل الحاجة فيه

(١) مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى في وصف نعيم الدنيا (كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون (حطاماً) الكفار الزراع لأنهم يكفرون الحب أى يسترونه بالتراب ، وقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) الآية . وقوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) وقوله عز وجل : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وقوله سبحانه : (فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) وقوله : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبثت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وقوله في الآية الأخرى : (كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل) وقوله في تمثيل من يحبط عمله الصالح بالإيذاء أو الرياء (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) وفي معناه قوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) .

ومن الأمثال حديث : « إن النبات لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، وحديث : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ، ومن الشعر قول ابن النبيه :
الناس الموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
وقول غيره :

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طيب يداوى والطبيب مريض
(٢) يشير المصنف إلى سائر مناحي الكلام كالغزل والثناء والوصف والشكوى وهي مع الذي ذكر وشائج متشابكة ، وأمشاج متمازجة . وأعمها الوصف فهو الطويل الذيل ، المتدفق السيل ، ومن أمثله في القرآن قوله تعالى : (ثم استوى =

إلى التعريف ويستغنى في الوقوف عليه عن التوقيف فانظر إلى نحو قول البحترى

= إلى السماء وهى دخان فقال لها والأرض اثتيا طوعاً أو كرهاً قلنا أتينا طائعين) .
ومثله قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء ألقى) الآية ومنها قوله تعالى :
(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء
تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) وقوله بعده : (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة
اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) ، وهكذا الحق يثبت والباطل يزهد . ومن
ذلك الرؤى فإنها تمثيل للواقع الذى تعبر به كالرؤى المذكورة فى سورة يوسف
عليه السلام . ومثاله من الشعر قول ابن النبية :

والليل تجرى الدرارى فى مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره
وقول بعضهم فى وصف الكاس يعلوها الحباب والساقى (أو هذا من تعدد التشبيه) :
وكانها وكانت حامل كأسها إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء
وفى وصف الأمير والجيش :

يهرز الجيش حولك جانيه كما نفخت جناحها العقاب
ومنه قولنا فى المقصورة فى وصف الوفاق :
لم تختلف فى مبتدا مسألة إلا وكان للوفاق المنتهى
كمن على المحيط من دائرة أنى تفارقا فبعد ملتقى
وقولنا منها فى وصف روضة :

والشمس تبدو من خلال دوحها آونة تخفى وطوراً تجتلى
كفاعة وضاحية قد أثلعت من خلل السجوف ترنو والكوى
تلقى على الروض نثير عسجد فتحسب الروض عروساً تجتلى
وقولنا منها :

والباسقات رفعت أكفها تستنزل الغيث وتطلب الندى
ثبت فى العلوم الطبيعية أن الأشجار تكون سبباً لنزول المطر فشأت هنا بحال
المستسقين يحاب دعاؤهم ويليه قولنا :

تمتلج الكربون من ضرع الهوا تؤثرنا بالأكسجين المنتقى =
(٧ - أسرار البلاغة)

دانٍ على أيدي العفاة وشاسع عن كل ند في الندى وضريب^(١)

كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جدٌ قريب^(٢)

وفكر في حالك وحال المعنى معك وأنت في البيت الأول لم تنته إلى
الثنائي ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يلي على الإنسان عيناه ، ويؤدي
إليه ناظره ، ثم قسمهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فإنك
تعلم بعد ما بين حالتك ، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك ، وتجيئه
إليك ، ونبله في نفسك ، وتوفيره لأنسك ، وتحكم لي بالصدق فيما قلت ،

== ومضناه : أن الأشجار الباسقة ترضع غاز الكربون وتمتصه من الهواء تتغذى
به وهو سام لنا وتترك لنا أكسجين الهواء المطهر للدم في أبداننا باستنشاقنا له في الهواء
فمثلت بحال حي عاقل ينتزع ما يضر الناس ويؤثرهم بما ينفعهم .

وقول ابن دريد في وصف النوق :

يرسبن في بحر الدجى وفي الضحى يطفون في الآل إذا الآل طفا
ومن أحسن ما يدخل من التمثيل في باب الغراميات قول المجنون :
وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل بي النقض والإبرام حتى علانيا
وقوله :

كأن القلب ليلة قيل يندى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح
وقول بعضهم :

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم
وقول الآخر :

إني وإياك كالصادي رأي نهلا ودونه هـوة يخشى بها التلغا
رأي بعينه ماء عزٍّ مورده وليس يملك دون المساء منصرفا

ومن الأمثال التي تدخل من باب الشكوى : « ليس لها راع ولكن حلبة »
حلبة بالتحريك جمع حالب ، ولثلل يضرب الأمة المظلومة . و « لو كويت على داء
لم أكره » يضرب لمن يعاقب على غير ذنب . و « سال بهم السيل وجاش بنا البحر »
(١) الضريب : المثل والنظير . (٢) أي بالغ الغاية في القرب .

والحق فيما ادعيت»^(١).

وكذلك فتهد الفرق بين أن تقول : فلان يكذب نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئاً ، وتسكت . وبين أن تتلو الآية وتنشد قول الشاعر^(٢) :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر^(٣)

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أورااح مافي الغرائر

والفصل بين أن تقول « أرى قوماً لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل في الأخلاق دقة ، وفي السكرم ضعف وقلة ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء .

وقول ابن لنكك :

في شجر السرو منهم مثل له رؤاء وماله ثمر

وقول ابن الرومي :

فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الإثمار كل الإباء

وقول الآخر :

فإن طرة راقتك فانظر فربما أمر^(٤) مذاق العود والعود أخضر

وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ويشمر ، ويفتر ثغره

ويبسم ، وكيف تشتر الأرى من مذاقته^(٥) ، كما ترى الحسن في شارته^(٦)

وأنشد قول ابن لنكك :

(١) مثال المدح ويتلوه مثال الذم .

(٢) الآية قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » . والشاعر مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يهجو قوماً من رواة الشعر ، رواه ابن بري (ش) .

(٣) الزوامل : جمع زاملة وهي التي يحمل عليها من الإبل وغيرها ، والأباعر

جمع بعير . (٤) أمر صار مرأ كمر الثلاثي . (٥) الأرى : العسل . واشتباره :

اجتنأؤه . (٦) تطلق الشارة على الهيئة واللباس .

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجاً رأيت صورته من أقبح الصور
وتبين المعنى وأعرف مقداره ثم أنشد البيت بعده :
وهبك كالشمس في حسن ألم ترنا نقر منها إذا مالت إلى الضرر
وانظر كيف يزيد شرفه عندك ، وهكذا فتأمل بيت أبي تمام ^(١) :
وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
مقطوعاً عن البيت الذي يليه ، والتمثيل الذي يؤديه ، واستقص في تعرف
قيمه ، على وضوح معناه وحسن مزيته ^(٢) ثم أتبعه إياه :
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
وانظر هل نشر المعنى تمام حلقته ، وأظهر المكنون من حسنه وزينته ،
وعطرك بعرف عوده ، وأراك النظرة في عوده ، وطلع عليك من مطلع سعوده ،
واستكمل فضله في النفس ونبله ، واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير ، وما فيه
من التمثيل والتصوير .

وكذلك فرق في بيت المتنبي :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرأً به الماء الزلالا
لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك : إن الجاهل الفاسد الطبع
يتصور المعنى بغير صورته ويخيل إليه في الصواب أنه خطأ . هل كنت تجد هذه
الروعة ؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه ^(٣) وقعه وردعه ، والتهجين له
والكشف عن نقصه ، ما بلغ التمثيل في البيت وينتهي إلى حيث ينتهي .

(١) شروع في مثال الحجاج

(٢) وفي نسخة بزته .

(٣) وقم الزجل : قهره وأذله وردّه عن حاجته أقبح الرد ، والوقد الضرب القاتل
بغير محدد يكون أطول ألماً وأشدّ تعذيباً ولأجله حرمت الموقوذة ويسند إلى الكلام تجاوزاً

وإن أردت^(١) اعتبار ذلك في الفن الذي هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول : إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره ، — وتقتصر عليه — وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه » و يروى « مثل الفميلة تضيء للناس وتحرق نفسها »^(٢) وكذا فوازن بين قولك للرجل وأنت تعظه « إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك » وتمسك . وبين أن تقول في أثره « إنك لا تجنى من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع » وأشباه ذلك . وكذا بين أن تقول : لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه ونحوه . وبين أن تقول لا تنثر الدر قدام الخنازير . أو لا تجعل الدر في أفواه الكلاب » وتنشد نحو قول الشافعي رحمه الله * أأنثردراً بين سارحة الغنم *^(٣) وكذا بين أن تقول : الدنيا لا تدوم ولا تبقى وبين أن تقول « هي ظل زائل ، وعارية تسترد ، ووديعة تسترجع » وتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم « من في الدنيا ضيف وما في يديه عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » وتنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع
وقول الآخر :

إنما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار

(١) شروع في أمثلة الوعظ ولم يميل للافتخار والاعتذار .

(٢) بهذا اللفظ رواه الطبراني في معجمه الكبير عن أبي برزة بسند حسن

(٣) المصراع الثاني . « وأثر منظوماً لرعاية النعم * وهي أبيات قالها بمصر

في أثر مجيئه إليها لما كلفه بعض أصحاب مالك وأخراها :

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فهذه جملة من القول تخبر عن صنيع التمثيل وتخبر عن حال المعنى معه ،
فأما القول في العلة والسبب : لم كان للتمثيل هذا التأثير ؟ وبيان جهته ومآتاه ،
وما الذي أوجبه واقتضاه ، فغيرها . وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسباباً وعلاً
كل منها يقتضى أن يفهم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكمل ، فأول
ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ،
وتأتيها بصريح بعد مكفي ، وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شئ آخر هي
بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ؛
وعما يعلم بالفكر ، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق
الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة
النظر والفكر في القوة والاستحكام ؛ وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا
« ليس الخبر كالمعاينة »^(١) ولا الظن كاليقين ، فلماذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس
أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه
تقدم الألف كما قيل :

* ما الحب إلا للحبيب الأول *

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع
ثم من جهة النظر والروية ، فهو إذن أمس بها رحماً ، وأقوى لديها ذمماً ،
وأقدم لها محبة وآكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن

(١) هذه الجملة حديث نبوي رواه الطبراني في الأوسط والخطيب عن أبي هريرة
ورويناه مسلسلاً بالاشراف عن شيخنا أبي الحسن القواقجي ولا أذكر له رواية
بزيادة ولا الظن كاليقين ورواه أحمد والحاكم والطبراني في الأوسط بسند صحيح
عن ابن عباس بزيادة : « إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق
الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت » .

المدرّك بالعقل المحض ، وبالفكرة في القلب ، إلى ما يدرك بالحواس
أو يعلم بالطبع ، وعلى حد الضرورة ، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب
بالحميم ، وللجديد الصّحية بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير
الشاعر ، إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثّل ، ثم مثله كمن يخبر عن شيء
من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول ها هو ذا ، فأبصره
تجده على ما وصفت .

(فإن قلت) إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال
الريب والشك في الأكثر ، أفقول إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور
والصفة السابقة ، ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل حتى
لا يكون تمثيل إلا كذلك ؟ فالجواب أن المعاني التي يجيء التمثيل في عقبها
على ضربين غريب بدیع يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه واستحالة وجوده
وذلك نحو قوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه
وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وهذا
أمر غريب ، وهو أن يتفاهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به
إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، وبالمدعى له حاجة إلى أن
يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة ، إلى أن يجيء إلى وجوده في
المدوح . فإذا قال : « فإن المسك بعض دم الغزال » . فقد احتج لدعواه
وأبان أن لما ادّعاء أصلا في الوجود ، وبرأ نفسه من صفة الكذب وباعدها
من صفه المُقَدِّم على غير بصيرة ، والمتوسع في الدعوى من غير البيئة ،
وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته ، حتى لا يعد في جنسه ،

إذ لا يوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه ،
لا ما قل ولا ما كثر ، ولا في المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم
دماً ألبنة .

(وللضرب الثاني) أن لا يكون المعنى الممثل غريباً نادراً يحتاج في
دعوى كونه على الجملة إلى بيينة وحجة وإثبات . نظير ذلك أن ينفي عن فعل
من الأنفال التي يفعلها الإنسان الفائدة ، ويدعى أنه لا يحصل منه على طائل
ثم يمثله في ذلك بالقابض على الماء والراقم فيه ، فالذي مثلت ليس بمنكر
مستهدع ، إذ لا ينكر خطأ الإنسان في فعله أو ظنه وأمله وطلبه . ألا ترى أن
المغزى من قوله^(١) :

فأصبحت من ليل الغداة كقباض على الماء خائته فروج الأصابع
أنه قد خاب في ظنه أنه يتمتع بها ، ويسعد بوصلها ، وليس بمنكر
ولا عجيب ولا ممتنع في الوجود ، خارج من المعروف المعهود ، أن يخيب ظن الإنسان
في أشباه هذا من الأمور ، حتى يستشهد على إمكانه ، وتقام البيينة على صدق
المدعى لوجدانه .

وإذا ثبت أن المعاني الممثلة تكون على هذين الضربين ؛ فإن فائدة التمثيل
وسبب الأنس في الضرب الأول بين لائح ، لأنه يفيد فيه الصحة ، وينفي الريب
والشك ، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف وتهجم المنكر وتهكم المعارض ،
وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصر ، ويعلم
كونه على ما أثبتته عليه موازنة ظاهرة صحيحة .

وأما الضرب الثاني فإن التمثيل وإن كان لا يفيد فيه هذا الضرب
من الفائدة ، فهو يفيد أمراً آخر يجري مجراه ، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى

(١) وفي نسخة المغزى في قوله .

إقامة الحجة على صحة وجوده في نفسه ، وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله ، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه في القوة والضعف والزيادة والنقصان ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر أولاً إلى التشبيه الضريح الذي ليس بتمثيل كقياس الشيء على الشيء في اللون مثلاً « حنك الغراب »^(١) تريد أن تعرف مقدار الشدة لا أن تعرف نفس السواد على الإطلاق .

وإذا تقرر هذا الأصل فإن الأوصاف التي ترد السامع فيها بالتمثيل من العقل إلى العيان والحس وهي في أنفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هل هي ممكنة موجودة أم لا فإنها وإن غُيِّت من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات ، فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار ، لأن مقاديرها في العقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال في الفعل إنه من حال الفائدة على حدود مختلفة في المبالغة والتوسط ، فإذا رجعت إلى ما تبصر وتحس عرفت ذلك بحقيقته وكما يوزن بالتسطاس ، فالشاعر لما قال : « كقابض على الماء خائنه فروج الأصابع » أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ ، وانتهى فيه إلى أبعد الغايات ، حتى لم يحظ لا بما قل ولا ما كثر .

فهذا هو الجواب ونحن^(٢) بنوع من التسهيل والتسامح نقع على أن الأنس الحاصل بانتقالك في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

فأما إذا رجعنا إلى التحقيق فإننا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع

(١) حنك الغراب بالتحريك : منقاره أو سواده قاهما (ش) .

(٢) الجملة حالية .

العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله (قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) والشواهد في ذلك كثيرة والأمر فيه ظاهر . ولولا أن الأمر كذلك لما كان لنحو قول أبي تمام :

وطول مقام المرء في الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

معنى . وذلك أن هذا التجدد لا معنى له إن كانت الرؤية لا تفيد أنسا من حيث هي رؤية وكان الأنس لنفيها الشك والريب أو لوقوع العلم بأمر زائد لم يعلم من قبل . وإذا كان الأمر كذلك فانت إذا قلت للرجل أنت مضيع للحزم في سعيك ومخطيء وجه الرشاد وطالب لما لا تناله إذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة ، ثم عقبته بقولك « وهل يحصل في كف القابض على الماء شيء مما يقبض عليه » فلو تركنا حديث تعريف المقدار في الشدة والمبالغة ونفى الفائدة من أصلها جانبا بقي لنا ما تقتضيه الرؤية للموصوف على ما وصف عليه من الحالة المتجددة مع العلم بصدق الصفة . يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلا على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء فأدخل يده في الماء وقال أنظر هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ فكذلك أنت في أمرك — كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل^(١) ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي الشئيين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجده إذا أخبرك بالقول فقال : هل يجتمع الماء والنار ؟ وذلك الذي تفعل

(١) جملة كان لذلك الخ جواب « لو كان الرجل مثلا » الخ

المشاهدة من التحريك للنفس ، والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب ، إذا كانت مستفادة من العيان ومتصرفه حيث تتصرف العينان ، وإلا فلا حاجة بنا في أن الماء والنار لا يجتمعان ، إلى ما يؤكد من رجوع إلى مشاهدة ، واستيثاق بتجربة .

ومما يدل على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسا ، وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى أو بيان لمقدار المبالغة فيه ، أنك قد تعبر عن المعنى بالمعبرة التي تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع في النفوس منزعا ، نحو أن تقول وأنت نصف اليوم بالطول : يوم كأطول ما يتوهم * وكأنه لا آخر له . وما شاكل ذلك من نحو قوله :

في ليل صول تنامى العرض والطول كأنما ليله بالحشر موصول^(١)

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله :

* ويوم كظل الريح قصر طوله^(٢) *

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى في المبالغة من هذا ؛ فظل الريح على كل حال متناه تدرك العين نهايته ، وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له ، وكذلك تقول : يوم كأقصر ما يتصور ، وكأنه ساعة وكلح البصر و « كلا ولا » فتجد هذا مع كونه تمثيلا لا يؤنسك إيناس قولهم : أيام كأباهيم القطا^(٣) . وقول ابن المعتز :

(١) البيت لحنديج (كقنفذ) المرى . وصول بالضم بلدة إبراهيم الصولى المشهور والرواية الصحيحة في الشطر الثانى * كأنما ليله بالليل موصول * أى كأن الأنهار بين ليليه .

(٢) البيت لشبرمة بن الطفيل وتماه * دم الزق عنا واصطفاق المظاهر * وروى : واصطكاك المظاهر . وشبرمة كقنفذة والطفيل بكسر فسكون ففتح .
(٣) ويقال أباهم أيضاً

بدلت من يوم كظال حصاة ليلا كظال الرمح غير موات^(١)
وقول آخر :

ظللنا عند باب أبي نعيم بيوم مثل سالفة الذباب^(٢)
وكذا تقول فلان إذا هم بالشئ لم يزل ذاك عن ذكره وقلبه ، وقصر خواطره
على إمضاء عزمه ، ولم يشغله شئ عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ، ثم لا ترى
في نفسك له هزة ، ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما نسمع حديثاً ساذجاً وخبراً
غفلاً^(٣) ، حتى إذا قلت :

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه^(٤)
امتثلت نفسك سروراً وأدركتكم طربة — كما يقول القاضي أبو الحسن —
لا تملك دفعها عنك ولا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئاً
منه فليس الأصل له بل لأن أراك العزم واقفاً^(٥) بين العينين ، وفتح إلى مكان
المعقول من قلبك باباً من العين .

وهنا — إذا تأملنا — مذهب آخر في بيان السبب الموجب لذلك هو اللطف
مأخذاً وأمكن في التحقيق ، وأولى بأن يحيط بأطراف الباب . وهو
أن لتصور الشبه من الشئ في غير جنسه وشكله ، والتقاط ذلك له من

(١) واتاه يواتيه : طاووعه فهو موات وأصله الهمز .

(٢) السالفة : ناصية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة ومن
الفرس هاديه أى ما تقدم من عنقه (ش) وقوله قلت الترقوة القلت بالفتح النقرة
في الجبل والمراد هنا نقرة الترقوة .

(٣) الغفل بالضم يوصف به ما يخلو من سمات كماله وحسنه يقال : فلاة غفل
أى لا علم بها ، ورجل غفل لم تسمه التجارب ومصحف غفل إذا جرد عن العواثر
ونحوها من المحسنات ، وكتاب غفل لم يسم واضعه . والكلام الغفل هنا ما ليس فيه
من الحسن ما يؤثر في النفس ويحرك الوجدان

(٤) الشطر لسعد بن ناشب وتماه * ونكب عن ذكر العواقب جانباً *

(٥) وفي نسخة واقعاً .

غير محلته ، واجتلابه إليه من النيق البعيد^(١) باباً آخر من الظرف واللفظ ، ومذهباً من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل . وأحضر شاهداً لك على هذا أن تنظر إلى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض فإن التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة ، أم خاصة مقصورة على قائل دون قائل ، تراها لا يقع بها اعتداد ، ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقررأ بين شيئين مختلفين في الجنس ، فتشبيه العين بالزجس عامي مشترك معروف في أجيال الناس جار في جميع العادات ، وأنت تنظر إلى بعد ما بين العينين وبينه من حيث الجنس . وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود السكر المنور ، واللجام المفضض ، والوشاح^(٢) المفصل ، وأشباه ذلك — خاصي ، والتباين بين المشبه والمشبه به في الجنس على ما لا يخفى .

وهكذا إذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشئيين كما كان أشد ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ؛ وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستغراف ، والمثير للدفن من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤاف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشئيين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض ، وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة ، وتتبعتم هذه اللمحة^(٣) ولذلك تجد تشبيه البنفسج

(١) النيق بالنيق بالكسر أرفع موضع في الجبل .

(٢) الوشاح بالضم وبالكسر كرسان من اللؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما عن الآخر — وأديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحتها والمراد هنا الثاني (ش) .

(٣) اللمحة بالفتح إما واحدة اللمح وهو اختلاس النظر ، وإما واحدة اللامح وهي محاسن الوجه (ش) .

في قوله^(١) :

ولازوردية تزهو بزرقتهما بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجدر ، من تشبيه الرجس ، بمداهن درخشوهن
مقيق ، لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غص يرف^(٢) وأوراق رطبة ترى الماء منها
يشف^(٣) بلهب نار مستول عليه اليبس ، وبأد فيه الكلف^(٤) ومبنى الطباع وموضوع
الجليلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس
بمعدن له ، كانت صباية النفوس به أكثر ، وكان بالشف من أجدر ، فسواء
في إثارة التعجب ، وإخراجك إلى روعة^(٥) المستغرب ، وجودك الشيء في مكان
ليس من أمكنته ، ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته ،
ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شهما في شيء من المتلونات ،
لم تجد له هذه الغرابة ، ولم ينل من الحسن هذا الحظ .

(١) أى ابن المعتز ويروى البيتان هكذا .

بنفسج جمعت أوراقه فحكي كحلا تشرب دمعاً يوم تشتيت
كأنه وضعاف القضب تحمله أوائل النار في أطراف كبريت

ويروى الشطر الثالث هكذا مع تأنيث الضميرين كما في الرواية الأولى .

(٢) رف لونه يرف بضم الراء وكسرهما رفا ورفيفاً برق وتلألاً . ورف النبات
اهتز واضطربت أغصانه .

(٣) إما من شف يشف شفوفاً إذا رق فحكي ما تحته ، أو من شف يشف
شفاً إذا تحرك (ش) .

(٤) الكلف بالتحريك لون بين السواد والحمر ، وحمرة كدرة تعلو الوجه .

(٥) الروعة بالفتح الفزعة والمسحة من الجمال (ش) .

وإذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ، ويشير الكامن من الاستظراف ، فإن التمثيل أخص شيء بهذا الشأن ، وأسبق جار في هذا الرهان ، وهذا الصنيع صناعته التي هو الإمام فيها ، والباديء لها والمادى إلى كیفيتها ، وأمره في ذلك أنك إذا قصدت ذكر ظرائفه ، وعد محاسنه في هذا المعنى ، والبدع التي يبتدعها بحذقه ، والتأليفات التي يصل إليها برفقه ازدحمت عليك ، وغمرت جانبك ، فلم تدر أيها تذكر ، ولا عن أيها تعبر ، كما قال :

إذا أتاه طالب يستقامها تنكأرت في عينه كرامها
وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشم والمعرق^(١) وهو يريك المعاني الممثلة بالأوهام شهباً في الأشخاص المائلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجراد ، ويريك القمام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين ، كما يقال في الممدوح هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كما قال :

أنا غار في مرتقى نظر الحما سد ماء جار مع الإخوان
وكما يجعل الشيء حلواً مرأ ، وصاباً عسلاً ، وقبيحاً حسناً ، كما قال :

حسن في عيون أعدائه أقبح من ضيفه رآته السوام^(٢)

(١) المشم من آتى الشام ، والمعرق من آتى العراق .

(٢) وفي نسختنا وجوه أعدائه ولكن قال شيخنا : إن الرواية الصحيحة عيون أعدائه وإن قوله حسن خبر لمحدوف هو الممدوح ، وفي عيون صفة لأقبح الذي هو خبر ثان ، والسوام : الماشية .

ويجعل الشيء أسود أبيض في حال كنهو قوله :
 له منظر في العين أبيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع^(١)
 ويجعل الشيء كالمقلوب إلى حقيقة ضده كما قال :
 غرة بهمة إلا إنما كنه ت أغراً أيام كنت بهيما^(٢)
 ويجعل الشيء قريباً بعيداً معاً كقوله : * دان على أيدي العفاة وشاسع *
 وحاضراً وغائباً كما قال :
 أيا غائباً حاضراً في القواد سلام على الحاضر الغائب
 ومشرقاً مغرباً كقوله :
 له إليكم نفس مشرقة إن غاب عنكم مغرباً بدنه
 وسائراً مقيماً كما يجيء في وصف الشعر الحسن الذي يتداوله الرواة وتتهاداه
 الألسن كما قال القاضي أبو الحسن :
 وجوابه الأفق موقوفة تسير ولم تبرح الحضرة

(١) الأسفع : الأسود المشرب بحمرة والاسم السفعة بالضم
 (٢) يصف الشيب بأنه غرة شديدة ، وإنما كان أغر في الوقت الذي كان فيه
 بهيما أي أسود الشعر ، وفي رواية أبي هلال مرة بدل بهمة . هذا ما كتبت على البيت
 في حاشية الطبعة الأولى وأجازه شيخنا إلا أنه علق على نسخة الدرس بإزاء قوله غرة
 بهمة : أراد من الشدة أنها صعبة الاحتمال اهـ . ولم يظهر لي الآن وجه تفسير البهمة
 بالشديدة . ومن المعلوم أن الغرة في الأصل البياض في جهة الفرس فوق قدر الدرهم
 ومنه فرس أغر والبهمة كالظلمة وزناً ومعنى . والبهيم الذي لا شية فيه من غير لونه ،
 ومنه ، ليل بهيم لا ضوء فيه ويطلق الأغر على الحسن والأبيض من كل شيء وعلى
 السيد الكريم ، فإذا كان يصف شييه فهو يقول إنه أو أن لته غرة كالظلمة في قبحها
 وكراهته هو أو كراهة الحسان لها ، وأنه إنما كان رجلاً أغر في الوقت الذي كان
 شعره أسود بهيما

وهل يخفى تقريبه المتباعدين ، وتوفيقه بين المختلفين ، وأنت تجد إصابة الرجل في الحجة وحسن تخليصه للكلام وقد مثلت تارة بالهناء ومعالجة الإبل الجربى به^(١) وأخرى بحز القصاب اللحم وإعماله السكين في تقطيعه وتفريقه في قولهم : « يضع الهناء مواضع النُقَب (وهو الجرب) ويطبق المفصل^(٢) » فانظر هل ترى مزيداً في التناكر والتنافر على ما بين طلال القطران ، وجنس القول والبيان ، ثم كرر النظر وتأمل كيف حصل الائتلاف وكيف جاء من جمع أحدهما إلى الآخر ما يأنس إليه العقل ويحمده الطبع . حتى إنك لربما وجدت لهذا المثل إذا أورد عليك^(٣) في أثناء الفصول ، وحين تبين الفاضل في البيان من المفضول ، قبولاً ولا ما تجد عند فوح المسك ونشر الغالية^(٤) وقد وقع ذكر الحز والتطبيق منك موقع ما ينفي الحزازات عن القلب ، ويزيل أطباق الوحشة عن النفس .

وتكلف القول في أن للتمثيل في هذا المعنى المدى الذي لا يجارى إليه . والباع الذي لا يطاول فيه ، كالاحتجاج للضروريات . وكفى دليلاً على تصرفه فيه باليد الصنّاع ، وإيفائه على غايات الابتداع ، أنه يريك العدم وجوداً والوجود عدماً ، والميت حياً والحى ميتاً ، أعنى جعلهم الرجل إذا بقي له ذكر جميل وثناء حسن بعد موته كأنه لم يموت وجعل الذكر حياة له

(١) الهناء بالسكسر القطران والنقب كصرد الجرب قال هيد الباقي .

وما الهناء منكم بمشف نقباً وطالما أشفى الهناء النقبا

(٢) يقال طبق السيف إذا أصاب المفصل قال الشاعر في وصف سيف :

* يصمم أحياناً وحيناً يطبق * ويقال لليلخ : قد طبق المفصل ويقال أيضاً

* يضع الهناء مواضع النقب * يعنون أنه ماهر مصيب .

(٣) وفي نسخة إذا ورد عليك .

(٤) النشر الرائحة الطيبة والغالية طيب معروف

كما قال : « ذكره^(١) الفتى عمره الثاني » وحكمهم على الغافل الساقط القدر الجاهل الدنيء بالموت . وتصييرهم إياه حين لم يكن ما يؤثر عنه ويعرف به كأنه خارج عن الوجود إلى العدم أو كأنه لم يدخل في الوجود .

والطيفة أخرى له في هذا المعنى هي إذا نظرت أعجب ، والتعجب بها أحق ومنها أوجب ، وذلك جعل الموت نفسه حياة مستأنفة حتى يقال إنه بالموت استكمل الحياة في قولهم : « فلان عاش حين مات » يراد الرجل تحمله النفس الأبية وكرم النفس والأنفة من العار على أن يسخو بنفسه في الجود والبأس ففعل ما فعل كعب بن مامة^(٢) في الإتيان على نفسه ، أو ما يفعله الشجاع المذكور من القتال دون حريمه والصبر في مواطن الاباء والتصميم في قتال الأعداء ، حتى يكون له يوم لا يزال يذكر ، وحديث يعاد على مر الدهور وبُشهر ، كما قال ابن نباتة :

بأبي وأمي كل ذي نفس تعاف الضيم مرة
برضى بأن يرد الردى فيميتها ويعيش ذكره
وانه ليأتيك من الشيء الواحد بأشباه عدة ، ويشقى من الأصل

(١) الذكر بالضم الصيت .

(٢) الظاهر أن يقال فيفعل كما فعل كعب بن مامة قال شيخنا هو الأباذي للشهور أثر رفيقه السعدى بالماء حتى مات عطشاً ونجا السعدى وله يقول حبيب :
يجود بالنفس إذ ضن البخل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وقال له ولحاتم الطائي :

كعب وحاتم اللذان تقسما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الجهد ميتة خضرم صنديد
إلا يكن فيها الشهيد فقومه لا يسمحون له بألف شهيد

الواحد أغصاناً في كل غصن ثمر على حدة ، نحو أن الزند بإيرائه^(١) يعطيك شبه الجواد والذكي القطن وشبه النجح في الأمور والظفر بالمراد . وبإصلاحه^(١) شبه البخيل الذي لا يعطيك شيئاً ، والبليد الذي لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى ، وشبه من يخيب سعيه ونحو ذلك . ويعطيك^(٢) من القمر الشهرة في الرجل والنباهة والعز والرفعة . ويعطيك السكال عن النقصان والنقصان بعد السكال كقولهم : « هلال نما فعاد بدرأ » يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذي يشبه أصله من الفضل والعقل وسائر معاني الشرف كما قال أبو تمام :

لهفي على تلك الشواهد منهما لو أمهلت حتى تصير شمائلها
لغدا سكونهما حجبى وصباهما كرمًا وتلك الأريحية نائلها^(٣)
إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدرأ كاملاً

وعلى هذا المثل بعينه يضرب مثلاً في ارتفاع الرجل في الشرف والعز من طبقة إلى أعلى منها كما قال البحترى :

شرف تزيد بالعراق إلى الذي عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا^(٤)

(١) يقال وري الزند (كوعد) وأورى إذا أخرج ناره ، ويقال أصله إذا صوت ولم تخرج منه النار .

(٢) عطف على قوله يأتيتك من الشيء الواحد الخ .

(٣) يروى حلاً بدل كرمًا ، وقبل البيت الأخير

ولا عقب النجم المرذبة ولعاد ذاك الظل جوداً وإبلا

والرثاء لولدين لعبد الله بن طاهر ماتا في يوم أحدهما هوى من سطح ؛ والآخر

تردى في بئر .

(٤) في كتاب المسالك * عهدوه في خمليخ أو ببلنجرا * وخمليخ وبلنجرا

والبيضاء مدن الخزر اه وقوله تزيد بالعراق أى ابتدأت زيادته فيه ثم لا زال

يمتد إلى أن وصل إلى الذى عهدوه الخ ، والبيتان من قصيدة قالها في

مدح اسحق بن كنداج الخزرى القائد الكبير عند ما توج وقلد السيفين

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالى فيه حتى أقرا
ويعطيك شبه الإنسان فى نشأته ونمائه إلى أن يبلغ حد التمام ، ثم تراجعه
إذا انقضت مدة الشباب ، كما قال :

المرء مثل هلال حين تبصره يبدو ضئيلا ضعيفا ثم يتسق^(١)
يزداد حتى إذا ما تم أعقبه كره الجديدى نقصا ثم ينمحق
وكذلك يتفرع من حالتي تمامه ونقصانه فروع لطيفة فمن ذلك قول
ابن بابك :

وأعرت شطر الملك شطر كماله والبدر فى شطر المسافة يكمل^(٢)
قاله فى الأستاذ أبى على وقد استوزره فخر الدولة بعد وفاة الصاحب وأبا العباس
الضبي وخلع عليهما^(٣) . وقول أبى بكر الخوارزمي :

أراك إذا أيسرت خيمت عندنا مقيا وإن أعسرت زرت لماما^(٤)
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه أغب وإن زاد الضياء أقاما
المعنى لطيف وإن كانت العبارة لم تساعد على الوجه الذى يحب فإن
الأغياب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه . وإنما يصلح لأن يراد
أن القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليلة بل يظهر فى بعض الليالى

(١) اتسق الأمر انتظم ، والقمر كمل وتم نوره .

(٢) يرى نوب كماله .

(٣) وأبا العباس الضبي عطف على ضمير استوزره وهو أحمد بن إبراهيم الضبي
ولاه الوزارة فخر الدولة أولا ولقب بالرئيس ، ثم ولى بعده الأستاذ أبى على الجليل
وهجأهما أحد الشعراء من بيت المنجم فقال :

والله والله لا أفلحتم أبدا بعد الوزير ابن عباد ابن عباس
إن جاء منكم جليل فاجلبوا أجلى أو جاء منكم رئيس فاقطعوا راسى
(٤) لماما بالكسر أى غبا .

ويمتنع من الظهور في بعض وليس الأمر كذلك لأنه على نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار . وقال ابن بابك في نحوه

كذا البدر يسفر في تمه فإن خاف نقص الحاق انقلب

وهكذا ينظر إلى مقابلته الشمس واستمداده من نورها وإلى كون ذلك سبب زيادته ونقصه وامتلائه من النور والائتلاق ، وحصوله في الحاق ، وتفاوت حاله في ذلك ، فيصاغ منه أمثال ويبين أشباه ومقاييس ، فمن لطيف ذلك قول ابن نباتة :

قد سمعنا بالغر من آل ساسا ن ويونان في العصور الخوالى
والملوك الأولى إذا ضاع ذكر وُجدوا في سوائر الأمثال
مكرمات إذا البليغ تعاطى وصفها لم يجده في الأقوال
وإذا نحن لم نضفها إلى مدحك كانت نهاية في الكمال
إن جمعناها أضرب بها الجع وضاعت فيه ضياع الحال
فهو^(١) كالشمس بعدها يملأ البدر وفي قريبا محاق الهلال

وغير ذلك من أحواله كمنحوما خرج من الشبه من بعده وارتقاعه^(٢) ، وقرب ضوئه وشعاعه ، في نحو ما مضى من قول البحترى : « دان على أيدي العفاة » البيتين . ومن ظهوره بكل مكان ، ورؤيته في كل موضع كقوله :

كالبدر من حيث التفت رأيت يهدي إلى عينيك نوراً ساطعاً

في أمثال كذلك تكثر . ولم أعرض لما يشبه به من حيث المنظر وما تدركه العين نحو تشبيه الشيء بتقويس الهلال ودقته ، والوجه بنوره وبهجته ، فإننا في ذكر ما كان تمثيلاً وكان الشبه فيه معنوياً .

(١) قوله فهو أى « مدحك » والخطاب للممدوح

(٢) أى القمر

فصل آخر

وإن كان مما مضى إلا أن الأسلوب غيره ، وهو أن المعنى إذا أنك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه . وما كان منه اللفظ ، كان امتناعه عليك أكثر ، وإبائه أظهر ، واحتجابه أشد .

ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاملة الحنين نحوه ، كان نيلاً أحلى ، وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل واللفظ ، وكانت به أضن وأشغف ، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظم كما قال :

وهنّ ينبذن^(١) من قول يصبن به موافق الماء من ذى الغلة الصادى
وأشبه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه ، وتقدم المطالبة من النفس به ، فإن قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعهد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس . ألا تراهم قالوا : إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك ، أسبق من لفظه إلى سمعك ، فالجواب أني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب ، وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه في نحو قوله :

* فإن المسك بعض دم الغزال *

وقوله :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وقوله :

رأيتك في الذين أرى ملوكاً كأنك مستقيم في محال

(١) النبذ : الطرح وإلقاء الشيء وفعله من باب ضرب .

وقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وقوله : (١)

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب
وقول البحتري :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم والسيف حد حين يسطو ورونق
وقول امرئ القيس : * بمنجرد قيد الأوابد هيكل * (٢)
وقوله :

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الأقدام (٣)
فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعنى ، كالجواهر فى الصدف
لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى
تستأذن عليه ؛ ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ،
ولا كل خاطر يؤذن له فى الوصول إليه ، فما كل أحد يفلح فى شق الصدفة ،

(١) أى الشاعر المجهول لا النابغة .

(٢) المنجرد من الخيل الأجرد وهو قصير شعر الجلد ، وذلك بمدح فيها والأوابد
جمع آبداء للوحوش والطيور التى تقيم فى مكان واحد لا تظن صيفاً ولا شتاء ،
ويستعار لفظ « قيدالأوابد » للفرس الجواد كأنه لسرعة عدوه وأدراكه لها قيد
يمنعها الفرار حتى كأنها مقيدة به .

(٣) الجذع بالتحريك الحدث والشاب الذى استكمل قوته ، وأصله فى الأنعام
والدواب وتختلف السن فيها ، وجمعه جذاع وجذعان بضم الجيم وكسرهما ، والقارح من
ذى الحافر كاللبازل من الأبل ما قرح نابيه أى طلع ، وهو الذى بلغ نهاية السن التى ليس
بعدها من تسمى ويكون فى التاسعة وما بعدها . وإذا استعمل اللفظان فى الناس
يراد بالجذع الحدث النشيط وبالقارح العاقل المجرب ، قال الحريرى : وبرز فيها
الجذع على القارح .

ويكون في ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له وكان :

من النفر البيض الذين إذا اعتزوا وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا^(١)
أو كما قال :

تفتح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملق
وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي يمثل
تحصل الدلالة على الغرض ، حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه
من غير الطريق كقوله :

وكذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل
وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب
في مثله^(٢) ، وكذلك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك في قالب غير مستو ولا ملمس ،
بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجك منك عسر عليك ، وإذا خرج خرج
مشوه الصورة ناقص الحسن .

هذا — وإنما يزيد الطلب فرحاً بالمعنى ، وأنسا به ، وسروراً بالوقوف
عليه ، إذا كان لذلك أهلاً . فأما إذا كنت معه كالفنائس في البحر يحتمل
المشقة العظيمة ، ويخاطر بالروح ، ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت
به . ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدي عليك ،
ويؤرقك ثم لا يروق لك ، وما سبيله إلا سبيل البخيل الذي يدعو له لؤم

(١) قعقعوا أى حركوا الحلقة التى هابها غيرهم ليسمع صوت قعقعتها فيفتح لهم
كأبهم وعاداتهم .

(٢) مثله بغير تعقيد قول عبد الحميد بك الرافعى الطرابلسى المعاصر
* بين السيوف وعينها مناسبة من أجلها قبل الأثغام أجفان *

في نفسه ، وفساد في حسه ، إلى أن لا يرضى بضعته في بخله ، وحرمان فضله ، حتى يأبى التواضع ولين القول فيقيه ويشمخ بأنفه ، ويسوم المتعرض له باباً ثانياً من الاحتمال تنافياً في سخفه ، أو كالذي لا يؤيسك من خيره في أول الأمر فتستريح إلى اليأس ، ولسكنه بطمعك ويسحب على المواعيد الكاذبة ، حتى إذا طال العناء وكثر الجهد تكشف عن غير طائل ، وحصلت منه على ندم لتعبك في غير حاصل ، وذلك مثل ما تجده لأبي تمام من تعسفه في اللفظ وذهابه به في نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه ، وإغراب في الترتيب يعنى الإغراب في طريقه ويضل في تعريفه ، كقوله :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هما في الفار^(١)
وقوله :

يدى لمن شاء رهن من بذق جرعا من راحتك درى ما العصاب والعسل^(٢)

(١) البيت من قصيدة في مدح المعتصم ، وقيل : المأمون ، وفي رواية « لاثنين ثانى » ورواية أخرى « ثانياً » بالنصب مع تسهيل همزة (إذ) والرواية الرابعة « لاثنين ثالثاً » وقبل البيت قوله :

واعلم بأنك إنما تلقهم في بعض ما حفروا من الآبار
لو لم يكد للسامري قبيله ما خار عجلهم بغير خوار
وتمود لو لم يدهنوا في ربهم لم ترم ناقتهم بسهم قدار
ولو شفا الأحشاء من برحائها أن صار بابك جار ما زيار
وبعد البيت ، والبرحاء شدة الأذى وبابك وما زيار علان لرجلين

(٢) البيت من قصيدة يمدح بها المعتصم أيضا وقبل البيت

كان أمواله والبذل يحققها نهب تعسفه التبذير والنفل
شرست بل لنت قانئت ذاك بدا فانت لاشك فيه السهل والجبل

ولو كان الجنس الذي يوصف من المعاني باللطافة ويمد في وسائط العقود^(١) لا يحوجك إلى الفكر ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه ، وببعض الأدلال عليك ، واعطائك الوصل بعد الصد ، والقرب بعد البعد ، لكان « باقلى حاز » وبيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد واحداً^(٢) ولسقط تفاضل السامعين في الفهم والتصور والتبيين . وكان كل من روى الشعر عالماً به وكل من حفظه — إذا كان يعرف اللغة على الجملة — ناقداً في تمييز جوده من رديئه . وكان قول من قال :

زوامل للأشعار لا علم عندهم يجيدها إلا كعلم الأباقر
وكقول ابن الرومي :

قلت لمن قال لي عرضت على الأخ فحش ماقلته فما حمده^(٣)
قصرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى إذا انتقده
ماقال شعراً ولا رواه فلا ثعلبه كان لا ولا أسده
فإن يقل إنني رويت فكالدو تر جهلا بكل ما اعتقده
وما أشبه ذلك دعوى^(٤) غير مسموعة ولا مؤهلة للقبول وإنما أرادوا بقولهم
« ما كان معناه إلى قلبك ، أسبق من لفظه إلى سمعك » أن يجتهد المتكلم

وفي الديوان المطبوع « تقسمه التبذير أو نفل » والنفل بالتحريك الغنيمة والهبة
والزيادة وفيه أيضاً « فيك السهل والجبل » بكاف الخطاب .

(١) الوسائط جمع واسطة ما كان من الجوهر في وسط العقد وهو أجوده .
(٢) الباقي بتشديد اللام والقصر ويمد القول أى لكان نداء بائع القول السخن
بهذه الكلمة « باقلى حاز » وبيت شعر هو بحيث وصفه من الحسن متساويين
لا تفاضل بينهما .

(٣) يريد على بن سليم الأخفش والأبيات من قصيدة طويلة مطلعها :
رقاب أهل الحلوم معتمدة مقصودة بالهوان معتمدة
(٤) كلمة دعوى خبر قوله : وكان قول من قال الخ .

في ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيائته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الإبانة ، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يترجمه الصبيان ويتكلم به العامة في السوق .

هذا — وليس إذا كان الكلام في غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً ، فإن المعاني الشريفة اللطيفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق . أفلمست تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله : « كالبدر أفرط في العلو » إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز في كونه دانياً شامعاً وترقم ذلك في قلبك ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثاني عليك من حال البدر ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه إلى تلك وتنظر إليه كيف شرط في العلو الإفراط ليشا كل قوله « شامع » لأن الشسوع هو الشديد من البعد ثم قابله بما لا يشا كله من مراعاة التناهي في القرب فقال « جد قريب » . فهذا هو الذي أردت بالحاجة إلى الفكر ، وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نيله .

هذا — وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك ، ونشر بزره لديك ، قد تحمل فيه المشقة الشديدة ، وقطع إليه الشقة البعيدة ، وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص ، وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص ؟ ؟ ومعلوم أن الشيء إذا علم أنه لم ينل في أصله إلا بعد التعب ، ولم يدرك إلا باحتمال النصب ، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه ، وأخذ الناس بتفخيمه ، ما يكون لمباشرة الجهد فيه ، وملاقة الكرب دونه ، وإذا عثرت بالهوي

على كنز من الذهب لم تخرجك سهولة وجوده إلى أن تنسى جملة أنه الذي كد الطالب ، وحمل المتاعب . حتى إن لم تكن فيك طبيعة من الجود تتحكم عليك ، ومحبة للثناء تستخرج النفيس من يدك كان من أقوى حجاج الضن الذي يخامر الإنسان أن تقول « إن لم يكذبني فقد كد غيري » كما يقول الوارث للعال المجموع عفواً إذا ليم على بخله به ، وفرط شحه عليه : إن لم يكن كسبي وكدي ، فهو كسب والدي وجددي ، ولئن لم ألق فيه عناء لقد عانى سلفي فيه الشدائد ، ولقوا في جمعه الأمرين^(١) أفاضيع ما ثمروه ، وأفرق ما جمعوه ، وأكون كالمادم لما أنفقت الأعمار في بنائه ، والمبيد لما قصرت المهم على إعمائه .

وإنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب ، ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى الباحث ويبلغ في هذا مبلغه . فإنه لا يروض لك المهرالارن رياضة الماهر^(٢) حتى يعنق من تحتك اعناق القارح المذلل^(٣) وينزع من شماس الصعب الجامح ، حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره في قلة الحاجة إلى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

فؤادي منك ملآن وسرى فيك إعلان

وقوله :

* عن أي ثغر تبسم *

(١) لقي منه الأمرين . ونزل به الأمران . مثل يضرب في لقاء الشعر وعظام الأمور . والأمران الهرم والمرض أو الفقر والهرم .

(٢) الارن البطر المرح معنى ووزنا وفعلا

(٣) اعنق الفرس أسرع وسار العنق بالتحريك سير فسيح واسع للأبل والدواب . والقارح ما قرح نابه أي طلع .

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قل نشاطه لها واعتناؤه بها إلا لأنه لم يفهم معانيها كما فهم معاني النوع النازل الذي انحط له إليه ؟ أترك نستجيز . أن تقول إن قوله * منى النفس فى أسماء لو تستطيعها^(١) * من جنس المعقد الذى لا يحمد ، وإن هذه الضعيفة الأسر^(٢) الواصلة إلى القلوب من غير فكر ، أولى بالحمد وأحق بالفضل .

هذا — والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر ففكره فى متصرفه^(٣) وبشيك طريقك إلى المعنى^(٤)

(١) مطلع قصيدة من غرر قصائده فى مدج المتوكل قال :

منى النفس فى أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها
وقد راعى منها الصدود وإنما تصد لشيء فى عذارى يروعها
ومنها فى المدح :

ولما رعى سرب الرعية زادها عن الجذب مخضر التلاعب صربها
علمت يقيناً مذ توكل جعفر على الله فيها إنه لا يضيئها
التلاعب بالكسر جمع تلمعة بالفتح وهى مسيل الماء وما اتسع من قوهة الوادى
والقطعة المرتفعة من الصحراء ، والمريع كالخصيب وزنا ومعنى ومنها فيه :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها باحتمادها حتى تضيق دروعها
تقتل من وتر أعز نفوسها عليها بأيد ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماع تقطع بينهم شواجر أرحام معلوم قطوعها
فلو لا أمير المؤمنين وطوله لعادت جيوب والدماء دروعها
والقصيدة كلها محاسن ولكن ينقل عن المتوكل أنه قال ما زال يقول «عها عها»
حق كدنا نقي . وهذا هو مراد المصنف بقوله . لأنه لم يفهم معانيها الخ .

(٢) الأسر إحكام الحلقة ومنه : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) .

(٣) عثره واعرته جملة يعثر

(٤) أشاك الطريق أدخل الشوك فيه .

ويوثر مذهبك نحوه . بل ربما قسم فكرك ، وشعب ظنك^(١) حتى لا تدري من أين تتوصل وكيف تطلب .

وأما الملخص فيفتح لفكرتك الطريق المستوى ويمهده ، وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار ، وأوقد فيه الأنوار ، حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته ، وتقطعه قطع الواثق بالنجح في طيته^(٢) فتد الشريعة^(٣) زرقاء والروضة غناء^(٤) فتتال الرى ، وتقطف الزهر الجنى^(٥) ، وهل شيء أحلى من الفكرة إذا استمرت وصادفت نهجاً مستقيماً ، ومذهباً قوياً ، وطريقة تنقاد ، وتبينت لها الغاية^(٦) فيما ترتاد ، فقد قيل : قرة العين وسعة الصدر وروح القلب وطيب النفس ، من أربعة أمور : . ستبانة للحجة ، والأنس بالأحبة ، والثقة بالعدة ، والمعاينة للغاية . وقال الجاحظ في أثناء فصل يذكر فيه ما فى الفكر والنظر من الفضيلة : « وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة^(٧) ، ولذة السبع بلطم الدم^(٨) وأكل اللحم ؛ من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إيمان قرعه ، وبعد فإذا أعدت

(١) من شعب الشيء إذا فرقه .

(٢) الطية بالكسر اسم هيئة من طوى الأرض في سفره ، قال شيخنا فى طيته : فما طوى قصده عليه ، أقول وفى الأساس : مضى لطيته وأين طيتك وأمتك « بالفتح أى ما تؤمه وتقصده » وبعدت عنا طيته وهى الجهة التى إليها يطوى البلاد .

(٣) الشريعة : مورد الشاربة من النهر .

(٤) الغناء بالتشديد كثيرة الشجر ، يقال عن الوادى يغن بغن الغين إذا كثر شجره .

(٥) هو ما جنى من ساعته فهو غض ليس بذابل .

(٦) الغاية فاعل تبينت .

(٧) العلوفة بالفتح ما تأكله الدابة وجمعه علف بضمحيتين والعليفة والعلوفة الناقة تعلقها ولا ترسلها إلى المرعى « ش » وفى المصباح : العلوفة وزان حلوية وركوبة ما يعلق من الغنم وغيرها يطلق بلفظ واحد على الواحدة والجمع وهو من علف الدابة علفاً من باب ضرب واسم المعلوف علف بفتححيتين وجمعه علاف كجبل وجبال .

(٨) لطم الدم — من باب فتح — شربه أو لحسه .

الحلقات^(١) لجرى الجياد ، ونصبت الأهداف ليعرف فضل الرماة في الإبعاد والسداد ، فرهان العقول التي تستيق ، ونضالها الذي تتمحن قواها في تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط .

وان يبعد المدى في ذلك ولا يدق المرمى إلا بما تقدم من تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة . فإن الأشياء المشتركة في الجنس ، المتفقة في النوع ، تستغنى بثبوت الشبه بينها ، وقيام الاتفاق فيها ، عن تعمُّل وتأمل في إيجاب ذلك لها ، وتثبيتته فيها ، وانها لصنعة تستدعى جودة القريحة والحذق ، الذي يلطف ويدق ، في أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات في رتبة^(٢) ويعقد بين الأجنيات معاهد نسب وشبكة^(٣) وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما لا يحتاج إليه غيرها ويحتمل على من زاولها والطالب لها في هذا المعنى^(٤) ما لا يحتمل ماعداها . ولا يقتضيان ذلك إلا من جهة إيجاد الائتلاف في المختلفات ، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التي تنسب إلى الدقة فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا في الشكل والمهيئة ، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم ، والائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، والحذق لمصورها أوجب .

(١) الحلقات جمع حلبة بالفتح وطي مجال الخيل للسباق ، ويقال للخيل التي تأتي من كل أوب حلبة (أساس)

(٢) الربق بالكسر (وازن حمل) حبل فيه عدة عروى تشد به البهم وكل عروة من العرا التي فيه تسمى ربة ويجمع أيضا على رباق وربقت الشاة (من باب قتل) أدخلت عنقها في الربة فهي ربيقة ومربوقة ومن المجاز ربقته في الأمر . وفي الحديث « خلع ربة الإسلام من عنقه » .

(٣) الشبكة بالضم نسب القرابة ولحمها «ش»

(٤) أي دقة الفكر ولطف النظر

وإذا كان هذا ثابتاً موجوداً ، ومعلوماً معهوداً ، من حال الصور المصنوعة ،
والأشكال المؤلفة ، فاعلم أنها القضية في التمثيل وأعمل عليها واعتقد صحة ما ذكرت
لأن من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه في الجنس ، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال
حتى يكون^(١) هذا شخصاً يملأ المكان وذاك معنى لا يتعدى الأفهام والأذهان ،
وحتى أن هذا إنسان يعقل ، وذاك جماد أو موات لا يتصف بأنه يعلم أو يبجل ، وهذا
نور شمس يبدو في السماء ويطالع . وذاك معنى كلام يوعى ويسمع ، وهذا روح يحيى
به الجسد ، وذاك فضل ومكرمة تؤثر وتحمد ، كما قال :

إن المسكارم أرواح يكون لها آل المهلب دون الناس أجساداً
وهذا مقال متعصب منكر للفضل حسود ، وذاك نار تلهب في عود . وهذا
مخلاف وذاك ورق خلاف^(٢) كما قال ابن الرومي :

بذل الوعد للاخلاء سمحاً وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كاخلاف يورق للعبي ن ويأبى الإثمار كل الإباء
وهذا رجل يروم العدو تصغيره والأزراء به فيأبى فضله إلا ظهوراً . وقدره
إلا سمواً . وذاك شهاب من نار تصوب وهي تملو . وتخفض وهي ترتفع . كما
قال أيضاً :

ثم حاولت بالمتيقيل نصغي رى فما زدتنى سوى التعظيم
كالذى طأطأ الشهاب ليخفى وهو أدنى له إلى التضريم
وأخذ هذا المعنى من كلام في حكم المند وهو أن الرجل ذا المروءة والفضل

(١) قوله حتى يكون : غاية في الانفصال « ش » .

(٢) الخلاف بالكسر شجر الصفصاف .

ليكون حامل المنزلة غامض الأمر فما تبرح به مروءته وعقله حتى يستبين ويعرف كاشعلة من النار التي يصوبها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا .

هذا هو الموجب للفضيلة ، والداعى إلى الاستحسان . والشفيع الذى أحظى التمثيل عند السامعين ، واستدعى له الشغف والولوع من قلوب العقلاء الراجحين ، ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للتمثيل ، ولم تتصادف^(١) هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه ، إلا لأنه لم يراع ما يحضر العين ، ولكن ما يستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤبة ، بل بما تعلق الروية^(٢) ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة ، ثم على حسب دقة المسلك ، إلى ما استخرج من الشبه ولطف المذهب ، وبعد التصعد إلى ما حصل من الوفاق استحق مدرك^(٣) ذلك المدح ، واستوجب التقديم ، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره ، وتقضى بالجنى فى نتائج فكره^(٤) ، نعم وعلى حسب المراتب فى ذلك وأعطيته فى بعض منزلة الحاذق الصانع^(٥) ، والملمم المؤيد ، والألمى المحدث^(٦) ، الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة ، حتى يصير إماماً ويكون من بعده

(١) تتلاقى .

(٢) الروية النظر والتفكر وتعلق بفتح التاء والعين وتشديد اللام أصله تتعاق أى تهوى ويقال علق بالمرأة « كتعب » وتعلقها إذا هوىها .

(٣) ضبطه شيخنا بصيغة اسم المفعول من أدرك .

(٤) الجنى بالفتح مصدر جنى الثمرة والثمره نفسها وكل ما يجنى ما دام غضا .

(٥) يقال صنع اليدين وصنعهما بكسر النون بالتحريك أى حاذق ماهر .

(٦) الألمى الذكى المتوقد والمحدث بالفتح والتثقيل الصادق الحدس كأنما حدث

بما ظن ، والمحدثون بالفتح الملهمون وكان عمر بن الخطاب منهم كما صح فى الحديث .

(٩ — أسرار البلاغة)

تبعاً له وعيالا عليه ، وحتى تعرف تلك الصنعة بالنسبة إليه ، فيقال صنعة فلان وعمل فلان . ووضعت في بعض موضع المتعلم الذكي ، والمقتدى المصيب في اقتدائه الذي يحسن التشبه بمن أخذ عنه ، ويجيد حكاية العمل الذي استفاد ، ويجهد أن يزداد .

واعلم أي لست أقول لك انك متى ألقت الشيء ببعيد عنه في الجنس على الحملة فقد أصبت وأحسن ، ولكن أقوله بعد تقييد ، وبعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس ، وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولاً ، وتجد الملائمة والتأليف السوي بينهما مذهباً وإليهما سبيلاً ، وحتى يكون ائتلافهما الذي يوجب تشبيهك^(١) من حيث العقل والحدس ، في وضوح اختلافهما من حيث المعين والحس ، فاما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا . لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الأخرق ، يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة ، وتجيء فيها نقو^(٢) ، ويكون للعين عنها من تفاوتها نبو ، وإنما قيل شبهت ولا تعنى في كونك مشبهاً أن تذكر حرف التشبيه أو تستعير ، إنما تكون مشبهاً بالحقيقة بأن ترى الشبه وتبينه ، ولا يمكنك بيان ما لا يكون ، وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والظنون .

ولم أرد بقولي إن الخلق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية بدق المسلك إليها ؛ فإذا تغلغل فسكرك فأدركها فقد

(١) وجب التشبيه : يكون منشأ له والاعتبار الذي صوغه (ش)

(٢) قوله « فها نتو » حال من ضمير تجيء وهو تشديد الواو وأصله بالهمزة نتوء

استحقت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق في المعاني كالغائص^(١) على الدر . ووزان ذلك أن القطع التي يجيىء من مجموعها صورة الشنف^(٢) والخاتم أو غيرها من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن بينها تناسب أمكن ذلك التناسب أن يلائم بينها الملائمة المخصوصة ويوصل الوصل الخاص لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة .

ألا ترى أنك لو جئت بأجزاء مخالفة لها في الشكل ثم أردتها على أن تصير إلى الصورة التي كانت من تلك الأولى طلبت ما يستحيل ، فإما استحقت الأجرة على الغوص وإخراج الدر ، لا أن الدر كان بك ، واكتسى شرفه من جهتك ، ولكن لما كان الوصول إليه صعباً وطلبه عسيراً ثم رزقت ذلك وجب أن يجزل لك ويكبر صنيعك .

ألا ترى أن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين في الجنس ثم لطف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتاً بين المشبه والمشبه به من الجهة التي بها شبهت ، إلا أنه كان خفياً لا ينبغي إلا بعد التألق في استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض ، والتقاط النكتة المقصودة منها ، وتجريدها من سائر ما يتصل بها ، نحو أن يشبه الشيء بالشيء في هيئة الحركة فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة ، والهيئة مجردة من الجسم وسائر ما فيه من اللون وغيره من الأوصاف كما فعل ابن المعتز في تشبيه البرق حيث قال :

وكانَّ البرق مصحف قار فانطباقاً مرة وانفتاحاً

(١) كالغائص حكاية للتشبيه ، ولعل أصله بالغائص لأنه لا يحتاج إلى التقدير .

(٢) الشنف بالفتح القرط الأعلى ج شنوف .

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوها انضمام ، ثم فكر في نفسه عن هيات الحركات لينظر أيها أشبه بها فأصاب ذلك فيما يفعله القارئ من الحركة الخاصة في المصحف إذا جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لأن الشئيين مختلفان في الجنس أشد الاختلاف فقط ، بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه ، فبمجموع الأمرين — شدة ائتلاف في شدة اختلاف — حلا وحسن ، وراق وفتن .

ويدخل في هذا الموضع الحسكائية المعروفة في حديث عدى بن الرقاع قال جرير أنشدني عدى : * عرف الديار توهماً فاعتادها ^(١) . فلما بلغ إلى قوله : * تزجى أغن كأن أبرة روقه * ^(٢) . رحمة وقلت قد وقع ، ما عساه يقول وهو أعرابي جلف جاف ؟ فلما قال : * قلم أصاب من الدواة مدادها * استعالت الرحمة حسداً ^(٣) . فهل كانت الرحمة في الأولى ، والحسد في الثانية

(١) تمام البيت : * من بعد ما شمل البلى ابلادها * والابلاد قطع الأرض عامرة أو غامرة أو الآثار في قول بعضهم والقصيدة في مدح الوليد بن عبد الملك ، ومنها :
ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
ومنها :

تأتيه أسلاب الأعزة عنوة قسراً ويجمع للحروب عتادها
وعلمت حق ما أسائل عالماً عن علم واحدة لكي أزدادها

(٢) الازجاء السوق والأغن ذو الغنة وهي صوت يتردد بين اللهاة والأنف كنون « منك » وكذلك صوت الظبي ولذلك غلب عليه لقب الأغن والروق القرن وإبرته رأسه وتكون سوداء .

(٣) يقال إن الفرزدق كان حاضراً لإنشاد القصيدة وأنه عندما بلغ عدى قوله :
تزجى أغن الخ قال أي الفرزدق لجرير ؟ ما تراه يستأب بهذا تشبيها فقال جرير :

إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له في أول الفكر وبديهية الخاطر وفي القريب من محل الظن شبهه^(١) وحين أتم التشبيه وأداه صادفة قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف ؟ وعلى ذلك استحسنوا قول الخليل ، في انقباض كف البخيل :

كفك لم تخلقا للندى ولم يك بخلهما بدعه
فكف عن الخير مقبوضة كما نقصت مائة سبعة
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئتيها لها منعه^(٢)

وذلك أنه أراك شكلا واحداً في اليدين ، مع اختلاف العددين ومع اختلاف المرتبتين في العدد أيضاً لأن أحدهما من مرتبة العشرات والآحاد والآخر من مرتبة المئين والألوف . فلما حصل الاتفاق كأشد ما يكون في شكل اليد مع الاختلاف كأبلغ ما يوجد في المقدار والمرتبة من العدد كان التشبيه

= * قلم أصاب من الدواة مدادها * قال فما رجع الجواب حتى قال عدى ذلك ، فقال ويحك لكان سمعك في فؤاده عجبؤ إذقال . جرير : أسكت فقد شغلني سبك عن جيد الكلام (ش) .

(١) شبه فاعل يحضر .

(٢) الأبيات من المتقارب وفي الأول الحزم ومعناها أنه قاض كلتا يديه وبيانه في حل مسألة العقد وهي أن اليمين التي يعقدون بها للآحاد والعشرات إذا أردت أن يعقد بها ٩٣ وهي المائة تنقصها سبعة تقبض الخمسة والبصرة والوسطى بحيث تكون الأظافر في باطن الكف وهي عقدة الثلاثة وتقبض السبابة وتجعل ظفرها ظاهراً (لأن ظهور الأظافر للعشرات وإخفاءها للآحاد) وتضع الإبهام على ظهرها وهي عقدة التسعين فتلك ٩٣ ما حصلت إلا من قبض الكف . وأما اليسرى التي يعقد بها المئين والألوف تتكون مقبوضة بعقد ٣٩٠٠ وذلك أن تقبض الخمسة والبصرة والوسطى وهي عقدة ٣٠٠٠ وتقبض السبابة وتخلق عليها بالإبهام (كعقدة ٩٠ في اليمين) وهي عقدة ٩٠٠ فتلك ٣٩٠٠ حصلت بقبض اليد اليسرى أيضاً .

بديعاً . قال المرزبانى : وهذا مما أبدع فيه الخليل لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفين فى العدد متشاكلين فى الصورة . وقوله هذا إجمال ما فصلته .

ومما ينظر إلى هذا الفصل ويدخله ويرجع إليه حين تحصيله الجنس^(١) الذى يراد فيه كون الشيء من الأفعال سبباً لضده كقولنا : أحسن من حيث قصد الإساءة ، ونفع من حيث أراد الضرر . إذا لم يقنع التشاغل بالعبارة الظاهرة ، والطريقة المعروفة ، وصور فى نفس الإساءة الإحسان ، وفى البخل الجود ، وفى المنع العطاء ، وفى موجب الذم موجب الحمد ، وفى الحالة التى حقها أن تعد على الرجل حكم ما يعتدله ، والفعل الذى هو بصفة ما يعاب وينكر ، صفة ما يقبل المنة ويشكر ، فيدل ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البين على حذق شاعره ، وعلى جودة طبعه وحدة خاطره ، وعلو مصعده وبعد غوصه ، إذا لم يفسده بسوء العبارة ، ولم يخطئه التوفيق فى تلخيص الدلالة ، وكشف تمام الكشف عن سر المعنى وسره^(٢) بحسن البيان وسحره . مثال ما كان من الشعر بهذه الصفة قول أبى العتاهية :

جُزِيَ البَخِيلُ عَلَى صَالِحَةٍ عَنِ خَلْفَتِهِ عَلَى ظَهْرِي
أَعْلَى وَأَكْرَمَ عَنْ يَدَيْهِ يَدِي فَعَلْتُ وَنَزَهَ قَدْرُهُ قَدْرِي
وَرُزِقْتُ مِنْ جَدَوَاهُ عَافِيَةً أَنْ لَا يَضِيقَ لَشُكْرِهِ صَدْرِي
وَعَنَيْتُ خِلَؤاً مِنْ تَفْضُلِهِ أَحْنُوْا عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ الْعَذْرِ
مَا فَاتَنِي خَيْرَ أَمْرٍ وَضَعْتُ عَنِ يَدَاهُ مِثْلَ الشُّكْرِ

(١) الجنس مبتدأ وقوله قبله : ومما ينظر إلى هذا الفصل خبره .

(٢) السرو الفضل .

ومن اللطيف مما يشبه هذا قول الآخر :

أعتقني سوء ما صنعت من الر م في فيا بردها على كبدى
فصرت عبداً للسوء فيك وما أحسن سوء قبلى إلى أحد

فصل

« هذا فن آخر من القول يجمع التشبيه والتمثيل جميعاً »

اعلم أن معرفة الشيء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل فنحن وإن كنا لا يشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب وغير الغريب إذا سمعنا بهما فإن لوضع القوانين وبيان التقسيم في كل شيء وتهيئة العبارة في الفروق فائدة لا ينكرها المميز . ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض وأشفى للنفس . والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم عند بديهية النظر إلى نظيره الذي يشبه به بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس في الصور التي تعرفها وتحريك الوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه .

بيان ذلك أنك كما ترى الشمس ويجرى في خاطرك استدارتها ونورها تقع في قلبك المرأة المجلوة ويتراءى لك الشبه منها فيها . وكذلك إذا نظرت إلى الوشى منشورا وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبيهاً حضرك ذكر الروض ممطوراً مفترأً عن أزهاره ، متبسماً عن أنواره ، وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سله وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق^(١) وإن كان هذا أقل ظهوراً من الأول

(١) انعق البرق تسرب في السحاب ومن معاني العقيقة ما يبقى في السحاب من شعاعة وبه تشبه السيوف فتسمى عقائق .

وعلى هذا القياس . ولكنك تعلم أن خاطرك لا يسرع إلى تشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل كقوله * والشمس كالمرآة في كف الأشل * هذا الإمراع ولا قريباً منه ولا إلى تشبيه البرق بأصبع السارق كقول كشاجم :
أرقت أم نمت لضوء بارق مؤتلق مثل فؤاد العاشق
كأنه أصبع كف السارق
وكقول ابن بابك^(١) :

وانضض في حصنى سحائل بارق له جذوة من زبرج اللاذ لامعه
تعوّج في أعلى السحاب كأنها بنان يد من كلة اللاذ ضارعه
ولا إلى تشبيه البرق في انبساطه وانقباضه ، والنماء واثلاقه ، بانفتاح المصحف وانطباقه ، فيما مضى من قول ابن المعتز :
وكان البرق مصحف قار فانطباقاً مرة وانفتاحاً
ولا إلى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك في قوله :
بلفظ يأخذ الحرف المحلى كأن سطوره أغصان شوك^(٢)
ولا إلى تشبيه الشقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد كقول الصنوبري :
وكان محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد

(١) انضض تحرك ويستعمل متعدياً والسحائل جمع سحيل وهو الجبل على قوة واحدة (أى طاق واحد) شبه به خيوط ضوء البرق الرقيقة . والزبرج السحاب الرقيق فيه حمرة واللاذ جمع لاذة وهى ثوب من حرير أحمر . والكلة بالكسر الحجلة التى تسمى الآن فى بلادنا (الناموسية) والستر الرقيق .

(٢) كأنه يريد أن اللفظ يأخذ أشكال الحروف المحلاة بحركاتها أى يتشكل فيها (ش) وينبغى أن تتذكر أن الشوك الذى شبه به شكل الحركات على السطور هو ما كان دقيقاً وكثيراً كشوك الثمر الذى يسمى فى مصر بالتين الشوكى وفى الشام بالصير بوزن حمير

أعلام ياقوت نُشر ن على رماح من زبرجد
ولا إلى تشبيه النجوم طالعات في السماء ، مفترقات مؤتلفات في أديمها ،
وقد مازجت زرقة لونها بياض نورها بدر منشور على بساط أزرق كقول
أبي طالب الرقي :

وكان أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق^(١)

ولا ما جرى في هذا السبيل ، وكان من هذا القبيل ، بل تعلم أن
الذي سبقك إلى أشباه هذه التشبيهات ، لم يسبق إلى مدى قريب بل أحرز
غاية لا ينالها غير الجواد ، وقرطس في هدف لا يصاب إلا بعد الاحتفال
والاجتهاد^(٢) :

واعلم أنك إن أردت أن تبحث بحثاً ثانياً ، حتى تعلم لم وجب أن
يكون بعض الشبه على الذِّكر أبداً ، وبعضه كالغائب عنه ، وبعضه كالبعيد
عن الحضرة ، لا ينال إلا بعد قطع مسافة إليه ، وفضل تعطف^(٣) بالفكر
عليه ، فإن ههنا ضربين من العبرة ، يجب أن تضبطهما أولاً ثم ترجع في أمر
التشبيه ؛ فإنك حينئذ تعلم السبب في سرعة بعضه إلى الفكر ، وإباء بعض
أن يكون له ذلك الإسراع . فأحدي المبرتين أنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق
إلى النفوس من التفصيل . وانك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة

(١) خرجت في صبيحة يوم من أيام الربيع إلى المزارع وجلست على رابية
فرأيت القمح يعلو أوراقه الندى على كل ورقة منه نقطة كالؤلؤ ففكرت فيما يشبه ذلك
نظرت لى معاني جعلتها مطلع موشح فقلت وهو من أول نظمي :

أسقيط الطل في نبت الحمى أم لآل فوق بسط السندس

أم نجوم تتراعى في السما أم ثغور زينت باللحس

(٢) قرطس أصاب القرطاس أى الغرض والاحتفال المبالغة وحسن القيام بالأمور

(٣) التعطف صيغة كثرة من العطف وهو الشفقة والحنو .

إلى التفصيل ، ولكنك ترى بالنظر الأول ، والوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ، ولذلك قالوا : النظرة الأولى حمقاء . وقالو : لم ينعم النظر ، ولم يستقص التأمل . وهكذا الحكم فى السمع وغيره من الحواس ؛ فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك ، حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تدبينه بالسمع الأول . وتذكر من تفصيل طعم الذوق بأن تعيده إلى اللسان ما لم تعرفه فى الذوقة الأولى . وإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء ، وسمع وسمع ، وهكذا . فأما الجمل فتستوى فيها الأقدام ، ثم تعلم أنك فى إدراك تفصيل ما تراه وتسمعه أو تذوقه كمن ينتقى الشيء من بين جملة ، وكن يميز الشيء مما قد اختلط به ، فإنك حين لا يهيك التفصيل كمن يأخذ الشيء جزافاً وجرفاً^(١) .

وإذا كانت هذه العبرة ثابتة فى المشاهدة ، وما يجرى مجراها مما تناله الحاسة ، فالأمر فى القلب كذلك : تجد الجمل أبداً هى التى تسبق إلى الأوهام وتقع فى الخاطر أولاً ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية واستمانة بالتذكر . ويتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ، وكلما كان أوغل فى التفصيل ، كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهل أشد .

(١) الجزاف بيع الشيء لا يعلم كيله ولا وزنه وهو اسم من جازف مجازفة والجزاف بالضم خارج عن القياس وهو فارسى تعريب كزاف (مصباح) واشتقوا منه جزف وجزاف واجتزف واستعملوه فى الحقيقة والمجاز ، وثلاثوا جيم جزاف والجرف بالفتح الكسح أو الذهاب بالشيء كله .

وإذ قد عرلت هذه العبرة ، فالاشتراك في الصفة إذا كان من جهة الجملة على الإطلاق ، بحيث لا يشوبه شيء من التفصيل نحو ان كلا الشيطان أسود أو أحمر ، فهو يقل عن أن يحاج فيه إلى قياس وتشبيه ؛ فإن دخل في التفصيل شيئاً نحو : إن هذا السواد صاف براق ، والحمرة رقيقة ناصعة ، احتجت بقدر ذلك إلى إدارة الفكر ، وذلك مثل تشبيه حمرة الخلد ، بحمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ويتعرف بفضل تأمل ، ازداد الأمر قوة في اقتضاء الفكر ، وذلك نحو تشبيه سقط النار بعين الديك في قوله :

* وسقط كعين الديك عاورت صحبتي^(١) *

(١) الشطر من قصيدة اغيلان وتما البيت * أباهما وهيانا لموضعها وكراً * والصحبة اسم جمع صاحب وعاورتهم تناوبت معهم وفي رواية « نازعت » والبيت في وصف السقط الذي يكون من الزند . وهو مثلث السنين والأشهر منها الكسر ومن عادتهم عند ما يريدون استخراج النار انهم كانوا يأتون بالعودين فيضعون أحدهما أسفل ويسمونهُ الأثني ويفرضون فيه فرساً ويجرون فيه عوداً آخر يسمونه الأب وأحياناً ينقرون نقرأ في العود الأول ويرمون — أي يديرون — فيه الثاني وهو قائم فإذا طال زمن العمل ولم تخرج النار تناوب العود الذكر وهو الأب جماعة الواحد بعد الآخر يحركه حتى تخرج والمراد من الوكر ما تودع فيه النار بعد خروجها كالخشب والفحم ونحوهما ومطلع القصيدة :

لقد جشأت نفسي عشية مشرف ويوم لوا حزوى فقلت لها صبراً
وبعد البيت المستشهد به .

مشهرة لم تكن الفحل أمها إذا هي لم يمسك بأطرافها قسراً
قد انتجت من جانب من جنوبها عوانا ومن جنب إلى جنبه بكراً
أبوها أخوها والضوى لا يضيره وساق أبيها أمها عقرت عقراً
والكلام في وصف السقط يحاجي بذكرها والأم هي العود الأسفل والفحل هو العود المسمى بالأب ولا بد من امساك طرف العود الأسفل حتى يمكن تحريكه =

وذلك أن ما في عينه من تفصيل وخصوص ، يزيد على كون الحرة رقيقة ناصعة ، والسواد صافياً براقاً ، وعلى هذا تجد هذا الحد من المرتبة التي لا يستوى فيها البليد والذكي ، والمهمل نفسه والمتقبط المستعد للفكر والتصور فقله :

كأن على أنيابها كل سُحرة صياح البوازي من صريف اللوائك^(١)
أرفع طبقة من قوله :

كأن صليل المرو حين تشده صليل زيوف يُنتقدن بعقرا^(٢)
لأن التفصيل والخصوص في صوت البازي أبين وأظهر منه في صليل الزيوف ، وكما أن قوله يصف الفرس :

وللفؤاد وجيب تحت أبهره لدم الغلام وراء الغيب بالحجر^(٣)

= لا على فيه ثم يقول إنها « انتجت » أي اكتسبت من بعض الجوانب « عوانا » أي بعد أن عمل فيه قوم سابقون وذلك أن القوم كانوا يستخرون النار من أسفل شجرة فيأتي غيرهم ويستخرجها من حيث استخرج الأولون فشبه هذا بالمرأة العوان أي في منتصف سنّها ومن بعض الجوانب اقتدحت « بكرأ » أي من حيث لم يسبق لأحد اقتداح فهي كالبكرو (أبوها) وهو العود الأعلى (أخوها) لأنها من شجرة واحدة (والضوى لا يضيره) لأنه كلما رق كان أفضل والضوى بفتح الضاد والواو الدقة والهزال وفعله ضوى كرضى (وساق أبيها أمها) يشير بذلك إلى ما يحصل من الاقتداح في ساق الشجرة ، ومن هنا يفهم الغاز ابن دريد في المقصورة وهو

ومنتج أم أبيه أمه لم يتخون جسمه مس الضوى .

أفرشته بنت أخيه فائثي عن ولد يورى به ويشوى

(١) تقدم مع تفسيره (ص ٧٢) .

(٢) البيت لامرئ القيس والمرو الحجارة البيض الرقاق وأشدّه إشداذاً تنجيه وعبقري قيل بلدة في اليمن مشهورة بتزييف النقود وقيل هي قرية للجن ينسبون إليها كل عجيب في الحسن أو القبح .

(٣) البيت أنشده الأصمعي لابن مقبل والأبهر عرق مستبطن في الصلب والقلب =

لا يستوى بتشبيه وقع الحوافر بهزيمة الرعد وتشبيه الصوت الذى يكون لغليان القدر بنحو ذلك كقوله :

لها لفظ جناح الظلام كأنه عجاير غيث رأنح متهمز^(١)
لأن هناك من التفصيل الحسن ما تراه . وليس فى كون الصوت من جنس اللفظ تفصيل يعتد به وإنما هو كالزيادة والشدة فى الوصف ، ومثال ذلك مثال أن يكون جسم أعظم من جسم فى أنه لا يتجاوز مرتبة الجمل كبير تجاوز . فإذا رأى الرجل شخصاً قد زاد على المعتاد فى العظم وال ضخامة لم يحتج فى تشبيهه بالفيء أو الجبل أو نحو ذلك إلى شىء من الفكر بل يحضره ذلك حضور ما يعرف بالبديهة .

والمقابلات التى تريك الفرق بين الجملة والتفصيل كثيرة . ومن اللطيف فى ذلك أن تنظر إلى قوله :

يتابع لا يبتغى غيره بأبيض كالقوس الملتهب^(٢)

== متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة وذى الرخشمى الصلب ولم يذكر القلب وعن ابن الأثير هما عرقان فى الظهر يقال لهما الأبهريان كما يقال فى عرق الذراع الأكلان قال شيخنا وقيل هو عرق منشؤه من الرأس ويمتد إلى القدم وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن فالذى فى الرأس يسمى النامة ومنه قوله : أسكت الله نأمة أى أماته ، ويمتد إلى الحلق فيسمى الوريد وإلى الصدر فيسمى الأبهري وإلى الظهر فيسمى الوتين والفؤاد معلق به وإلى الفخذ فيسمى النسا (بالفتح) وإلى الساق فيسمى الصافن اه والوجيب تحرك القلب تحت أبهره والدم الضرب والغيب ما كان بينك وبينه حجاب يريدان للفؤاد صوتاً يسمعه ولا يراه كما يسمع صوت الحجر الذى يرمى به العصى ولا يراه وخص الغلام لأن الصبيان كثيراً ما يلعبون برمى الحجارة اه لسان العرب .

(١) عجاير المطر والغيث شدته والمتهمز الصوت يقال : تهزمت القوس وتهزم الرعد أى صوتاً .

(٢) البيت لعنترة العبسى وهو حماسى والضمير فى يتابع لورد بن حابس ومفعول يتابع محذوف والضمير فى « غيره » لنضلة الأسدى وكان ورد بن حابس =

ثم تقابل به قوله :

جمعت ردينيا كأن سناناه سنا لم يتصل بدخان^(١)

فإنك ترى بينهما من التفاوت في الفضل ما تراه مع أن المشبه به في الموضعين شيء واحد وهو شعلة النار وما ذاك إلا من جهة أن الثاني قصد إلى تفصيل لطيف ومر الأول على حكم الجمل . ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع في الوهم في أول وهلة بل لابد فيه من أن تثبت وتتوقف وتروى وتنظر في حال كل واحد من الفرع والأصل حتى يقوم حينئذ في نفسك أن في الأصل شيئاً يقدح في حقيقة الشبه وهو الدخان الذي يعلو رأس الشعلة وأنه ليس في رأس السنان ما يشبه ذلك وأنه إذا كان كذلك كان التحقيق وما يؤدي الشيء كما هو أن تستثنى الدخان وتنفي اتصاله باللهب وتقتصر التشبيه على مجرد السنا وتصور السنان فيه مقطوعاً عن الدخان

= طلب نضلة الأسدى بوتر له . وموضع « لا يبتغى » نصب على الحال والباء في قوله بأبيض يجوز أن تتعلق بمتابع وأن تتعلق بلا يبتغى والمعنى يتتابع ورد بن حابس نضلة الأسدى غير مبتغ غيره بسيف أبيض كالنار الملتهبة ، ومعنى لا يبتغى غيره أن همته كانت منصرفة إليه دون سواء من الناس أو دون الغنائم والأموال

(١) يروى حملت مكان جمعت وهو أظهر قال الجوهري : القناة الردينية والرمح الردينى زعموا انه منسوب إلى امرأة السعهرى وتسمى ردينة وكانا يقومان القنا بخط هجر اه وفي كلامهم خطية ردن ، ورماح لدن (لسان) وأقول سمهر كجعفر وردينة بكهينة بالخط بالفتح قال في المصباح سمى به موضع باليمامة وينسب إليه على لفظه فيقال رماح خطية والرماح لا تثبت بالخط ولكنه ساحل للسفن التى تحمل القنا إليه وتعمل به وقال الخليل إذا جعلت النسبة اسماً لازماً قلت خطية بكسر الخاء ولم تذكر الرماح ، وهذا كما قالوا ثياب قبطية بالكسر فإذا جعلوه اسماً حذفوا الثياب وقالوا قبطية بالضم فرقا بين الاسم والنسبة اه .

ولو فرضت أن يقع هذا كله على حد البديهة من غير أن يخطر ببالك ما ذكرت لك قدرت محالا لا يتصور ، كما أنك لو قدرت أن يكون تشبيه الثريا بمنقود ملاحية حين نور ، بمنزلة تشبيهها بالنور على الإطلاق أو تفتح نور فقط كما قال :

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نور^(١)

حتى ترى حاجتهما إلى التأمل على مقدار واحد ، وحتى لا يحوج أحدهما من الرجوع إلى النفس وبحثها عن الصور التي تعرفها إلا إلى مثل ما يحوج إليه الآخر ، أسرفت في المجازفة ونقصت يداً بالصواب والتحقيق^(٢)

والعبرة الثانية أن مما يقتضى كون الشيء على الذكر ، وثبوت صورته في النفس أن يكثر دورانه على العيون ، ويدوم تردده في مواقع الأبصار ، وأن تدركه الحواس في كل وقت أو في أغلب الأوقات ، وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخطر ، وتعرض صورته في النفس قلة رؤيته ، وأنه مما يُحسُّ بالفيئة بعد الفيئة ، وفي الفرط بعد الفرط^(٣) وعلى طريق الندرة . وذلك أن العيون هي التي تحفظ صورة الأشياء على النفوس ، وتجدد عهدها بها ، وتحرسها من أن تدثر ، وتمنعها أن تزول ، ولذلك قالوا : من غاب عن العين فقد غاب عن القلب . وعلى المعنى كانت المدارس والمناظرة في العلوم ، وكروورها على الاسماع سبب سلامتها من النسيان ، والمانع لها من الغفلت والذهاب .

(١) البيت غير تام في الأصل .

(٢) قوله ونقصت يداً أى قدرت عليه .

(٣) الفيئة الحين والفرط الحين وأن تأتبه في بعض الأيام ولا يكون أكثر من

١٥ ولا أقل من ٣ (ش) :

وإذا كان هذا أمراً لا يشك فيه ، بان منه أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً ؛ فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب ، فهو أدنى وأنزل ، وما كان إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر .

واعلم أن قولنا « التفصيل » عبارة جامعة ، ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافاً . فأنت تنظر فيها واحداً واحداً ، وتفصل بالتأمل بعضها من بعض ، وقد أرتك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد ، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة . ثم إنه يقع على أوجه (أحدها) وهو الأول والأحق بهذه العبارة : أن تفصل بأن تأخذ بعضاً وتدع بعضاً ، كما فعل في الاله حين عزل الدخان عن السنا وجرده ، وكما فعل الآخر حين فصل الحديق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه وذلك قوله :

* لها حديق لم تتصل بجفون *

ويقع في هذا الوجه من التفصيل لطائف فمنها قول ابن المعتز :

يطارح النظرة في كل أفق ذى منسر أقنى إذا شك خرق
ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق^(١)

(١) ما أورده مختزل غير مرتب والأصل في الخروج بالبازي سحراً إلى الصيد وهو

غدوت في ثوب من الليل خلق بطارح النظرة في كل أفق
ذى منسر أقنى إذا شك خرق مختضب في كل يوم يعلق
وكل عظم مفصل إذا علق ومقلة تصدقه إذا رمق
كأنها نرجسة بلا ورق تنشب في الديباج حق يفتق

وقوله .

تكتب فيه أيدي المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق^(١)

(والثاني) أن تفصل بأن تنظر من المشبه في أموره لتعتبرها كلها وتطلبها فيما يشبه به ، وذلك كاعتبارك في تشبيهه الثريا بالعنقود الأنجم نفسها ، والشكل منها واللون ، وكونها مجتمعة على مقدار في القرب والبعد فقد نظرت في الأمور واحداً واحداً ، وجعلتها بتأملك فصلا فصلا ، ثم جمعتها في تشبيهك وطلبك للهيئة الحاصلة ، من عدة أشخاص الأنجم والأصناف التي ذكرت لك من الشكل واللون والتقارب على وجه مخصوص هيئة أخرى شبيهة بها ؛ فأصبحتها في العنقود المنور من الملاحية ، ولم يقع لك التشبيه بينهما إلا بأن فصلت أيضاً أجزاء العنقود بالنظر وعلمت أنها خصل بيض^(٢) وأن فيها شكل استدارة النجم ، ثم الشكل إلى الصفر ما هو ، كما أن شكل أنجم الثريا كذلك ، وأن هذه الخصل لا مجتمعة اجتماع النظام والتلاصق ، ولا هي شديدة الافتراق ، بل لها مقادير في التقارب والتباعد على نسبة قريبة مما تجده في رأى العين بين تلك الأنجم بذلك ، على أن

(١) الكلام في القدح وفي رواية « يكتب فيه كف المزاج » والتعريق من عرق الشراب كأعرقه إذا جعل فيه عرقاً من الماء بمعنى أنه مزجه ولم يبالغ فيه وعرق في الإناء جعله دون الماء وفي الدلو استسقى فيها دون الماء . وقبل البيت :

لا شيء يسلى همى سوى قدح تدمى عليه أوداج إبريق

(٢) الخصل جمع خصلة وهي بالفتح والضم العنقود والعامية تطلقها على الجزء يقطع من العنقود وعلى العنقود الصغير كالجزء .

التشبيه موضوع على مجموع هذه الأوصاف حتى أنا لو فرضنا في تلك الكواكب أن تفترق وتتباعداً تباعداً أكثر مما هي عليه الآن أو قدّر في العنقود أن ينثر لم يكن التشبيه بحاله .

وكذلك الحكم في تشبيه الثريا باللباح المفضض لأنك راعيت الهيئة الخاصة من وقوع تلك القطع والأطراف بين اتصال وانفصال ، وعلى الشكل الذي يوجبه موضوع اللبحام ، ولو فرضت أن تركيب مثلاً على سنن واحد طولاً في سير واحد مثلاً ، ويلصق بعضها ببعض بطل التشبيه وكذا قوله :

* تعرض أثناء الوشاح المفصل * (١)

وقد اعتبر فيه هيئة التفصيل في الوشاح والشكل الذي يكون عليه الخرز المنظوم في الوشاح فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل في التشبيه .

(والوجه الثالث) أن تفصل بأن تنظر إلى خاصة بعض الجنس كالتي تجدها في صوت البازي وعين الديك ؛ فأنت تأبى أن تمر على جملة أن هذا صوت وذاك حمرة ، ولكن تفصل فتقول فيهما ما ليس في كل صوت وكل حمرة .

واعلم أن هذه القسمة في التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف ، وإلا فدقائقه لا تسكاد تضبط ، فما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه ما كان

(١) عجز لامرئ القيس وصدره إذا ما الثريا في السماء تعرضت وقبله :

تجاوزت أحراساً وأهوال معشر على حراسا لو يسرون مقتلى
قال أبو عمرو الثريا لا تتعرض وإنما عنى الجوزاء . وقال ابن سلام الثريا تتعرض عند السقوط كما أن الوشاح إذا طرح تلقاك بناحية . وأثناء الوشاح جوانبه والمفصل الذي فصل ما بين كل خرزتين منه بلؤلؤة .

من التشبيه مركباً بين شيئين أو أكثر وهو ينقسم قسمين :

(أحدهما) أن يكون شيئاً بقدر المشبه وبصفته أو لا يكون ، ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد . لأنك في هذا النحو تحصل الشبه بين شيئين يقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم فقد حصله في النرجس من شكل المداهن والعقيق بشرط أن تكون المداهن من الدر وأن يكون العقيق في الحشو منها وكذلك اشترط هيئة الأعلام وأن تكون من الياقوت وأن تكون منشورة على رماح من زبرجد . فبك حاجة في ذلك إلى مجموع أمور لو أخللت بواحد منها لم يحصل الشبه وكذلك لو خالفت الوجه المخصوص في الاجتماع والانصال بطل الغرض فكما بك حاجة إلى أن يكون الشكل شكل المذهب وأن يكون من الدر وأن يكون معه العقيق فبك أيضاً فقر إلى أن يكون العقيق في حشو المداهن — وعلى هذا القياس .

و (القسم الثانى) أن تعتبر في التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين وذلك الاقتران مما يوجد ويكون . ومثاله قوله :

غدا والصبح نحت الليل باد كطريفٍ اشهب مُلقى الجلال

قصدَ الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعاً وتأملت حالهما معاً ، وأراد أن يأتى بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر ؛ ولم يرد أن يشبه الصبح على الانفراد والليل على الانفراد ، كما لم يقصد الأول أن يشبه الدائرة البيضاء من النرجس بمداهن الدر ثم يستأنف تشبيهها للثانية بالعقيق ، بل أراد أن يشبه الهيئة الحاصلة من مجموع الشكلين ، من غير أن يكون بينَ في البين ، ثم إن هذا الاقتران الذى وضع عليه التشبيه مما يوجد

ويعهد إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجبل من المعوز^(١) فيقال إنه مقصور على التقدير والوهم .

فأما الأول فلا يتعدى التوهم وتقدير أن يصنع ويعمل فليس في العادة أن تتخذ صورة أعلاها ياقوت على مقدار العلم وتحت ذلك الياقوت قطع مطاولة من الزبرجد كهيئة الأرماع والقامات ، وكذلك لا يكون ههنا مداهن تصنع من الدر ثم يوضع في أجوافها عقيق . وفي تشبيه الشقيق زيادة معنى تباعد^(٢) الصورة من الوجود وهو شرطه أن تكون أعلاماً منشورة والنشر في الياقوت وهو حبر لا يتصور موجوداً .

وبقى أن تعلم أن الوجه في إلقاء الجبل أن تريد أنه أداره عن ظهره وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده لأنه رمى به جملة حتى انفصل منه لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر في الليل ، ولم يشأ كل قوله في أول البيت « والصبح تحت الليل باد » .

وأما قوله :

إذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع في كتيب يضطرب
وتارة تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب

فلا شبه فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض الہلق دون أن يدخل لون الجبل في التشبيه حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق في سواد الغمام بل ينبغي أن يكون الغرض بذكر الجبل أن البرق

(١) الجبل للفرس والجمار بالضم وبالفتح ما يوضع على الظهر ليركب عليه جمعه جلال بالكسر وأجلال والمعوز اسم فاعل من أعوزه الشيء إذا احتاج إليه فلم يجد له أو لم يقدر عليه .

(٢) فعل مضارع فاعلة ضمير يعود إلى الزيادة .

يلمع بفتة ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كيباض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل
جله عنه . وقد قال ابن بابك في هذا المعنى :

للبرق فيها^(١) لمب طائش كما يعرى القرس الأبلق

إلا أن لقول ابن المعتز « حين وثب » من الفائدة مالا يخفى . وقد عني
المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ألا تراه قال :

وترى البرق عارضاً^(٢) مستطيلاً مَرَحَ البُلُق جُلُن في الإجلال
فجعلها تمرح وتجول ليكون قد راعى ما به يتم الشبه وهو معظم الغرض
من تشبيهه وهو هيئة حركته وكيفية لمعه .

ثم اعلم أن هذا القسم الثاني الذي يدخل في الوجود يتفاوت حاله
فمنه ما يتسع وجوده ومنه ما يوجد في النادر ويدين ذلك بالمقابلة فأتت إذا
قابلت قوله :

وكان أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

بقول ذي الرمة : « كأنها فضة قد مسها ذهب »^(٣) علمت فضل الثاني على
الأول في سعة الوجود وتقدم الأول على الثاني في غربته وقلته وكونه نادر الوجود
فإن الناس يرون أبدأ في الصياغات فضة قد أجرى فيها ذهب . وطلبت به ولا يكاد
يتفق أن يوجد در قد نثر على بساط أزرق .

فإذا عرفت انقسام المركب من التشبيه إلى هذين القسمين فاعتبر

(١) الضمير في فيها للسحابة .

(٢) من عرض إذا ظهر وبدا ولم يدم . كتب الثلاثة شيخنا في نسخة الدرس .

(٣) أول البيت : * كلاء في برج صفراء في نعبج *

والبرج بالتحريك أن يكون بياض العين محمداً بالسواد كله لا يغيب عن سوادها
شيء والنعبج البياض الخالص يريد أنه يشوب صفرتها بياض خالص وهو محمود عندهم .

موضعهما من العبرتين^(١) المذكورتين فإنك تراهما بحسب نسبتها منهن وتحقهما بهما قد أعطتاها لطف الغرابة ، ونفضتا عليهما صِبْغَ الحسن ، وكستاها روع الإعجاب ، فتجد المقدر الذي لا يباشر الوجود نحو قوله :

أعلامُ ياقوتٍ نشرُ نَ على رماح من زبرجد
وكقوله في النيلوفر :

كلنا ماسط اليد نحو نيلوفر ندى
كدبابيس عسجد قُضُّها من زبرجد

قد اجتمع فيه العبرتان جميعاً . وتجد العبرة الثانية^(٢) قد أتت فيه على غاية القوة لأنه لا مزيد في بعد الشيء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعاً أصلاً حتى لا يتصور إلا في الوهم . وإذا تركت هذا القسم ونظرت إلى القسم الثاني الذي يدخل في الوجود نحو قوله :

* درر نثرن على بساط أزرق *

وجدت العبرة الثانية لا تقوى فيه تلك القوة لأنه إذا كان مما يعلم أنه يوجد ويعهد بحال وإن كان لا يتسع بل ينذر ويقل ، فقد دنا من الوقوع في الفكر ، والتعرض للذكر ، دنوا لا يدنوه الأول الذي لا يطمع أن يدخل تحت الرؤية للزومه العدم ، وامتناعه أن يجوز عليه إلا التوهم ، ولا جرم لما كان الأمر كذلك كان للضرب الأول من الروعة والحسن ، ولصاحبه من الفضل في قوة الذهن ، ما لم يكن ذلك في الثاني . وقوى الحكم^(٣) بحسب قوة العلة ، وكثر الوصف الذي هو الغرابة بحسب الجالب له .

(١) هما العبرتان في سبب الغرابة وهما التفصيل وبعد الشيء عن العيون وغيبته عن الحس (ش) .

(٢) هي عبرة البعد عن النظر وقلة التردد عليه .

(٣) هو الحكم بالغرابة (ش) .

وفي هذا التقرير ما تعلم به الطريق إلى التشبيه من أين تفاوت في كونه غريبا ، ولم تفاضل في مجيئه عجيبا ، وبأى سبب وجدت عند شيء منه من الهزة ما لم تجده عند غيره ، علما يخرجك عن نقيصة التقليد ، ويرفعك عن طبقة المقتصر على الإشارة ، دون البيان والإفصاح بالعبارة .

واعلم أن العبرة الثانية التي هي مرور الشيء على العيون هو^(١) معنى واحد لا يتكرر ولكنه يقوى ويضعف كما مضى . وأما العبرة الأولى وهي التفصيل فإنها في حكم الشيء يتكرر وينضم فيه الشيء إلى الشيء . ألا ترى أن أحد التفصيلين يفضل الآخر بأن تكون قد نظرت في أحدهما إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات وفي الآخر إلى شيئين أو جهتين والمثال في ذلك قول الشاعر :

كأن مئثار النقع فوق رؤسنا وأسياقنا ليلٌ تهاوى كواكبها

مع قول المتنبي :

يزور الأعادي في سماء عجاجة أسنته في جانبيها الكواكب
أو قول عمر بن كلثوم :

تبني سناكبها من فوق رؤسهم سقفا كواكبها البيض المبائر

التفصيل في الأبيات الثلاثة كأنه شيء واحد لأن كل واحد منهم يشبه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل ، إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير في النفس مالا يقل مقداره ،

(١) ذكر الضمير مع أنه عائد إلى العبرة ومراعاة للخبر وهو مذكور مع الفاصل

بينه وبين مرجعه .

ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأنتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأعماد وهي تعلو وترسب ، وتجيء وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاجة كما فعل الآخرون . وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل . وذلك أنا وإن قلنا إن هذه الزيادة — وهي إفادة هيئة السيوف في حركاتها — إنما أتت في جملة لا تفصيل فيها فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن تعلم أن لها في حال احتدام الحرب ، واختلاف الأيدي بها في الضرب ، اضطراباً شديداً ، وحركات بسرعة ، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوال تنقسم تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة ، والارتفاع والانخفاض ، وإن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها في بعض ، ويصدم بعضها بعضاً . ثم إن أشكال السيوف مستطيلة ، فقد نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ثم احضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التشبيه وأكمله بكلمة وهي قوله (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في تهاويها تواقع وتداخل ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة .

ويشبه هذا الموضع في زيادة أحد التشبيهين مع أن جنسهما جنس واحد وتركيبهما على حقيقة واحدة بأن في أحدهما فضل استقصاء ليس في الآخر قول ابن المعتز :

وطاف بها ساق أديب بمزَل كخنجر عيار صناعته الفتك

وحمل آذريونة فوق أذنه ككأس عقيق في قرارتها مسك^(١)
مع قوله :

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية^(٢)
الأول ينقص عن الثاني شيئاً ، وذلك أن السواد الذي في باطن الآذريونة
الموضوع بإزاء الغالية والمسك^(٣) ، فيه أمران . أحدهما : أنه ليس بشامل
لها . والثاني : أن هذا السواد ليس صورته صورة الدرهم في قعرها ، أعنى أنه
لم يستدر هناك بل ارتفع من قعر الدائرة حتى أخذ شيئاً من سمكها^(٤) من كل
الجهات ، وله في منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية في جوانب المدهن إذا كانت

(١) قبل البيتين :

وقد حفيت من صفوها فكأنها بقايا يقين كاد يدركه الشك
والكلام في الخمر والمبزل كخبر ما يصفى به الشراب وهو شبه طي (الطي حلة
الضرع وهو بكسر الطاء وبضمها) في الدن ونحوه يتبزل منه الشراب أى يسيل والعيار
بتشديد الياء في أصل اللغة الذى يكثر الذهاب والحجىء والتطواف بغير عمل ، وغلب
على المتعرض للناس للسلب والفتك ، والآذريونة يأتى تفسيرها بعد .

(٢) قبل البيت :

سقى لروضات لنا من كل نور حاليه
عيون آذريونها للشمس فيها كاليه
وأصل كالية الحمز من -كلاه أى حفظه ومعنى كلاءة عيون الآذريون للشمس
أنها تستقبلها وتدور معها حيث دارت . والآذريون جمع آذريونة كتتمر وتمرة
وهي ورد له أوراق حمراء في وسطه سواد له نبو وارتفاع وقد يكون أصفر
واقصر عليه صاحب القاموس . ولاختلاف لونه يشبه بكأس من عقيق فيها مسك
كما قال « ككأس عقيق » البيت . وبمدهن من ذهب فيه شيء من الغالية وهي أخلاط
من الطيب .

(٣) أى المقصود بكل منهما .

(٤) السمك بالفتح القامة من كل شيء طويل ثخين وهو من أعلى البيت
إلى أسفله . ويطلق على السقف وحده ولا يصح هنا كما قاله شيخنا .

بقية بقيت عن الأصابع . وقوله : « في قرارتها مسك » . يبين الأمر الأول^(١) ، ويؤمن من دخول النقص عليه ، كما كان يدخل لو قال : « ككأس عقيق فيها مسك » . ولم يشترط أن يكون في القرارة .

وأما الثاني من الأمرين ، فلا يدل عليه كما يدل قوله : « بقايا غالية » . وذلك من شأن المسك والشيء اليابس ، إذا حصل في شيء مستدير في القعر لا يرتفع في الجوانب الارتفاع الذي تراه في سواد الآذريونة . وأما الغالية فهي رطبة ثم هي تؤخذ بالأصابع ، وإذا كان كذلك فلا بد في البقية منها من أن تكون قد ارتفعت عن القرارة وحصلت بقية شبيهة بذلك السواد ، ثم هي لنعمومتها ترق فتكون كالصبغ الذي لا جرم له يملك المسكان ، وذلك أصدق للتشبيه ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبة قول ابن المعتز :

كأننا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غراباً ذا قوادم جُون
شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاء ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع في حواشيهما من حيث يلي معظم الصبح وعموده لمع^(٢) نور يتخيل منها في العين كشكل قوادم^(٣) إذا كانت بيضاء . وتمام التدقيق والسحر في هذا التشبيه في شيء آخر وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى

(١) هو كونه ليس بشامل .

(٢) لمع جمع لمعة بالضم بمعنى البريق — وهي فاعل تلي معظم الصبح وقوله يتخيل منها الخ معناه يتشبه ويتراءى منها في العين مثل شكل القوادم .

(٣) قوادم الطير مقادير ريشه وهي عشرة في كل جناح الواحدة قادمة والجون بالضم جمع جون بالفتح وهو الأبيض والأسود (ضد) والمراد هنا البيض . شبه الليل الذي فيه تباشير الصبح بغراب له قوادم بيض .

ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل في حركتها . ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره في التشبيه آخراً فقال « نظير غرابا » ولم يقل غراب يطير مثلاً وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعاً حادثاً في مكان فازعج وأخيف وأطير منه أو كان قد حبس في يد أو قفص فأرسل كان ذلك لاحتالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمد له وأبعد لأمدته فإن تلك الفرعة التي تعرض له من تنفيره أو الفرحة التي تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعت به إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه العيون وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وأن لا يسرع في طيرانه بل يمشى على هيئة ويتحرك حركة غير المستعجل فاعرفه .

ومما حقه أن يكون على فرط الاستقصاء في التشبيه وفضل العناية بتأكيد ما بدا به قول ابن فارس في صفة البازي^(١) .

كَأَنَّ عَيْنِيهِ إِذَا مَا أَثَارَا فَصَّانَ قِيضًا مِنْ عَتِيقٍ أَحْمَرَا
فِي هَامَةِ غُلْبَاءَ تَهْدِي مَنْسَرًا كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفٍ اعْسَرَا^(٢)

أراد أن يشبه المنقار بالجم ، والجم خيطان الأول الذي مبدأه وهو الأعلى والثاني وهو الذي يذهب إلى اليسار وإذا لم توصل فلها تعريق^(٣) كما لا يخفى والمنقار إنما يشبه الخط الأعلى فقط فلما كانت كذلك قال « كعطفة

(١) الأبيات لأبي نواس كما ذكره أبو هلال العسكري وغيره .

(٢) أثار : أدرك ثأره . وقبضا شقا . وغلباء قوية . والمنسر كجلس ومنبر منقار الطير الجارح .

(٣) تعريق الجم أن يعطف بالخط الأسفل إلى اليمين على هيئة قوس هكذا (كما هو الشأن دائماً في الجم المفردة ، وعطفته وهي الخط الأعلى التي تشبه المنسر فهكذا ج .

الجيم « ولم يقل كالجيم ثم دقق بأن جعلها بكف اعسر لأن جيم الأعسر قالوا أشبه بالمتنار من جيم الأيمن . ثم إنه أراد أن يؤكد أن الشبه مقصور على الخط الأعلى من شكل الجيم فقال :

يقول من فيها بعقل فكرياً لو زادها عيناً إلى فاء ورا

فاتصلت بالجيم صارت جعفرأ

فأراك عياناً أنه عمد في التشبيه إلى الخط الأول من الجيم دون تعريقها ودون الخط الأسفل . أما أمر التعريق وإخراجه من التشبيه فواضح لأن الوصل يسقط التعريق أصلاً . وأما الخط الثاني فهو وإن كان لابد منه مع الوصل فإنه إذا قال « لو زادها عيناً إلى فاء ورا » ثم قال « فاتصلت بالجيم » فقد بين أن هذا الخط الثاني خارج أيضاً من قصده في التشبيه من حيث كانت زيادة هذه الحروف ووصلها هي السبب في حدوثه . وينبغي أن يكون قوله « بالجيم » يعني بالمعطفة المذكورة من الجيم ولأجل هذه الدقة قال : « يقول من فيها بعقل فكرياً » فهذا لما أراد أن يقول ونبه على أن بالمشبه حاجة إلى فضل فكر وأن يكون فكره فكرياً من يراجع عقله ويستعينه على تمام البيان .

وجملة القول أنك متى زدت في التشبيه على مراعاة وصف واحد أو جهة واحدة فقد دخلت في التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلف المنازل في الفضل بحسب الصورة في استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد .

فصل

اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحرا أن يجيء في الهيآت التي تقع عليها الحركات . والهيئة المقصودة في التشبيه على وجهين أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما . والثاني أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها فن الأول قوله :

* والشمس كالمرآة في كف الأشل *

أراد أن يريك مع الشكل الذي هو الاستدارة ، ومع الإشراق والتلاؤ على الجملة الحركة التي تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة وذلك أن للشمس حركة متصلة دائمة في غاية السرعة وانورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة في يد الأشل لأن حركته تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرآة لا تقر في العين وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب الذي كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتنفذ البصر حتى تتبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها فإنك ترى شعاعها كأنه يهيم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذي بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط . وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس فضلاً عن أن تسكمل العبارة لتأديته ويبلغ البيان كأنه صورته .

ومثل هذا التشبيه وإن صور في غير المرآة قول المهلبى الوزير :

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقة ليس لها حاجب

كأنها بُوتقة أحيت يحول فيها ذهب ذائب^(١)

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بأشكال البوتقة على النار فإنه يتحرك فيها حركة على الحد الذي وصفت لك . وما في طبع الذهب من النعومة وفي أجزائه من شدة الانصال والتلاحم يمنعه أن يقع فيه غليان على الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعاً شديداً ولكن جملة كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرت من انبساط إلى الجوانب ثم انقباض إلى الوسط فأعرفه .

ومن عجيب ما جمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبري :

كأن في غدرانها حواجباً ظلت تمط^(٢)

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من المحنائها وتحذبها كما تباعد بين طرفي القوس وتثنيهما إلى ناحية الظهر كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل القوس الذي هو إقبال أحد طرفيها على الآخر ومتى حدثت هذه الصفة في تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران كانت أشبه شيء بالحواجب إذا مدت لأن الحاجب لا يخفى تقويسه ومدّه ينقص من تقويسه .

ومن لطيف ذلك أيضاً أعنى الجمع بين الشكل وهيئة الحركة قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض :

(١) الحاجب المانع من الإشراق والبوتقة ما يذيب الصائغ فيه الذهب والفضة .

(٢) تمط على البناء للمفعول ومعناه تمد — يصف أرضاً بالطيب فيقول فيها

غدران يهب عليها الريح فيبدو على صفحات غدرانها أشكال كأنها حواجب لها قوس وامتداد .

بكرت تعبى الأرض ثوب شباب رحيبة^(١) محمودة الإسكاب
نثرت أوائلها حياً فكأنه نقط على عجل بيطن كتاب

وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون في الجسم ، فيقع فيها نوع من التركيب ، بأن يكون للجسم حركات في جهات مختلفة ، نحو أن بعضها يتحرك إلى يمين ، والبعض إلى شمال ، وبعض إلى فوق ، وبعض إلى قدام ، ونحو ذلك ، وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد ، كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر . فحركة الرجا والدولاب وحركة السهم لا تركيب فيها ، لأن الجهة واحدة ، ولكن في حركة المصحف في قوله : « فانطباقاً مرة وانفتاحاً » . تركيب لأنه في إحدى الحالتين يتحرك إلى جهة غير جهته في الحالة الأخرى . فما جاء في التشبيه معقوداً على تجريد هيئة الحركة ثم لطف وعرف لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة في البحر وتقاذف الأمواج بها .

تقص السفين بجانبيه كما ينزو الريح خلال كرع^(٢)

الرياح الفصيل وقيل القرد ، والكرع ماء السماء شبه السفينة في انحدارها

(١) قال شيخنا قد تكون نسبة إلى الرحبة محركة ومسكنة الوسط بمعنى مسيل ماء الوادى .

(٢) تقص السفين أى تشب والنزو الوثوب وتوقصت الركاب نزت ووثبت والرياح كرمات ويخفف القرد أو الفصيل والكرع بالتحريك الماء الذى يكرع فيه وكان حق التعبير « خلال الكرع » ولكنه اعتمد على فهم السامع فجعل الكرع خلال القرد أو الفصيل وهذا على رواية بعض من ضبطه في الشواهد بكسر الحاء على أنه « خلال » مضاف أما المصنف فقد رواه بفتح الحاء على أن خلا فعل ماض وله جار ومجرور متعلق به .

وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه ، وذلك أن الفصيل إذا نزا — ولا سيما في الماء ، وحين يعتريه ما يعتري المهر ونحوه من الحيوانات التي هي في أول النشء — كانت له — حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه في جهات مختلفة ، ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين في الأخرى فلا يثبتته^(١) الطرف مرتفعاً حتى يراه منحطاً متسفلاً ، ويهوى مرة نحو الرأس ، ومرة نحو الذنب ، وذلك أشبه شيء بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج .

ونظيره قول الآخر يصف الفصيل وهو يثب على الناقة ويعلوها ويلقى نفسه عليها ، لأنها قد بركت فلا يتمكن من أن يرتضع فهو يفعل ذلك لتثور الناقة :

يقتاعها كل فصيل مكرم كالحبشى يرتقى في السلم

(يقتاعها) يفتعل ، من قولهم قاع البعير الناقة إذا ضربها ، يقوعها قوعاً أراد يعلوها ويثب عليها ، وشبهه بالحبشى في هذه الحالة المخصوصة لما يكون له عند ارتفاعه في السلم من تصعد بعض أعضائه وتسفل بعض ، على اضطراب مفرط وغثارة شديدة^(٢) . وذلك كما ترى في أنه اختلاف في جهات أبعاد الجسم على غير نظام مضبوط كحركات الفصيل في الماء وقد خلا له . وقد عرفت أن الاختلاف في جهات الحركات الواقعة في أبعاد الجسم كالتركيب بين أوصاف مختلفة ليحصل من مجموعها شبه خاص .

(١) أثبتته عرفه حق المعرفة .

(٢) كأنه أراد الجهل والحق لاعتبارهما بل باعتبار ما يصدر عنهما وهو شدة الاضطراب في هجنة . والأغثر الجاهل والأحق والغثرة بالتحريك والغثراء الجماعة المختلطة (ش) .

واعلم أن هذه الجهات يغلب عليها الحكم المستفاد من العبرة الثانية . وذلك أن كل هيئة من هيئات الجسم في حركاته إذا لم يتحرك في جهة واحدة فمن شأنها أن تقل وتغز في الوجود فيباعدها ذلك أيضاً من أن تقع في الفكر بسرعة زيادة مباعده مضمومة إلى ما يوجب حديث التركيب والتفصيل فيها . ألا ترى أن الهيئة التي اعتمدها في تشبيه البرق بالمصحف ليست تكون إلا في النادر من الأحوال وبعد عمد من الإنسان وخروج عن العادة ومقصد خاص أو عيب غالب على النفس غير معتاد وهكذا حال التفصيل في وثوبه على أمه ليثيرها وانسياقه في الماء ونزوه كما توجبه رؤيته الماء خالياً وطباع الصغير والفصيلة^(١) مما لا ترى الا نادراً . وليس الأمر في هذا النحو كالأمر في حركة الدولاب والرحا والسهم ونحو ذلك من الحركات المعتادة التي تقع في مصارف العيون كثيراً .

ومما يقوى فيه أن يكون سبب غرابته قلة رؤية العيون له ما مضى من تشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل وذلك أن الهيئة التي تراها في حركة المرآة إذا كانت في كف الأشل مما ترى نادراً في الأقل فربما قضى الرجل دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة في يد مرتعش . هذا — وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرآة في يد الأشل فقط بل النكته المقصودة فيما يتولد من دوام تلك الحركة من الالتماع وتموج الشعاع وكونه في صورة حركات من جوانب الدائرة إلى وسطها وهذه صفة لا تقوم في نفس الرأي المرآة الدائمة الاضطراب إلا أن يستأنف تأملاً ، وينظر مثبتاً في نظره متمهلاً ، فكأن ههنا هيئتين كلتاهما من هيآت الحركة . إحداها حركة المرآة على الخصوص الذي يوجه ارتعاش اليد .

(١) الفصيلة أنثى التفصيل .

والثانية حركة الشعاع واضطرابه الحادث من تلك الحركة . وإذا كان كون المرآة في يد الأشل مما ترى نادراً ثم كانت هذه الصفة التي هي كائنة في الشعاع إنما ترى وتدرك في حال رؤية حركة المرآة بجهد وبعد استئناف أعمال للبصر فقد بعدت عن حد ما يعتاد رؤيته مرتين ، ودخلت في النادر الذي لا تألفه العيون من جهتين ، فأعرفه .

واعلم أنه كما تعتبر هيئة الحركة في التشبيه فكذلك تعتبر هيئة السكون على الجملة وبحسب اختلافه نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك . فإذا وقع في شيء من هيئات الجسم في سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن . فن ذلك قول ابن المعتز يصف سيلاً :

فلما طفا ماؤه في البلاد وغصّ به كل واد صد^(١)
نرى الثور في متنه طافيا كضبعة ذى التاج في المرقد
وكقول المتنبي في صفة الكلب : * يُقعى جلوسَ البدوى المصطفى^(٢) فقد
فقد اختص هيئة البدوى المصطفى في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها
فيها^(٣) ولم ينل التشبيه حظاً من الحسن إلا بأن فيه تفصيلاً من حيث كان لكل
عضو من الكلب في إقامته موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات في حكم أشكال
مختلفة تؤلف فتجىء منها صورة خاصة .

(١) في نسختنا * وغص به فارصد * وفي نسخة الأستانة « كل قاد قصد »
وفي نسخة الديوان التي في مصر « كل راء صد » والصواب أنها « وغص به كل واد
صد » والصدى الظمان .

(٢) تمامه : « بأربع مجدولة لم تجدل » .

(٣) أى مواقع الأعضاء في تلك الهيئة « ش »

ومن لطيف هذا الجنس قوله في صفة المصلوب^(١) .

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل

ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل . ولو قال كأنه متمط من نعاس
واقتصر عليه كان قريباً من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر يقع في نفس الزائى
المصلوب لكونه من حد الجملة . فأما بهذا القيد وعلى هذا التقييد الذى يفيد به
استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من انماطر وقوة من التأمل وذلك
لحاجته أن ينظر إلى غير جهة فيقول هو كالمتمطى ثم يقول المتمطى يمد ظهره ويده
مدة ثم يعود إلى حالته فيزيد فيه أنه مواصل لذلك ، ثم إذا أراد ذلك طلب
علته وهى قيام اللوثة والكسل فى القائم من النعاس . وهذا أصل فيما يزيد به
التفصيل وهو أن يثبت فى الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له
علة وسبب .

ويشبه التشبيه فى البيت قول الآخر وهو مذكور معه فى الكتيب :

لم أر صفاً مثل صفِّ الزُّطِّ تسعين منهم صلبوا فى خط^(٢)

(١) يقول بعض شراح الشواهد : إن البيتين الأخطل فى صفة مصلوب .

(٢) الزُّط طائفة من أهل الهند معرب « بت » تنسب إليهم الثياب الزطية .
وقوله من كل عال أى ان ذلك الخط مؤلف من أشجار عالية الجذوع كل واحد على
جذع شجرة وبالشط صفة لعال جذعه . والضمير فى « كأنه » للواحد من المصلوبين
فى جذعه أى الجذع الذى صلب عليه . والمشتط — الخارج عن الحد فى طوله والخامرة
المخالطة والنوم فاعل خامس والمفعول ضمير محذوف يرجع على المصلوب فإن نصب النوم
فالفاعل ضمير يعود إليه . وغط النائم نحر وتردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه
من حوله وللبعض شراح الشواهد تعسف فى معنى الأبيات لا حاجة إلى ذكره .

من كل عال جذعه بالشط كأنه في جذعه المشتط
أخو نعاس جد في التمطى قد خامر النوم ولم يغط
فقوله « جد في التمطى » شرط يتم التشبيه كما أن قوله « مواصل » كذلك
إلا أن في اشتراط المواصلة من الفائدة ما ليس في هذا . وذاك أنه يجوز أن يبالغ
ويجتهد ويجد في تمطيه ثم يدع ذلك في الوقت ويعود إلى الحالة التي يكون عليها
في السلامة مما يدعو^(١) إلى التمدد . وإذا كان كذلك كان المستفاد من هذه
العبارة^(٢) صورة التمطى وهيئته الخاصة وزيادة معنى وهو بلوغ الصفة غاية ما يمكن
أن يكون عليها . وهذا كله مستفاد من الأول ثم فيه^(٣) زيادة أخرى وهو أخص
ما يقصد من صفة المصلوب وهي الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها فأما قوله بعد :
« قد خامر النوم ولم يغط » فهو إن كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من
حيث يقال إنه إذا أخذ النعاس فتمطى ثم خامر النوم فإن الهيئة الحاصلة له من
جده في التمطى تبقى له فليس يبالغ مبالغ قوله « مواصل لتمطيه » وتقييده من بعد
بأنه « من الكسل » واحتياطه قبل بقوله « فيه لوثته » .

وشبيه بالأول في الاستقصاء قول ابن الرومي :

كأن له في الجو حبلاً يبوعه إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل^(٤)
يعانق أنفاس الرياح مودعاً وداع رحيل لا يحط له رحل
فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذي ينتهى ذرعه حبل آخر يخرج
من بوع الأول إليه كقوله « مواصل لتمطيه من الكسل » في استيفاء

(١) مما يدعو متعلق بالسلامة .

(٢) أى عبارة الأبيات .

(٣) أى في الأول — الثلاثة عن شيخنا .

(٤) يبوعه يقيسه بالباع كما أن يذرعه يقيسه بالذراع .

الشبه والتنبيه على استدامته لأنه إذا كان لا يزال يبيع حيلة لم يقبض باعه ولم يرسل يده . وفي ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال فأعرفه .

واعلم أن من حقت أن لا تضع الموازنة بين الشبهين في حاجة أحدهما إلى زيادة من التأمل على وقتنا هذا ، ولكن تنظر إلى حالهما في قوى العقل ولم تسمع بواحد منهما ، فتعلم أن لو أرادهما مريد واتفقا له جميعاً ولم يكن قد سمع بواحد منهما أيهما كان يكون أسهل عليه ، وأسرع إليه ، وأعطى يديه وأيهما تجده أدل على ذكاء من يسمعه منه ، وأرجى ليخرج من تقوله^(١) وذلك أن تقابل بين تشبيه النجوم بالمصابيح والمصابيح بها وبين تشبيه سل السيوف بعقائق البرق وتشبيهها بسل السيوف ، فإنك تعلم أن الأول يقع في نفس الصبي أول ما يحس بنفسه وأن الثاني لا يجيب إجابته ، ولا يبذل طاعته ، وكذلك تعلم أن تشبيه الثريا بنور العنقود لا يكون في قرب تشبيهها بفتح النور ، وأن تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة كما مضى يقع في نفس الغر^(٢) العامى والصبي ، ولا يقع تشبيهها بالمرآة في كف الأشل إلا في قلب الحصيف^(٣) وتشبيهها في حركتها تلك بمرآة تضطرب على الجملة من غير أن تجعل في كف الأشل قد يقع لمن لا يقع له بهذا التقييد ، وذلك لما مضى من حاجته إلى الفكرة في حال الشمس وأن حركتها دائمة متصلة ، ثم طلب متحرك حركة غير اختيارية ، وجعل المرآة صادرة عن تلك الحركة ومأسورة في حكمها دائماً ، وإنما اشترط عليك هذا الشرط لأنه لا يمتنع أن يسبق الأول إلى تشبيه لطيف يحسن تأمله ويدل على ذكائه وحده خاطره ثم يشيع ويتسع

(١) القول الابتداع وأصله في الكذب ولكنه يراد منه الاختراع الحسن .

(٢) الغر بالكسر من لا تجربة له من شاب وشابة .

(٣) الحصيف هو القوى العقل الجيد الرأي .

ويذكر ويشهر حتى يخرج إلى حد المبتذل وإلى المشترك في أصله ، وحتى يجرى مع دقة تفصيل فيه مجرى الجمل الذي تقوله الوليدة الصغيرة والعجوز الورهاء^(١) فإنك تعلم أن قولنا « لا يُشَقُّ غباره » الآن في الابتذال كقولنا لا يلحق ولا يدرك وهو كالبرق ونحو ذلك . إلا أنا إذا رجعنا إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن قضى زماناً بطراءة الشباب وجِدَّة الفتياء وبعزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه ، لعرفت كيف يَشُقُّ مطلبه ، ويصعب تناوله . ومثل هذا وأظهر منه أمراً أن قولنا « أما بعد » منسوب في الأصل إلى واحد بعينه وإن كان الآن في البذلة^(٢) كقولنا : هذا بعد ذاك — مثلاً .

وهكذا الحكم في الطرق التي ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التي نلخصها المتقدمون ، والقوانين التي وضعوها حتى صارت في الاشتراك كالشيء المشترك من أوله ، والمبتذل الذي لم يكن الصون من شأنه ، والمبتذل الذي لم يعترض دونه المنع في شيء من زمانه ، ورب نفيس جُلب إليك من الأمكنة الشاسعة ، ورُكب فيه النوى الشطون^(٣) وقُطع به عرض الفياfi^(٤) ثم أخفى عنك فضله ، حتى جهلت قدره أن سهل مرامه ، واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى تحتاج إلى طلبه من مَظِنَّته لعلمت إحسان الجائي به إليك ، والجالب المقرب نيله عليك ، ولأكثر من شكره بعد أن أقلت ، وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت ، وكذلك

(١) الورهاء الجمعاء .

(٢) البذلة بالكسر ما يستعمل من الثياب في عامة الأوقات وينزع عند إرادة الزينة .

(٣) الشطون بالفتح البثر البعيدة القمر وهو بالضم مصدر شطنت الدار إذا بمدت .

(٤) الفياfi جمع ففاء وتقصر وهي المسكان المستوى .

رُبَّ شَيْءٍ نَالَ فَوْقَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ شَغْفِ النُّفُوسِ بِهِ ؛ وَأَكْثَرُ مِمَّا تَوْجِبُهُ الْمَنَافِعُ الرَّاجِعَةُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ^(١) لَا يَتَسَمَّعُ اتِّسَاعَ الْأَوَّلِ الَّذِي فَوَائِدُهُ أَعْمُ وَأَكْثَرُ ؛ وَوُجُودُ الْعَوَضِ عَنْهُ عِنْدَ الْفَقْدِ أَعْسَرُ ، فَكَسَبَتْ عِزَّةُ الْوُجُودِ هَذَا عِزًّا لَمْ يَسْتَحِقُّهُ بِفَضْلِهِ ، كَمَا مَنَعَتْ سَعَةِ الْآخِرِ فَضْلًا هُوَ ثَابِتٌ لَهُ فِي أَصْلِهِ .

وَيَتَصَلُّ بِهَذَا الْمَوْضِعِ حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَجَعَ إِلَى أَبِيهِ حَسَّانَ وَهُوَ صَبِيٌّ يَبْكِي وَيَقُولُ « لَسَعْنِي طَائِرٌ » فَقَالَ حَسَّانُ صَفِّهِ يَا بَنِي فَقَالَ كَأَنَّهُ مُلْتَفٌّ فِي بُرْدَى حَبْرَةٍ^(٢) وَكَانَ لَسَعَهُ زَنْبُورٌ فَقَالَ حَسَّانُ : قَالَ ابْنِي الشَّعْرُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ^(٣) أَفَلَا تَرَاهُ جَعَلَ هَذَا التَّشْبِيهَ مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى مَقْدَارِ قُوَّةِ الطَّبْعِ ، وَيَجْعَلُ عِيَارًا فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الذَّهْنِ الْمُسْتَعِدِّ لِلشَّعْرِ وَغَيْرِ الْمُسْتَعِدِّ لَهُ ، وَسَرَّهُ ذَلِكَ مِنْ ابْنِهِ كَمَا سَرَّهُ نَفْسَ الشَّعْرِ حِينَ قَالَ فِي وَقْتٍ آخَرَ : اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ مُنْتَبِذًا فِي دَارِ حَسَّانَ اصْطَادَ الْيَعَاسِيَّيَا^(٤)

(فَإِنْ قُلْتَ) إِنْ التَّشْبِيهَ يَتَصَوَّرُ فِي مَكَانِ الصَّبْغِ وَالنَّقْشِ الْعَجِيبِ وَلَمْ يَعْجَبْ حَسَّانُ هَذَا وَإِنَّمَا أَعْجَبَهُ قَوْلُهُ « مُلْتَفٌّ » وَحَسَنُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ إِذْ لَوْ قَالَ : طَائِرٌ فِيهِ كَوْشَى الْحَبْرَةِ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ هَذَا الْمَوْقِعُ فَهُوَ إِنْ يَكُنْ مُشَبَّهًا مَا أَنْتَ فِيهِ فَمِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى الْفُطْنَةِ فِي الْجُمْلَةِ (قِيلَ) مُسَلِّمٌ لَكَ أَنَّ نَكْتَةَ الْحَسَنِ فِي

(١) هَذَا تَعْلِيلٌ لِنَيْلِهِ فَوْقَ مَا يَسْتَحِقُّهُ وَهُوَ عَدَمُ اتِّسَاعِهِ وَاتِّشَارِهِ كَمَا انْتَشَرَ الْأَوَّلُ .

(٢) الْبُرْدُ — وَزَانُ قَفْلٍ — ثَوْبٌ مَخْطُوطٌ . وَالْحَبْرَةُ وَزَانُ عُنْبَةٍ ضَرْبٌ مِنْ بُرُودِ الْيَمَنِ .

(٣) هَذِهِ الْكَلِمَةُ حُجَّةٌ عَلَى الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الشَّعْرَ بِأَنَّهُ كَلَامٌ مُقْفًى مُوزُونٌ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي مَفْهُومِهِ التَّخْيِيلَ وَقَصْدُ التَّأْثِيرِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الشَّعْرِ وَمِثْلُ هَذَا تَعْرِيفُهُمُ الصَّلَاةَ بِأَتْيَاقِهَا وَأَفْعَالَهَا وَلَمْ يَذْكُرُوا خُشُوعَ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ رُوحُهَا وَهَكَذَا اكْتَفَوْا بِالصُّورِ الظَّاهِرَةِ دُونَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَةِ حَتَّى أَضَعْنَا الدِّينَ وَاللُّغَةَ .

(٤) الْإِنْتِبَازُ هُنَا التَّنْحِي وَالْيَعَاسِيَّيَا جَمْعُ يَعْسُوبٍ ضَرْبٍ مِنَ الْحَبْلَانِ « جَمْعُ حَبْلٍ » وَطَائِرُ أَصْغَرِ مِنَ الْجَرَادَةِ أَوْ أَعْظَمُ لَا يَضُمُّ جَنَاحَهُ إِذَا وَقَعَ نَشَبَهُ بِهِ الْحَيْلُ فِي الضَّمْرِ .

فوله ملتف ولكن لا يسلم أنه خارج من الغرض بل هو عين المراد من التشبيه وتماه فيه . وذلك أنه يفيد الهيئة الخاصة في ذلك الوشى والصبغ وصورة الرنبور في اكتسائه بهما ويؤدي الشبه كما مضى من طريق التفصيل دون الجملة ، فما ظننت أنه يبعده عما نحن بصدده هو الذي يدنيه منه ، ولقد نفيت العيب من حيث أردت إثباته .

فصل

في التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب

اعلم أني قد قدمت بيان المركب من التشبيه وههنا ما يذكر مع الذي عرفت أنك أنه مركب ويقرن إليه في الكتب وهو على الحقيقة لا يستحق صفة التركيب ولا يشارك الذي مضى ذكره في الوصف الذي كان له تشبيهاً مركباً وذلك أن يكون الكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة إلا أن أحدهما لا يداخل الآخر في الشبه ومثاله قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى
وذلك أنه لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالاً وإنما أراد اجتماعاً في مكان فقط . كيف ولا يكون لمضامة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها ، أو يُعنى بأمرها ، كما يكون ذلك لتباشير الصبح في أثناء الظلماء ، وكون الشقيقة على قامتها الخضراء ، فيؤدي ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخر واتصاله به اجتماع الحشف البالى والعناب ، كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما في مكان

واحد . ولو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطوبة كذلك في ناحية أخرى لكان التشبيه بحاله . ولذلك لو فرقت التشبيه ههنا فقلت كأن الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال لم تر أحد التشبيهين موقوفاً في الفائدة على الآخر . وليس كذلك الحكم في المركبات التي تقدمت .

وقد يكون في التشبيه المركب ما إذا فضضت تركيبه وجدت أحد طرفيه يخرج عن أن يصلح تشبيهاً لما كان جاء في مقابله مع التركيب . بيان ذلك أن الجلال في قوله « كطارف أشهب ملقى الجلال » في مقابلة الليل وأنت لو قلت : كأن الليل جلال ، وسكت لم يكن شيئاً .

وقد يكون الشيء منه إذا فض تركيبه استوى التشبيه في طرفيه إلا أن الحال تتغير ومثال ذلك قوله :

وكان أجرام النجوم لواهما درر نثرن على بساط أزرق

فأنت وإن كنت إذا قلت كأن النجوم درر وكان السماء بساط أزرق وجدت التشبيه مقبولاً معتاداً مع التفريق فإنك تعلم بعد ما بين الحالتين ، ومقدار الإحسان الذي يذهب من العين ، وذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئة التي تملأ النواظر عجباً ، وتستوقف العيون وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى : من طلوع النجوم مؤتلفة مفترقة في أديم السماء وهي زرقاء وزرقنها الصافية التي تخدع العين والنجوم تلاًلاً وتبرق في أثناء تلك الزرقة . ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه وأزالت عنه الجمع والتركيب ؟ وهذا أظهر من أن يخفى .

وإذا قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ما كان من التركيب في صورة بيت امرئ القيس فإنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ

وحسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه . ونظيره أن للجمع بين عدة تشبيهات في بيت كقوله :

بدت قرأً وماست خوط بان وفاحت عنبراً ورنّت غزالا

مكاناً من الفضيلة مرموقاً ، وشأوا ترى فيه سابقاً ومسبوقاً ، لا أن حقائق التشبيهات تتغير بهذا الجمع ، أو أن الصور تتداخل وتتركب وتأتلف ائتلاف الشكاين يصيران إلى شكل ثالث ، فكون قدها كخوط البان ، لا يزيد ولا ينقص في شبه الغزال حين ترنو منه العينان . وهكذا الحكم في أنها تفوح فوح العنبر ، ويلوح وجهها كالقمر . وليس كذلك بيت بشار « كأن مثار النقع » لأن التشبيه هناك كما مضى مركب وموضوع على أن يريك الهيئة التي ترى عليها النقع المظلم والسيوف في أثنائه تبرق وتومض ، وتعلو وتنخفض ، وترى لها حركات من جهات مختلفة كما يوجهه الحال حين يحمى الجلاد ، وترتكض بفرساتها الجياد ، كما أن قول رؤبة مثلاً :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنها في الجلد توليع البهق^(١)

ليس القصد فيه أن يريك كل لون على الانفراد وإنما القصد أن يرى الشبه من اجتماع اللونين . وقول البحتري :

ترى احبجاله يصعدن فيه صعود البرق في الغيم الجهام^(٢)

لا يريد به تشبيه بياض الحبول على الانفراد بالبرق بل المقصود الهيئة

(١) أذكر أن الزمخشري أورده في تفسير سورة يس شاهداً على رجوع ضمير المذكور إلى المؤنث بتأويل ما ذكر حيث رواء كأنه في الجلد الخ وهما روايتان . والتوليع استطانة البلق . والبهق حركة بياض رقيق في البشرة .

(٢) الجهام . السحاب لاء فيه يصعدن فيه أى في القوس المحجل .

الخاصة الحاصلة من مخالطة أحد اللونين الآخر ، كذلك اللون المقصود في بيت بشار بتشبيه النقع بالليل من جانب ، والسيوف بالكواكب من جانب ، ولذلك وجب الحكم كما كنت ذكرت في موضع بأن الكلام إلى قوله « وأسيفنا » في حكم الصلة للمصدر وجار مجرى الاسم الواحد لثلا يقع في التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : كأن مثار النقع ليل وكأن السيوف كواكب . ونصب الأسيف لا يمنع من تقدير الاتصال ولا يوجب أن يكون في تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » كقوله : « فإني وقيار بها لغريب » وقوله « كل رجل وضعته » وهي إذا كانت بمعنى مع لم يكن في معطوفها الانقطاع وأن يكون الكلام في حكم جملتين ألا ترى أن قولهم « لو تركت الناقة وفصيلها لوضعها » لا يكون بمنزلة أن تقول لو تركت الناقة ولو ترك فصيلها فتجعل الكلام جملتين . وكذا لا يمكنك أن تقول كل رجل كذا وضعته كذا ، فتفرق الخبر عنهما ، كما يجوز في قولك زيد وعمرو كريمان ، أن تقول : زيد كريم وعمرو كريم . وهذا موضع غامض والكلام فيه موضع آخر : وإن أردت أن تزداد تبيناً لأن التشبيه إذا كان معقوداً على الجمع دون التفريق كان حال أحد الشئيين مع الآخر حال الشئ في صلة الشئ وتابعاً له ومبنيّاً عليه حتى لا يتصور إفراده بالذكر فالذي يفضى بك إلى معرفة ذلك^(١) أنك تجد في هذا الباب ما إذا فرق لم يصلح للتشبيه بوجه كقوله :

كأنما المِريخ والمشتري قدامه في شامخ الرفعه
منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجت قدامه شمعة

(١) جملة فالذي جواب أن .

لو قلت كان المريح منصرف بالليل عن دعوة وتركت حديث المشتري والشمعة كان خلفاً من القول . وذلك أن التشبيه لم يكن للمريح من حيث هو نفسه ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشتري أمامه . وأنت وإن كنت تقول المشتري شمعة على التشبيه العامي الساذج في قولهم كأن النجوم مصابيح وشموع فإنه لم يضع التشبيه على هذا وإنما قصد الهيئة التي يكتسبها المريح من كون المشتري أمامه . وهكذا قول ابن المعتز :

كأنه وكان الكأس في فمه هلالٌ أول شهر غاب في شفق
لم يقصد أن يشبه الكأس على الانفراد بالهلال والشفقة بالشفق بل أراد أن يشبه مجموع الصورتين ، ألا ترى أنك لو فرقت لم تحك من التشبيه بطائل ؟^(١) إذ لا معنى لأن تقول : كان الشفقة شفق ، ونسكت ألا ترى أن قوله :

بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الحدود
لم يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامي وأن يقال قد زاد زيادة لم يسبق إليها إلا بالتركيب والجمع ، وبأن ترك أن يراعى الحمرة وحدها ؟ . وقال القاضي أبو الحسن رحمه الله لو اتفق له أن يقول : احمرار في جوانبه بياض ، لكان قد استوفى الحسن وذلك لأن خد الخجل هكذا يمدق البياض فيه بالحمرة لا الحمرة بالبياض ، إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك في الورد فشبّه على طريق العكس فقال هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك . فانظر الآن إن فرقت كيف يتفرق عنك الحسن والإحسان ، ويحضر العي ويذهب البيان ، لأن تشبيه البياض على الانفراد لا معنى له ،

(١) في الأساس . ما حليت بطائل منه : بفائدة اه وهو من حليت المرأة (كرضيت) استفادت حلياً أو لبسته فهي حال وحالية .

وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة ، أعنى تشبيه الورد الأحمر بالحد ، فإنه يفسد من حيث إن المصدر إلى جنس من الورد مخصوص وهو ما فيه بياض يمدق به حمرة . فيجب أن يكون وصف المشبه به على هذا الشرط أيضاً .

وبهذا الاختصاص وكما ذكرت لك تجد أحد المشبهين في الأمر الأعم الأكثر وقد ذكر في صلة الآخر ، ولم يعطف عليه كقوله :

« والشيب ينهض في الشباب » و « بياض في جوانبه احمرارا » .

وأشبه ذلك . فإن جاءت الواو كانت واو حال كقوله :

كأنما المريخ والمشتري قدماه في شامخ الرفعه

وهي إذا كانت حالية فهي كالصفة في كونها تابعة وبحيث لا يفرد بالذكر ، بل يذكر في ضمن الأول ، وعلى أنه من تبعه وحاشيته .

وهكذا الحكم في الطرف الآخر ، ألا ترى قوله : « ليل تهاوى كواكبه » فتهاوى كواكبه ، جملة من الصفة لليل . وإذا كان كذلك فالكواكب مذكورة على سبيل التبع لليل ، ولو كانت مستبعدة بشأنها لقلت : ليل وكواكب . وكذلك قوله :

* ليل يصيح بجانبه نهار *^(١)

وأشد من ذلك أن يحىء كما^(٢) في الطرف الثاني كقوله : « كما احمرت من الخجل الحدود » . ويت امرىء القيس على خلاف هذه الطريقة ، لأن أحد الشئيين فيه في الطرفين معطوف على الآخر ، أما في طرف الخبر وهو

(١) هو من صاح العنقود يصيح إذا استتم خروجه من أكمته وطال وهو في ذلك غض (ش) .

(٢) أى لفظ « كما » الخ فإن ما فيه تسبك ما بعدها بمصدر مضاف ، فهو كلمة واحدة لا يتأتى فيها التفريق (ش) .

طرف المشبه به فبين وهو قوله : « العناب والحشف البالى » وأما فى طرف الخبز عنه وهو المشبه ؛ فإنك وإن كنت ترى اسماً واحداً وهو القلوب ، فإن الجمع الذى تفيد الصيغة فى المتفق ، يجرى مجرى العطف فى المختلف ، فاجتماع شيئين أو أشياء فى لفظة تثنية أو جمع ، لا يوجب أن أحدهما فى حكم التابع للآخر ، كما يكون ذلك إذا جرى الثانى فى صفة الأول أو حاله أو ما أشبه ذلك .

هذا وقد صرح بالعطف فى البدل ، وهو المقصود . فقال : رطباً ويابساً .

واعلم أنه قد يجىء فى هذا الباب شيء له حد آخر وهو نحو قوله :

إنى وتزيينى بمدحى معشراً كملتق درأ على خنزير

هو على الجملة جمع بين شيئين فى عقد تشبيه ، إلا أن التشبيه فى الحقيقة لأحدهما ، ألا ترى أن المعنى على أن فعله فى التزيين بالمدح كفعل الآخر فى محاولته تزيين الخنزير بتعليق الدر عليه . ووجه الجمع أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر ، لأن الشيء غير قابل للتحسين ، ومتى كان المشبه به كملتق فى البيت ، فلا شك أن التشبيه لا يرجع إلى ذات الشيء ، بل إلى المعنى المشتق منه الصفة . وإذا رجع إليه رجع إليه مقروناً بصفته على نحو ما مضى فى نحو : « ما زال يقتل فى الذروة والغارب » . فقد شبه تزيينه بالمدح من ليس من أهله بتعلق الدر على الخنزير ، هكذا بجملته لا بالتعليق غير معدى إلى الدر والخنزير ، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر وما فى صلته ، ولا بد للواو فى هذا النحو أن تكون بمعنى مع ، وأمرها فيه أبين ، إذ لا يمكن أن يقال إنى كذا وأن تزيينى كذا ، لأنه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم فى « إنى » الذى هو المعطوف عليه والآخر عن « تزيينى » المعطوف كما يكون فى نحو بيت بشار شيئان يمكن فى ظاهر

اللفظ أن يجعل أحدهما خبراً عن النفع ، والآخر عن الأسياف ، إلى أن تجيء إلى فساد من جهة المعنى . فأنت في نحو : « إني وتزييني » مُلجأ إلى جعل الواو بمعنى مع من كل وجه ، حتى لا تقدر على إخراج الكلام إلى صورة تكون فيها الواو عارية من معنى مع ويكون تشبيها بعد تشبيه .

فإن قلت إن في « مُعلق » معنى الذات والصفة معاً فيمكن أن يكون أراد أن يشبه نفسه بذات الفاعل وتزيينه بالفعل نفسه . أقول لو أريد : إني كمعلق درأ على خنزير ، وإن تزييني بمدحى معشراً كتعليق درة على خنزير — كان قولاً ظاهر السقوط لما ذكرت ، من أنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو زيد مثلاً بمعلق الدر على الخنزير من حيث هو عمرو وإنما يشبه الفعل بالفعل فاعرفه .

فإن قلت فما تقول في قوله :

وحتى الليل حسبت الصبح إذ بدا حصانين مختالين جَوْنًا وأشقرا
فإن ظاهره أنه من جنس المفرق ؟ أقول نعم إلا أن ثمة شيئاً من الحسن ، وهو أن لاقتزان الحصانين الجون والأشقر في الاختيال ضرباً من الخصوصية في الهيئة ؛ لكنه لا يبلغ مبلغ : « ليل تهاوى كواكبه » ، ولا يبلغ قوله : « والصبح مثل غرة في أدم » كما أن قوله :

دون التعانق ناحلين كشكلى نصب أدقهما وضم الشاكل^(١)
لا يكون كقوله :

(١) قبل البيت وهو من قصيدة للمتنبي قوله :

كم وقفة سجرتك شوقاً بعدما غرى الرقيب بنا ولى العاذل
فدون بتعلق بوقفة وسجرتك ملائك أو ألهتك وغرى به أولع .

إني رأيتك في نومي تعانقني كما تعانق لام الكاتب الألفا
فإن هذا قد أدى إليك شكلاً مخصوصاً لا يتصور في كل واحد من
المذكورين على الانفراد بوجه ، وصورة لا تكون مع التفريق^(١)
وأما المتنبي فأراك الشيثين في مكان واحد ، وشدد في الفرق بينهما . وذلك أنه
لم يعرض لهيئة العناق ، ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة في
فرط النحول ، واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقاً والأول^(٢)
لم يُعن بمحدث الدقة والنحول ، وإنما عني بأمر الهيئة التي تحصل في
العناق خاصة من انعطاف أحد الشكليين على صاحبه والتفاف الحبيب بمحبه كما قال :

* لف الصبا بقضيب قضيبا *

وأجاد وأصاب الشبه أحسن إصابة ، لأن خطي اللام والألف في « لا » ترى
رأسيهما في جهتين وتراها قد تماسا من الوسط ، وهذه هيئة المعتنقين على الأمر
المعروف . فأما قصد المتنبي فليس بصفة عناق على الحقيقة وإنما هو تضام وتلاصق وهو
بنحو قوله :

ضمته ضمة عدنا بها واحداً فلو رأتنا عيون ماخشيناها
أشبهه ، لأن القصد في مثله شدة الاقتران ، من غير تعريج على هيئة
الاعتناق ، وذهب القاضى في بيت المتنبي إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ
من قوله : « كما تعانق لام الكاتب الألفا » . وقال ولئن كان أخذه كما يقولون
فليس عليه بعيب ، لأن التعب في نقله ليس بأقل من التعب في ابتدائه^(٣) ،

(١) بوجه متعلق بقوله لا يتصور — وصورة عطف على قوله شكلاً .

(٢) يريد بالأول المتقدم على المتنبي في الزمن .

(٣) قد أكثر الشعراء من نظم هذا المعنى ولكنهم غادروا للشاعر المعاصر
المصرى ، اسماعيل باشا صبرى ، ما بذم جميعاً حيث قال :

ولما التقينا قرب الشوق جهده خليلين ذابا لوعة وعتابا
كأن صديقاً في خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

وهذا التفضيل والتفصيل من قول القاضى ليس قادحاً فى غرضى لأنى أردت أن أريك مثالا فى وضع التشبيه على الجمع والتفريق واجعل البيتين معياراً فيما أردت . واثن كان المتنبي قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ولكن من جهة أخرى وهى الإغراق فى الوصف بالنحول وجمع ذلك للخلين معاً ثم إصابة مثال له ونظير من الخط فاعرف ذلك ، ولا تظن أن قصدى المفاضلة بين البيتين من حيث القول بين السابق والمسبوق والأخذ والسرقة فتحسب أنى خالفت القاضى فيما حكم به .

فصل

« هذا فن غير ما تقدم فى الموازنة بين التشبيه والتمثيل »

اعلم أنى قد عرفت أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً وثبت وجه الفرق بينهما . وهذا أصل إذا اعتبرته وعرضت كل واحد منهما عليه فوجدته يحىء فى التشبيه مجيئاً حسناً وينقاد القياس فيه انقياداً لا تعسف فيه ثم صادفته لا بطاوعك فى التمثيل تلك المطاوعة ولا يجرى فى عنان مرادك ذلك الجرى ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت ، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق وذلك جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً وهو إذا استقرت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها . وذلك نحو أنهم يشبهون الشئ فيها بالشئ فى حال ثم يعطفون على الثانى فيشبهونه بالأول فترى الشئ مشبهاً مرة ومشبهاً به أخرى .

فمن أظهر ذلك أنك تقول فى النجوم كأنها مصابيح ثم تقول فى حالة أخرى فى المصابيح كأنها نجوم ، ومثله فى الظهور والكثرة تشبيه الخلد بالورد والورد بالخلد وتشبيه الروض المنور بالوشى المنعم ونحو ذلك . ثم تشبيه النقش

والوشى فى الحلل بأنوار الرياض وتشبيه العيون بالزرجس ثم تشبيه الزرجس بالعيون
كقول أبى نواس :

لدى زرجس غصن القطاف كأنه إذا ما منحناه العيون عيون
وكذلك تشبيه الثغر بالأفاحى^(١) ثم تشبيهها بالثغر كقول ابن المعتز :
وَألا قحوان كالثنايا الغُرُّ قد صقلت أنواره بالنقطر
وقول التنوخي :

أقحوان معانق لشقيق كغفور تعضُّ ورد الحدود
وبعده وهو تشبيه الزرجس بالعيون :

وعيون من زرجس تتراى كعيون موصولة التسميد
وكما يشبهون السيوف عند الانتضاء بعقائق البروق كما قال ثم يعودون
فيشبهون البرق بالسيوف المنتضاء كما قال ابن المعتز يصف سحابة :

وسارية لا تمل البكا جرى دمعها فى حدود الثرى
مرت تقدح الصبح فى ليها يبرق كهنديّة تُنقضى
وكقول الآخر يصف نار السدق^(٢) .

وما زال يعلو عجاج الدخان إلى أن تكوّن منه زُحل
وكنا نرى الموج من فضة مذهبّة النور حين اشتعل
شراراً يحاكي انقضاض النجوم وبرقا كإيماض بيض تسل

(١) الأفاحى بالتشديد والأفاح جمع أقحوان بالضم ويقال بغير همز وهو زهر له
أوراق بيض مستطيلة قليلا ووسطه أصفر : ومنه نوع صغير ليس له ورق ورائحته قوية
يسمى البابونج .

(٢) السدق ليلة الوقود عند الفرس وهى مشهورة عندهم معرب شدة .

ومن لطيفه قول علي بن محمد بن جعفر :

دَمِنَ كَأَنَّ رِياضَهَا تَسْكِينُ أَعْلَامِ الْمَطَارِفِ^(١)
وَكَأَنَّهَا غَدْرَانُهَا فِيهَا عَشُورٌ مِنْ مَصَاحِفِ
وَكَأَنَّهَا أَنْوَارُهَا تَهْتَزُّ فِي نَكَبَاءِ عَاصِفِ^(٢)
طَرَرِ الْوَصَائِفِ يَلْتَقِي نَبَاهًا إِلَى طَرَرِ الْوَصَائِفِ^(٣)
وَكَأَنَّ لَمَعُ بَرَقَاتِهَا فِي الْجَوِّ أَسْيَافُ الْمُثَاقِفِ^(٤)

المقصود البيت الأخير ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكماب
تفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهره الثمينه مع أخواتها
في العقد أبهى في العين ، واملأ بالزين ، منها إذا أفردت عن النظائر ،
وبدت فذة للنظر .

ويشبهون الجواشن^(٥) والدروع بالغدير يضرب الريح متنه فيتكسر ويقع فيه
ذلك الشننج المعلوم كقوله^(٦) :

(١) الدمن جمع دمنة كسدر جمع سدره وهى هنا الموضع القريب من الدار .
والتسكين هنا غير ظاهر ولعله محرف عن « بسكين » وهو بالتصغير اسم موضع أو عن
(تشكيل) أى تصوير والمطارف جمع مطرف كمنبر وبضم الميم وفتح الراء قيل وهو
الأصل لأنه من أطرفه أى جعل فى طرفيه العليين ولكنهم استثقلوا الضمة فكسروه
ومعناه رداء مربع من الخزفيه أعلام .

(٢) النكباء ريح انحرفت عن مهاب الرياح القوّم ووقعت بين ريحين أو بين
الصبا والشمال .

(٣) الوصائف جمع وصيفة وهى الجارية إذا تم قدها وأراد بها هنا
الأغصان وعواليها (ش) . (٤) المثاقف الملاعب بالسلاح اسم فاعل .

(٥) الجواشن جمع جوشن كجعفر وهو الدرع ومن معانيه الصدر قال شيخنا :
ولعل الدرع أخذ منه وإنما يسمى جوشا من الدرع ما أحاط بالصدر ، هذا
ما يظهر لى اه .

(٦) الشننج بالتحريك التقبض وأصله فى ٢ الجلد من مس نار أو شدة برد .

وبيضاء زَغَف نَثَلَة سُلَمِيَّة لها رُفْرَف فوق الأنامل من علٍ
وأشبرنيها المالكى كأنها غدير جرت في مقتنه الريح سلسل^(١)
وقال :

وسابغة من جِيَاد الدروع ع تسمع للسيف فيها صليلاً
كمن الغدير زهته الدبور يجر المدحج منها فضولاً^(٢)
وقال البحتري :

يمشون في زغف كان مقونها في كل معركة متون نهاء^(٣)
وهو من الشهرة بحيث لا يخفى . ثم إنهم يعكسون هذا التشبيه فيشبهون
الغدران والبرك بالدروع والجواشن كقول البحتري يصف البركة :

إذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشياً^(٤)
ومن فأن ذلك وفاخره ، لاستواء أوله في الحسن وآخره ، قول
أبي فراس الحمداني :

انظر إلى زهر الربيع والماء في البرك البديع^(٥)

(١) الزغف بالفتح والزغفة بالفتح والتحريك الدرع الواسعة الطويلة اللينة
أو المحكمة . والنثلة الدرع الواسعة الطويلة والسلمية بالضم نسبة سمائية إلى سليمان
ابن داود « عليهما السلام » والرفرف جوانب الدرع وما تدلى منها ؛ وأشبرنيها
أعطانيها والمالكى الحداد قيل أول من صنع الحديد في العرب المالك بن عمرو بن أسد
ابن خزيمة .

(٢) الدبور الريح الغربية والمدحج بكسر الجيم المشددة وفتحها اللابس السلاح
لأنه يتغطى به من دحجت السماء إذا تغيمت

(٣) الدماء بالكسر أصغر محابس المطر الواحدة نهاء وبالضم أيضاً ارتفاع الماء .

(٤) زهتها علتها « ومضارع الفعل بهذا المعنى بالآلف » والصبا الريح الشرقية
والحبك بضمهتين جمع حبيكة وهي الطريقة في الرمل ودرع الحديد والجواشن الدروع .

(٥) البرك جمع بركة « بالكسر فيهما » وهي الحوض ومستنقع الماء .

وإذا الرياح جرت عليه في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا نوح بيننا خلق الدروع
وتشبه أنوار الرياض بالنجوم كقوله :

بكت السماء بها رذاذ دموعها فغدت تبسم عن نجوم سماء^(١)
ثم تشبیه النجوم بالنور كقوله :
قد أقذف العيس في ليل كأن به وشياً من النور أو روضاً من العشب
وكقول ابن المعتز :

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نور أو لجام مفضض^(٢)
وقال :

وتوقد الريح بين نجومها كبهارة^(٣) في روضة من نرجس
وكذلك تشبیه غرة الفرس الأدم بالنجم أو الصبح ، ويجعل جسمه كالليل كما
قال ابن المعتز :

جاء سليلاً من أب وأم أدم مصقول ظلام الجسم
قد سمرت جبهته بنجم^(٤)
وكما قال كاتب المأمون يصف فرساً :

(١) الرذاذ المطر الضعيف .

(٢) تقدم البيت ناقصاً في صفحة ١٤٣ فليكمل .

(٣) البهارة واحدة البهار بالفتح وهو نبت طيب الرائحة قال الجوهري وغيره
هو العرار (بالفتح أيضاً) الذي بنيت في أيام الربيع قال ابن برى وهو النرجس البرى
وقال شيخنا هنا : نبت طيب الرائحة قد يكون له زهر أصفر وهنا يظهر أنه نوع منه له
زهر أحمر اهـ أى يظهر من البيت .

(٤) الذي في الديوان بعد الشطر الأول : « لا أقفلت من ولد يعقم » وقبل
الآخر : « متعل بجندلات صم » وسمرت شدت ووثقت بالمسار وفي نسخة
« شمرت » بالمعجمة .

قد بعثنا بحواد مثله ليس يرام
 فرس يزهى به لا محسن منرج ولبام^(١)
 وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظلام
 والذي يصلح للمو لى على العبد حرام

وقال ابن نباتة .

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
 ثم يعكس فيشبه النجم أو الصبح بالغرة في الفرس كقول ابن المعتز :
 والصبح في طرة ليل مسفر كأنه غرة مهر أشقر
 وتشبه الجوارى في قدودهن بالسرو تشبيهاً عامياً مبتذلاً . ثم إنهم قد جعلوا فيه
 الفرع أصلاً فشبهوا السروبهن كقوله :

حفت بسرو كالقيان ولحفت خضر الحرير على قوام معتدل^(٢)
 فكأنها والريح حين تُميلها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

المقصود من البيت الأول ظاهر ، وفي البيت الثانى تشبيه من جنس الهيئة
 المجردة من هيئات الحركة ، وفيه تفصيل ظريف فائن ؛ فقد راعى الحركتين
 حركة التهيؤ للذنو والعناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدى
 ما يكون في الحركة الثانية من سرعة زائدة ، تأدية تحسب معها السمع بصراً ،
 تمييزاً للتشبيه كما هو ، وتصويراً لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها
 إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها في خروجها من مكانها من الاعتدال ،

(١) يزهى أى يتيه ويتكبر السرج واللبام عليه لكونها عليه لحسنه (ش) .
 (٢) لحف الرجل أزاره بالثقل جره خيلاء وليس بظاهر هنا ولعل الأصل
 الحفت (مجهول) أى اتخذته لحافاً .

وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبدا من حركته إذا هم بالدنو
فإزعاج الخوف والوجل ، أبدا أقوى من إزعاج الرجاء والأمل ، فمع الأول
تمهل الاختبار ، وسعة الحوار^(١) ومع الثاني حفز الاضطراب ، وسلطان الوجوب .
وأعود إلى الغرض :

ومن تشبيه السرور بالنساء قول ابن المعتز :

ظَلَّاتِ بَمَلْهَى خَيْرَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ تَدُورُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي فِتْيَةِ زُهْرٍ
بَكْفِ غَزَالٍ ذِي عَذَارٍ وَطَرَةٍ وَصَدُغِينَ كَالْقَافِينَ فِي طَرَفِ سَطَرٍ
لَدَى نَرْجَسٍ غَضٍّ وَسُرُو كَأَنَّهُ قَدُودُ جَوَارٍ مِلْنِ فِي أَزْرِ خَضَرٍ
وتشبيه ثدى الكواعب بالرمان كقوله :

ربما تبیت أناملی یجنین رمان النحور

وقال المتنبي :

وقابلنی رمانتا غصن بانه یمیل به بدر ویمسكه حِقْفُ

وقوله :

یخطن بالعیدان فی کل منزل ویجنین رمان الثدى النواهد

ثم یقلب فیشبه الرمان بالثدى كقول القائل :

ورمانه شبهتها إذ رأيتها بثدى كعاب أو بحقة مرمر^(٢)

(١) الحوار بالفتح ويكسر مراجعة الكلام .

(٢) الكعاب كسحاب الفتاة الناهد والحقة بالضم كالحق وعاء للطيب وغيره .

مستدير في الغالب وكثيراً ما يكون من العاج كما ساء في معلقة ابن أم كلثوم :

وئديا مثل حق العاج رخصاً حصاناً من أكف اللامسينا

وتخيلوه من الدر أو وجد عند الأمراء والملوك كما قال ابن المعتز — وعند

مثله يوجد :

منمنمة صفراء نضد حولها يواقيت حمر في ملاء مصفر

= كأن الشدى على صدرها حقائق من الدر في مرمر
 خشين السقوط فأثبتتها بشبه المسامير من عنبر
 وقد جمعت هذه المعاني وغيرها بما قيل في تشبيه الثديين بالحسيات والمعنويات وزدت
 عليه بما لم أسبق إليه أسلوباً ومعنى فقلت في القصورة الرشيدية بعد أبيات في الصدر
 ما كان ذان الناهدان قوقه الجاذبان طرف كل من رأى
 الخاقان كالقلوب كلما اهتز قضيب قدّها أو انثى
 الناهضان ثم برهاني هوى لروعة الحسن وريمان الصبا
 ما كان ذان الناهدان الناهضا ن الخاقان الخالبان للنهى
 حقتين من درّ عليه أثبتا بشبه مسارين من مسك ذكا
 أو كرتي عاج على مرمره حيث الصوالح العقاص لا العصا
 إذا لها نا مطلباً وبذلاً لكل من باع الحقائق واشترى
 ولاهما رمانتا غصت وشى أعلاه ما نمّ عليه ووشى
 كيف وقد عز جناهما على حين نرى الرمان داني الجنى
 ولا مليكان عليه ألبسا تاجاً من الياقوت عز وغلا
 فئمة الملوك عبدان عنا لذلك السلطان أيهم عتا
 ولا قران كوكبين اثلتها بفلك في أفق شعر كالديجى
 كعاشقين في الخفاء اعتنقا رمزاً إلى سر القران في الحبا
 فإين الدرى ما زانها من لوعة تشب في كل حشا
 ولم يكونا ركني اللطاف من كعبة هذا الحسن قبلة الهوى
 أنى وقد صينسا بها وامتنعا من لمس من حج إليها وسمى
 أو علمين حيث ذاك الحرم الآ من والحل كمرعى وحمى
 كلا فلا أمن لمن منه دنا وإنما الآمن من عنه نأى
 فكم قتيل ثم لاعموت ما أقيد من قاتله ولا ودى
 كما أبيع فيه صيد الإنس من دون طيور الجوا أو وحش الفلا
 تلك رجوم يقذف الغيب بها من هام في وادى الخيال وغوى
 بل ذاك هيكل الجمال صدره عرش الكمال فوقه قد استوى =

وتشبه الجداول والأنهار بالسيوف يراد بياض الماء الصافي وبصيصه مع شكل الاستطالة الذي هو شكل السيف كقول ابن المعتز :

أعددت للجبار وللعناة كوم الأعالي متساميات
روازقاً في المحل مطمات^(١)

يعنى نخلاً ثم قال بعد أبيات :

تسقى بأنهار مفجرات على حصى الكافور فأنضات
مثل السيوف المتفريات^(٢)

وقول ابن بابك :

فما سـيل تخلصه الحاني كما سلت من الخلل المناصل^(٣)
أبوفراس :

والماء يفصل بين زهـ رالروض في الشطين فصلا
كيساط وشى جرّدت أيدى العيون عليه نصلا
كشاجم : وترى الجداول كالسيوف لها سواق كالمبارد

= ربان من تلك الغرائيق العلى في حمل الزينة صينا واللى
لولا ضياها معاً لجملا للثانوى حجة يظهرها بما ادعى
تعبداً من ملل التوحيد والتشلي ت والشرك جبلا كالحصى
من بلغ الهيكل مغرماً هذا ذينك النجدين منه فغوى
(١) الكوم بالضم جمع كوما وهو الناقة الضخمة السنام وأكوم وهو البعير
كذلك والكلام على التشبيه . والشاهد فيما بعده .

(٢) من تفرى الشيء بالتشديد انشق يقال : تفرى الليل عن صبحه .

(٣) الحاني معاطف الأودية ومحابس الماء : والحلال جمع خلة بالكسر وهي
جفن السيف المغشى بالأدم أو بطانة جفن السيف مطلقاً : والمناصل السيوف
واحد كمنخل .

آخر :

وفي الجداول أسياف محادثة والطير تسجع إهزاجاً وإرمالاً^(١)
وقال ذو الرمة :

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت جداول أمثال السيوف القواطع
ابن الرومي :

على حفاف جداول مسجور أبيض مثل المهرق المنشور^(٢)
أو مثل متن الصارم المشهور

ثم يقبلون أحد طرفي التشبيه على الآخر فيشبهون السيوف بالجداول كقوله :
وتخال ما ضربوا بهن جداولاً وتخال ما طعنوا به أشطاناً^(٣)
ابن بابك :

وأهدى إلى الغارات عزماً مشيعاً وبأساً وباعاً في اللقاء ومقصد^(٤)
سفيه مقط الطرتين أشيمه فيوحى إلى الأعضاء أن تترتلا^(٥)

-
- (١) المحادثة المجلوة المعقولة . قال الشاعر : « كنصل السيف حودث بالصقال .
والهزج والرمل بالتحريك ضربان من ضروب التلحين ويطلق الهزج على الصوت فيه
بحج وهو محبوب وعلى مطلق الصوت المطرب وأصله صوت الذبان . واهزج الشاعر
وأرمل جاء بالهزج والرمل وهما بجران من محور الشعر .
- (٢) الحفاف ككتاب الجانب والجدول النهر الصغير والمسجور المملوء والمهرق
بضم الميم وفتح الراء الصحيفة أو ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه .
- (٣) الاشطان الحبال أو الحبال التي يستقي بها خاصة .
- (٤) المشيع العجول والشجاع كأنه شيع قلبه بما يركب كل هول . المقصل كمنبر
القطاع يوصف به السيف والجلل يحطم كل شيء بأنياه .
- (٥) السفينه المضطرب والمسرف في عمله والمقط من القط وهو القطع والطرة
طرف الشيء وجانبه ، والمعنى أنه مسرف في القط والقطع بجانبيه إذ هو محدد الطرفين
أوفي جانبي الخصم بضربه ذات اليمين وذات الشمال . وشامه سله وأعمده ضد .

أغرّ كائن حين أخضب خده خرقت به في ملتقى الروض جدولا
السرى :

وكم خرق الحجاب إلى مقام توارى الشمس فيه بالحجاب
كان سيوفه بين العوالى جداول يطردن خلال غاب
وله أيضا :

كان سيوف الهند بين رماحه جداول في غاب سما وتأشبا^(١)
وتشبه الأسنّة كما لا يخفى بالنجوم كما قال :
وأسنّة زرقا نخال نجوما

وقال البحتري :

وتراه في ظلم الوغى فتخاله قرأ يكر على الرجال بكوكب
يعنى السنان . وقال ابن المعتز :
وتراه يصغى في القناة بكفه نجما ونجما في القناة يجره^(٢)
ومثله سواء قوله :

كأنما الحربة في كفه نجم دجى شيعه البدر
ثم قد شبهوا الكواكب بالسنان كقول الصنوبرى :
بشر بالصبح كوكب الصبح فاض وجنح الدجى كلا جنح^(٣)
فهو على الفجر كالسنان هوى للعين كما هوى على رمح

(١) البيت من قصيدة في مدح الوزير المهلبى وفي رواية الديوان (علا وتأشبا)
ومعنى تأشب الشجر التف .

(٢) يصغى الشيء إصغاء يميله ونجما مفعوله والمراد به كفه ، و « نجما » الثانى
هو السنان والضمير في يجره يعود إليه (ش) .

(٣) قوله فاض يعنى الكوكب والمراد فيضان نوره والجنح بالكسر ويضم
الطائفة من الليل .

ابن المعتز :

شربتها والديك لم ينتبه سكران من نومه طافح
ولاحت الشعرى وجوزاؤها كمثل زُج جره رامح
وهذه إن أردت الحق قضية قد سبقت وقدمت فقد قالوا السماك الرامح على
معنى أن كوكبا يتقدمه وهو رمحه ! ولا شك أن جل الغرض في جعل ذلك
الكوكب رمحا أن يقدروه سفانا ، فالرمح رمح بالسنان ، وإذا لم يكن السنان فهو
قناة ، ولذلك قال : * ورمحا طويل القناة عسولا^(١) *

ومن ذلك أن الدموع تشبه إذا قطرت على خدود النساء بالطل والقطر على
ما يشبه الخدود من الرياحين كقول النابغة :

بكت للحبيب وقد راعها بكاء الحبيب لبعد الديار
كان الدموع على خدها بقية طل على جلتار^(٢)

وشبيه به قول ابن الرومي :

لو كنت يوم الوداع حاضرا ومن يطفئ غلة الوجد
لم تر إلا الدموع ساكبة تقطر من مقلة على خد
كان تلك الدموع قطر ندى يقطر من رجبس على ورد
ثم يعكس كقول البحتري :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد
ومثله قول ابن المعتز بعد قوله في النرجس :

كان عيون النرجس الغض حولها مداهن دُر حشوهن عقوق
إذا بلهن القطن خلّت دموعها بكاء عيون كحلهن خلوق^(٣)

(١) العسول الشديد الاهتزاز . (٢) الجلتار زهر الرمان فارسي معرب

أصله كل بالكاف المفخمة وهو الورد ونار وهو الرمان . (٣) الخلوق بوزن رسول
طبيب مائع أصفر وقال شيخنا يضرب إلى الصفرة لأن أغلب أجزائه الزعفران . قال ==

وفي فن آخر منه خارج عن جنس ما مضى يشبه الشيخ إذا أفناه الهرم ، وحناء
القدم حتى يدخل رأسه في منكبيه بالفرخ كما قال :
ثلاث مثين قد مضين كواملا وها أنا هذا أرتجى مرّ أربع
فأصبحت مثل الفرخ في العين ثاوياً إذا رام تطياراً يقال له قع
وهو كثير ، ثم يعكس فيشبه الفرخ بالشيخ ، كما قال أبو نواس يرثي
خلف الأحمر :

لو كان حي واثلاً من التلف لوئلت شغواء في أعلى شعف
أم فريخ أحرزته في لحف مرغب الألغاد لم يأكل بكف
كأنه مستقعد من الخرف^(١)

وأعاده في قصيدة أخرى في مراثيته^(٢) :

لا تثل العصم في المضاب ولا شغواء تغزو فرخين في لحف
تحنو بجوشوشها على ضمير كقعدة المنحنى من الخرف^(٣)

= وكأنه أراد ما يبدو من لون الحمرة في قطرات الماء ولا يكون حمرة زاهية بل
يميل إلى الصفرة اه .

(١) وأل « كضرب » نجا أو طلب النجاة . والشغواء بالغين المعجمة العقاب
لزيادة منقارها الأعلى على الأسفل كالسن الشغواء والشاغية أي الزائدة على الأسنان
والشعف جمع شعفة بالتحريك فهما وهي رأس الجبل وأعلى كل شيء . واللحف
بالكسر أصل الجبل وحرك الحاء للضرورة إلا أن تكون لغة . والمرغب الذي نبت
زغبه وهو بالتحريك الشعر والريش أول ما يبدو في الصبي أو الفرخ وكذا الصغير
منهما . والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحم في الحلق وقيل الق بين الحنك وصفحة العنق
أو منتهى شحمة الأذن من أسفلها وقيل غير ذلك .

(٢) قوله أعاده أي المعنى والسبب في ذلك أن خلفاً أحب أن يرثي في حياته فرثاء
تلميذه أبو نواس بالرجز الذي ذكر هنا بعضه أولاً فأعجبه وقال كنت أحب أن يكون
قصيداً فقال أبو نواس أنا أحوله إلى القصيد وفعل .

(٣) العصم جمع أعصم وهو ما كان من الوعول والظباء في ذراعيه أو أحدهما بباض

ويشبه الظليم في حركة جناحيه مع إرسال لها بالخباء المقوض أنشد
أبو العباس لعلامة :

صعل^(١) كأن جناحيه وجؤجؤه بيت أطافت به خرقاء مهجوم^(٢)
اشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء ليكون أشد لتفاوت حركاته ، وخروج
اضطرابه عن الوزن . وقال ذو الرمة :

وبيض رفعنا بالضحى عن متونها سماوة جون كالخباء المقوض
هجوم عليها نفسه غير أنه متى يُرْمَى في عينيه بالشبح ينهض
قالوا في تفسيره ، يعنى بالبيض بيض النعام و « رفعنا » أى أثّرنا عن
ظهورها . و « سماوة جون » أى شخص نعام جون ، وسماوة الشيء شخصه
والجون الأسود ههنا ، لأنه قابل بين البياض والسواد . ثم شبه النعام في
حال إثارته عن البيض بالخباء المقوض ، وهو الذى نزعنا أطنابه للتحويل ،
والبيت الثانى من أبيات الكتاب^(٢) ، أنشده شاهداً على إعمال فعول عمل
الفعل وذلك قوله : « هجوم عليها نفسه » . فنفسه منصوب بهجوم على أنه
من هجوم متعدياً . نحو هجوم عليها نفسه أى طرحها عليها ، كأنه أراد أن يصف
الظليم في خوفه بأمرين متضادين ، بأن يبالغ في الانكباب على البيض فعل
من شأنه اللزوم والثبات ، وأن يثيره عنها الشيء اليسير ، نحو أن يقع بهمره

= وسائره أسود أو أحمر . والغراب الأعصم هو الأحمر الرجلين والمنقار .
والجؤشوش « كعصفور » والجأش الصدر . والضرم « ككتف » فرخ العقاب ومن
معانيه الجائع والفرس العدا .

(١) الظليم ذكر النعام والصعل — دقيق الرأس طويله والجؤجؤ الصدر .
وأطافت به أمت والخرقاء الحمقاء والريح المختلقة المبوب لا تدوم على جهة واحدة
ويؤخذ من الأساس أن الوصف للريح مجاز وللرأفة الحمقاء حقيقة . والبيت المهجوم
هو الذى حلت أطنابه .

(٢) أى كتاب سيبويه .

على الشخص من بعد فعل من كان مستوفزاً في مكانه غير مطمئن ولا موطن نفسه على السكون . وقوله « يرم في عينيه بالشبح » كلام ليس لحسنه نهاية .

وقد قال ابن المعتز فعكس هذا التشبيه فشبه حركة الخباء بالطائر إلا أنه راعى أن يكون هناك صفة مخصوصة فشرط في الطائر أن يكون مقصوداً وذلك قوله :

ورفعنا خباءنا تضرب الريح حشاه كالجاذف المقصوص^(١)
وأخرجه إلى هذا الشرط أنه أراد حركة خباء ثابت غير مقوض إلا أن الريح تقع في جوفه فتتحرك في جانبيه على توال كما يفعل المقصوص إذا جذب وذلك أن يرد جناحيه إلى خلفه فيتحرك جانباه ، فحصل له أمران أحدهما أن الموفور الجناح يبسط جناحيه في الأكثر وذلك إذا صف في طيرانه فلا يدوم ضربه بجناحيه والمقصود لقصوره عن البسط يديم ضربهما . والثاني تحريك الجناحين إلى خلف . وهذا كثير جداً وتتبعه في كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة . وإنما يمتنع هذا القلب في طرفي التشبيه لسبب يعرض في البين فيمنع منه ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشئين المبشبه أحدهما بالآخر^(٢) .

فمن ذلك وهو أقواه فيما أظن أن يكون بين الشئين تفاوت شديد في الوصف الذي لأجله يشبه ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

بيان هذا أن ههنا أشياء هي أصول في شدة السواد كخافية الغراب

(١) جذب الطائر « كضرب » أسرع .

(٢) السميم بالمهملة المحض الخالص بدون عارض .

والقار ونحو ذلك فإذا شبهت شيئاً بها كان طلب العكس في ذاك عكساً لما يوجبه العقل ونقضاً للعادة لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف في المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة . فأنت إذا قلت في شيء هو كخافية الغراب فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على ما يعهد في جنسه وأن تصحح زيادة مجهولة له . وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب في السواد فليت شعري ما الذي تريد من قياسه على غيره فيه ولهذا المعنى ضعف بيت البحتري :

على باب قنسرين والليل لا طخ جوانبه من ظلمة بمداد^(١)
وذاك أن المداد ليس من الأشياء التي لا مزيد عليها في السواد . كيف ورب مداد فاقد اللون ، والليل بالسود وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلاً ، ألا ترى إلى ابن الرومي حيث قال :

حبر أبي حفص لعاب الليل يسيل للاخوان أي سيل^(٢)
فبالغ في وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل وكأن البحتري نظر إلى قول العامة في الشيء الأسود هو كالنفس ثم تركه للقافية^(٣) .

(١) على باب متعلق بما في البيت قبله وهو :

وليلتنا والراح عجمي تحمها فنون غناء للزجاجة حاد
أي كان مع حبيبته في إدارة الكؤوس واستماع الغناء طول الليل على باب قنسرين
(٢) نقل شارح شواهد الاضاح عن ديوان ابن الرومي في مدح جرد بن حفص الوراق

حبر أبي حفص لعاب الليل كانه ألوان دهم الخيل
يجرى إلى الاخوان جرى السيل بغير وزن وبغير كيل
(٣) النفس بالكسر هو المداد الذي يكتب به .

فإن قلت : فينبغي على هذا أن لا يجوز تشبيه الصبح بغرة الفرس لأجل أن الصبح بالوصف الذي لأجله شبه الغرة به أخص ، وهو فيه أظهر وأبلغ ، والتفاوت بينهما كالتفاوت بين خافية الغراب والقار وبين ما يشبه بهما . فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن تشبيه غرة الفرس بالصبح حيث ذكرت لم يقع من جهة المبالغة في وصفها بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ . وإنما قصد أمر آخر وهو وقوع منير في مظلم ، وحصول بياض في سواد ؛ ثم البياض صغير قليل بالإضافة إلى السواد ، وأنت تجد هذا التشبيه على هذا الحد في الأصل ، فإذا عكست فقلت كان الصبح عند ظهور أوله في الليل غرة في فرس أدم لم تقع في مناقضة ، كما أنك لو شبهت الصبح في الظلام بعلم بياض على ديباج أسود لم تخرج عن الصواب ، وعلى نحو من ذلك قول ابن المعتز :

فخلت الدجى والفجر قد مد خيطه رداء موشى بالكواكب معلما

فالعلم في هذا الرداء هو الفجر بلا شبهة . وله وهو صريح ما أردت :

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم^(١)

وإن كان التفاوت في المقدار بين الصبح والطراز في الامتداد والانبساط شديداً . وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة وبالدينار الخارج من السكة كما قال ابن المعتز :

وكان الشمس المنيرة ديناً رّ جلته حدائق الضراب

حسن مقبول وإن عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار أو الجرم لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور والاتساق وإنما قصدت إلى

(١) به أى فيه والضمير لليل .

مستدير يتلألاً ويلع ثم خصوص في جنس اللون يوجد في المرآة المجلوة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد في الشمس . فأما مقدار النور وأنه زائد أو ناقص ، ومتناه أو متقاصر ، والجرم أعظم هو أم صغير ؟ فلم تعرض له ، ويستقيم لك العكس في هذا كله نحو أن تشبه المرآة بالشمس . وكذلك لو قلت في الدينار كأنه شمس أو قلت كأن الدنانير المنشورة شمس صغار ، لم تتعد .

وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة في إثبات الصفة للشيء والقصد إلى إيهام في الناقص أنه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشئيين في مطلق الصورة والشكل واللون أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حد ، ويوجد هو أو قريب منه في الأصل ، فإن العكس يستقيم في التشبيه ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقيم .

وقد يقصد الشاعر على عادة التخيل أن يوم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلاً فيها ، فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلاً ، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد بن وهيب :

وبدا الصبح كأن غرته وجه الخليفة حين يمدح^(١)

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف واشهر وأتم وأكمل في النور والضياء من الصبح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصبح

(١) قبل البيت :

حتى استرد الليل خلعتة وبدا خلال سواده وضع

فرعاً ووجه الخليفة أصلاً .

واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم : لا يدري أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوا أم البدر ؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصبح يخفى في ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة ، فإن في الطريقة الأولى خلافة وشيئا من السحر . وهو أنه كان يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ويوم أنه قد احتشد له واجتهد في طلب تشبيه يفهم به أمره . وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويرجى الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف بخلاف وإنكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل « لم » و « من أين لك ذلك ؟ » والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من المرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنعة لم ينقصها اعتداد المصطنع لها .

وفي هذا الموضع تشبيه بالنكتة التي ذكرتها في التجنيس لأنك في الموضعين تنال الريح في صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك ، من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك ، وتجد على الجملة الوجود من حيث توهمت العدم .

ولطيفة أخرى وهي أن من شأن المدح إذا ورد على العاقل أن يفقه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقهما : معرفة حق المادح على ما احتشد له من تزيينه وقصده من تفخيم شأنه في عيون الناس بالإصفاء

إليه والارتياح له ، والدلالة بالبشر والطلاقة على حسن موقعه ؛ عنده وملك النفس حتى لا يقلبها السرور عليه^(١) ويخرج بها إلى العجب المذموم وإلى أن يقول « أنا » فيقع في ضعة الكبر من حيث لا يشعر ، ويظهر عليه من أمارته ما يذم لأجله ويحقر ، فما كبر أحد في نفسه إلا أغان الكبر عقله . وفسخ عقده من أجله . وهذا موقف نزل فيه الأقدام ، بل تخف عنده الحلوم ، حتى لا يسلم من جزع النفس هناك إلا أفراد الرجال ، وإلا من أدام التوفيق صحبته ، ومن أين ذلك وأنى ؟ . فإذا كان المدح على صورة قوله « وجه الخليفة حين يمتدح » خف عنه الشطر من تكاليف هذه الخصلة .

وإذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً في التشبيه الصريح فارجع إلى التمثيل وانظر هل تجيء فيه هذه الطريقة على هذه السعة والقوة ثم تأمل ما حمل من التمثيل عليها كيف حكمه وهل هو مساو لما رأيت في التشبيه الصريح ، وحاذ حذوه على التحقيق ؟ أم الحال على خلاف ذلك ؟ . والمثال فيما جاء من التمثيل مردوداً فيه الفرع إلى موضع الأصل والأصل إلى محل الفرع قوله .

وكان النجوم بين دجاء سنن لاح يبين ابتداء
وذلك أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلي وكذلك تشبيه خلافا
من البدعة والضلالة بالظلمة ، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن كما يفعل
فيما مضى من المشاهدات ، إلا أنا نعلم أنه لا يجري مجرى قولنا كأن النجوم مصابيح
تارة ، وكأن المصابيح نجوم أخرى . ولا يجري مجرى قولك ، كأن السيوف
برق تنعق ، وكأن البروق سيوف نسل من أغمارها فتبرق ، ونظائر ذلك

(١) قوله وملك عطف على معرفة وهو ثانى الأمرين وقلبها حولها .

فما مضى ، وذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة وتجده العين في الموضعين وليس هو في هذا مشاهداً محسوساً وفي الآخر معقولاً متصوراً بالقلب ممتنعاً فيه الإحساس . فأنت تجد في السيوف لمعاناً على هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة تجده بعينه أو قريباً منه في البروق . وكذلك تجد في المداخن من الدر حشوهن عقيق من الشكل واللون والصورة ما تجده في النرجس حتى يتطرق أن يشتبه الحال في الشيء من خلال فيظن أن أحدهما الآخر^(١) فلو أن رجلاً رأى من بعيد بريق سيوف تنقضى من العمود لم يبعد أن يغلط فيحسب أن بروقاً انعقت وما لم يقع فيه الغلط كان حاله قريباً مما يجوز وقوع الغلط فيه . ومحال أن يكون الأمر كذلك في التمثيل لأن السنن ليست بشيء يتراءى في العين فيشتبه بالنجوم ، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ، وإنما يقصد بالتشبيه في هذا الضرب ما تقدم من الأحكام المتأولة من طريق المقتضى فلما كانت الضلالة والبدعة وكل ما هو جهل ، تجعل صاحبها في حكم من يمشى في الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق ولا يفصل الشيء من غيره حتى يتردى في مهواة ويعثر على عدو قاتل وآفة مهلكة لزم من ذلك أن تشبه بالظلمة . ولزم على عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشرية وكل ما هو علم بالنور .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقة العكس لا تنجى في التمثيل على حدها في التشبيه الصريح وأنها إذا سلكت فيه كان مبنياً على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر خروجاً ويبعد عنه بعداً شديداً فالتأويل في البيت أنه لما شاع وتعرف وشهر وصف السنة ونحوها

(١) الخلل الخطأ .

بالبياض والإشراق والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليها كنهارها » وقيل هذه حجة ببيضاء ، وقيل للشبهة وكل ما ليس بحق أنه مظلم ، وقيل سواد الكفر وظلمة الجهل ، يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التي لها إشراق ونور وابتضاء في العين ، وأن البدعة نوع من الأنواع وأن لها^(١) فضل اختصاص بسواد اللون فصار تشبيهه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداء على قياس تشبيههم النجوم في الظلام ببياض الشيب في سواد الشباب أو بالأشوار واثلاقتها بين النبات الشديد الخضرة . فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته » في بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر إلا أن التأويل هناك أنه جعل في وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد . والتأويل ههنا أنه خيل ما ليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك .

ومن هذا الباب قول الآخر :

ولقد ذكرتك والزمان كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق
لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد فيقال ،
اسودَّ النهار في عيني وأظلمت الدنيا عليّ ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر
بالسواد من الظلام فشبه به ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق نظرفا وإتماما
للصفة وذلك أن الغزل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق والقلب
القاسى يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلا في الكدرة

(١) الظاهر أن يقال : إلتى لها الخ كالذى قبله ولم يلاحظ ذلك شيخنا في الدرس
لصحة المعنى .

والسواد ففاس عليه . وعلى ذلك قول العامة : ليل كقلب المنافق أو الكافر .
إلا أن في هذا شوبا من الحقيقة من حيث يتصور في القلب أصل السواد ثم يدعى
الافراط ، ولا يدعى في البدعة نفس السواد لأنها ليس مما يتلون ، لأن اللون من
صفات الجسم ، فالذى يساويه في الشبه المساواة الثابتة قولهم : أظلم من الكفر —
كما قال ابن العميد في كتاب يداعب فيه ويظهر التظلم من هلال الصوم ويدعو
على القمر فقال « وارغب إلى الله تعالى في أن يقرب على القمر دوره ، وينقص
مسافة فلسكه » ثم قال بعد فصل « ويسمى النعرة في قفا شهر رمضان ^(١) ويعرض
على هلاله أخفى من السحر ، وأظلم من الكفر » .

وإن تأولت في قوله : « سنن لاح بينهن ابتداع » أنه أراد معنى قولهم إن
سواد الظلام يزيد النجوم حسنا وبهاء كان له مذهب . وذلك أنه لما كان وقوف
العاقل ، على بطلان الباطل ، واطلاعه على عوار البدعة ، وخرقه الستر عن فضيحة
الشبهة ، يزيد الحق نبلا في نفسه ، وحسنا في مرآة عقله ، جعل هذا الأصل من
المعقول مثلا للمشاهد المبصر هناك ، إلا أنه على ذلك لا يخرج من أن يكون خارجا
عن الظاهر أن يمثل ^(٢) المعقول في ذلك بالبحسوس كما فعل البحسوس
في قوله :

(١) النعرة الصوت ويريد بها الصيحة والعيول عليه (ش) لعله وهو يشير إلى
ما هو معروف منذ قرون بتوديع المؤذنين لشهر رمضان عند قرب انتهائه .

(٢) « أن يمثل » بدل من الظاهر أو أن « من » الجارة المحذوفة من الكلام
بيان للظاهر (ش) والمعنى أنه مع ذلك خروج عن الظاهر الذى هو تمثيل المعقول
بالبحسوس وقلما تجد لعبد القاهر ركاكة كقوله هنا : لا يخرج من أن يكون
خارجا الخ .

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من المجد خيَّب^(١)
 وحسن دراريّ النجوم بأن تُرى طوالع في داج من الليل غيب
 فبك مع هذا الوجه حاجة إلى مثل ما مضى تنزيل السنة والبدعة منزلة
 ما يقبل اللون ويكون له في رأى العين منظر المشرق المتبسم ، والأسود الأقم^(٢)
 حتى يراد أن لون هذا يزيد في بريق ذاك وبهائه وحسنه وجماله ، وفي القطعة التي
 هذا البيت منها غيرها مما مذهبه المذهب الأول وهو :

رُبَّ ليل قطعته كالصدود وفراق ما كان فيه وداع
 موحش كالثقل تقذى به العيون وتأبى حديثه الأسماع
 وكأن النجوم . . . البيت بعده :

مشرقا كأنهن حجاج يقطع الخضم والظلام انقطاع
 وبما حقه أن يعد في هذا الباب قول القائل :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه نجاء من البأساء بعد وقوع^(٣)
 وذلك أن العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذي ينحسر عنه الغمام
 والشبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل لا من طريق الحس وأوضح
 منه في هذا القول ابن طباطبغا :

صحوٌ وغيمٌ وضياءٌ وظلم مثل سرور شابهٍ عارضٍ غم
 ومن حد ما يقع في هذا الباب قول التنوخي في قطعة وهي قوله :
 أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا

(١) الأصفار جمع صفر بمعنى الخالي ، و « من المجد » متعلق به باعتبار المعنى

(٢) الأقم الذي تعلوه القتمة وهي بالتحريك السواد

(٣) النجاء كالنجاة

فالأرض تحت ضرب الثلج تحسبها قد ألبست حبكا أو غشيت ورقاً^(١)
 فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
 جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا برداً فضرنا كقلب الصب إذ عشقا
 المقصود فانهض بنار إلى فحم فإنه لما كان يقال في الحق إنه منير واضح
 لأئح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة وفي الظلم خلاف ذلك تخيلهما شيئين
 لهما ابيضاض واسوداد وإنارة وإظلام فشبه النار الفحم بهما .

ومن هذا الباب قول ابن بابك :

وأرض كاخلاق الكريم قطعتها وقد كحل الليل السماء فأبصرا
 لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك واستمر توهم حقيقة
 فقابل بين سعة الأرض التي هي سعة حقيقة وأخلاق الكريم .

ومثله قول أبي طالب المأموني :

وفلا كآمال يضيق بها الفتى لا تصدق الأوهام فيها قبيلا
 أقريتها بشملة تقرى الفلا عنقا وتقرىها الفلاة نحولا^(٢)
 قاس الفلا في السعة وهي حقيقة فيها على الآمال وهي إذا وصفت بالسعة

(١) الضرب الثلج والجليد وتقدم تفسير الحبك وأن من معانيه الدروع وهي
 المراد هنا كما قال شيخنا . وغشيت بالتشديد من غشاء إذا غطاء وستره وهو كغشاء
 يتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى : « كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً »
 والورق الفضة ووزنه كالكتف

(٢) الشملة بكسر الشين والميم وتشديد اللام الناقة السريعة والإقراء طلب القرى
 وهو بالكسر الضيافة كالاقتراء والاستقراء . وقرى الضيف قرى وقراء تقرية ضيفه
 تضيفا وقرى البلاد تتبعها وطافها يخرج من أرض ويدخل في أخرى ، ففي قوله :
 تقرى الفلا عنقا تورية . والعنق بالتحريك سير مسطر فسيح واسع للابل والدواب
 وهو اسم من أعنق

كان مجازاً بلا شبهة ولكن لما كان يقال : آمال طوال وآمال لا نهاية لها واتسعت آماله وأشبه ذلك صارت هذه الأوصاف كأنها موجودة فيها من طريق الحسن والعيان . وعلى ذكر الأمل فمن لطيف ما جاء في التشبيه به على هذا الحد وإن لم يكن في معنى السعة والامتداد ، ولكن في الظلمة والاسوداد ، قول ابن طباطبا .

رب ليل كأنه أملى فيك وقد رحت عنك بالحرمان
جُبته والنجوم تنمش في الأفق وتطرفن كالعيون الزواني^(١)
هارباً من ظلام فعمالك في نحو وضياء الفتى الأغر الهجان^(٢)
لما كان يقال في الأمر لا يرجى له نجاح : قد أظلم علينا هذا الأمر وهذا أمر فيه ظلمة ، ثم أراد أن يبالغ في القياس وجه النجح عليه في أمله تخيل كأن أمله شخص شديد السواد فتماس ليله به كأنه يقول : تفكرت فيما أعلمه من الأشياء السود فرأيت صورة أملى فيك زائدة على جميعها في شدة السواد فجعلته قياساً في ظلمة ليلي الذي جبته .

ومن الباب وهو حسن قول ابن المعتز :

لا تخلطوا الدوشاب في قدح بصفاء ماء طيب البرد^(٣)
لا تجمعوا بالله ويحكم غلظ الوعيد ورقة الوعد
لما كان يقال : اغلظ له القول ، ويوصف الجاني وكل من أساء وقال ما يكره بالغلظ ، ويوصف كلام المحسن ومن يعمد إلى الجميل باللطافة — جعل الوعيد

(١) جبته قطعته ونعش طرفه بالثلثة (من باب فتح) رفعة لينظر وطرفت العين طرفاً من باب ضرب تحركت

(٢) الهجان ككتاب الخيار من كل شيء ورجل هجان كريم الحسب

(٣) الدوشاب نبيذ التمر معرب ، أو الأسود كما في شرح ديوان ابن الرومي . وقال السمعاني انه الدبس بالعربية

والوعد أصلاً في الصفتين ، وقاس عليهما . فأما قول الآخر :

شربت على سلامة فتكين شراباً صفوه صفو اليقين

فهو على الحقيقة لا يدخل في تشبيه الحقيقة بالمجاز ، لأن الصفاء خلوص الشيء وخلوه من شيء يغيره عن صفته ، إلا أنه من حيث يقع في الأكثر لما له بريق وبصيص كان ، كأنه حقيقة في المحسوسات ومجاز في المعنويات . وأما قولهم : هواء أرق من تشاكي الأحباب ، فمن الباب ، لأن الرقة في الهواء حقيقة ، وفي التشاكي مجاز . وهكذا قول أبي نواس في خلاعته : « حتى هي في رقة ديني » لأن الرقة من صفات الأجسام فهي في الدين مجاز :

ومما كأنه يدخل في هذا الجنس قول المتنبي :

يترشفن من فمي رشقات هن فيه أحلى من التوحيد

وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعت شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهزل والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس .

ومما هو حسن جميل من هذا الباب ، قول الصاحب كتب به إلى القاضي أبي الحسن . روى عن القاضي أنه قال انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد فجاءني رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة فيها هذان البيتان :

يا أيها القاضي الذي نفسي له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

وكون هذا التشبيه مما نحن فيه من الترجيح^(١) أوضح ما يكون ، فليس بخاف أن العادة أن يشبه الثناء بالعطر ونحوه ، ويشق منه وقد عكس ، كما ترى ، وذلك على ادعاء أن ثناءه أحق بصفة العطر وطيبه من العطر وأخص

(١) أى ترجيح جانب المجاز وجعله أصلاً يشبه به وفي نسخة : التوضيح .

به ، وأنه قد صار أصلاً حتى إذا قيس نوع العطر عليه فقد بولغ في صفته بالطيب ، وجعل له في الشرف والفضل على جنسه أوفر نصيب .

وإذ قد عرفت الطريقة في جعل الفرع أصلاً في التمثيل ؛ فارجع وقابل بينه وبين التشبيه الظاهر ، تعلم أن حاله في الحقيقة مخالفة للحال ثم . وذلك أنك لا تحتاج في تشبيه البرق بالسيوف ، والسيوف بالبرق ، إلى تأويل أكثر من أن العين تؤدي إليك من حيث الشكل واللون وكيفية اللعان ، صورة خاصة تجدها في كل واحد من الشئيين على الحقيقة ، ولا يمكننا أن نقول إن الثريا شبت باللباح المفضض ، وبعنقود الكرم المنور ، وبالوشاح المفصل لتأويل كذا ، بل ليس بأكثر من أن أنجم الثريا لونها لون الفضة ، ثم إن أجرامها في الصغر قريبة من تلك الأطراف المركبة على سيور اللبحام ثم إنها في الاجتماع والافتراق على مقدار من مواقع تلك ، وكذا القول في العنقود . فإن تلك الأنوار مشاكلة في البياض ، وفي أنها ليست متضامة تضام التلاصق ، ولا هي شديدة التباين حتى يبعد الفصل بين بعضها وبعض ، بل مقاديرها في القرب والبعد على صفة قريبة مما يتراءى في العين من مواقع تلك الأنجم .

وإذا كان مدار الأمر على أن العين تصف من هذا ما تصف من ذاك ، لم يكن تشبيه اللبحام المفضض بالثريا إلا كتشبيه الثريا به . والحكم على أحدهما بأنه فرع أو أصل يتعلق بقصد التكلم ، فما بدأ به في الذكر فقد جعله فرعاً ، وجعل الآخر أصلاً ، وليس كذلك قولنا : له خلق كالمسك ، وهو في دنوه بعبائه ، وبعده بعزه وعلائه ، كالبدر في ارتفاعه ، مع نزول شعاعه . لأن كون الخلق فرعاً ، والمسك أصلاً ، أمر واجب ، من حيث كان المعلوم من طريق الإحساس والعيان ، متقدماً على المعلوم من طريق الروية وهاجس الفكر .

وحكم هذا في أن الفرع لا يخرج عن كونه فرعاً على الحقيقة حكم ما طريق التشبيه فيه المبالغة من المشاهدات والمحسوسات كقولك : هو حلك الغراب في السواد لما هو دونه فيه^(١) . وقولك في الشيء من الفواكه مثلاً هو كالعسل فكما لا يصح أن يعكس فيشبه حلك الغراب بما هو دونه في السواد والعسل بما لا يساويه في صدق الحلاوة ، كذلك لا يصح أن تقول هذا مسك كخلق فلان ، إلا على ما قدمت من التخيل . ألا ترى أنه كلام لا يقوله إلا من يريد مدح المذكور . فأما أن يكون القصد بيان حال المسك على حد قصدك أن تبين حال الشيء المشبه بحلك الغراب في السواد ، والمشبّه بالعسل في الحلاوة فما لا يكون . كيف ولولا سبق المعرفة من طريق الحس بحال المسك ، ثم جريان العرف بما جرى ، من تشبيه الأخلاق به ، واستعارة الطيب لها منه ، لم يتصور هذا الذي تريد تخيله من أنا نبالع في وصف المسك بالطيب تشبيهاً بخلق المدوح ، وعلى ذلك قولهم : « كأنما سرق المسك عرفه من خلقك ، والعسل حلاوته من لفظك » . هو مبني على العرف السابق من تشبيه الخلق بالمسك ، واللفظ بالعسل . ولو لم يتقدم ذلك ولم يتعارف ولم يستقر في العادات لم يعقل لهذا النحو من الكلام معنى ، لأن كل مبالغة ومجاز فلا بد من أن يكون له استناد إلى حقيقة .

وإذا ثبتت هذه الفروق والمقابلات بين والتشبيه الصريح الواقع في العيان ، وما يدركه الحس ، وبين التمثيل الذي هو تشبيه من طريق العقل والمقاييس التي تجمع بين الشئيين في حكم تقتضيه الصفة المحسوسة ، لا في نفس الصفة ، كما بينت لك في أول قول ابتدأته في الفرق بين التشبيه الصريح

(١) حلك الغراب بالتحديق حنكه وقيل سواده .

وبين التمثيل من أنك تشبه اللفظ بالعسل ، على أنك تجمع بينهما في حكم توجيه الحلاوة دون الحلاوة نفسها — فهنا لطيفة أخرى — تعطيك للتمثيل مثالا من طريق المشاهدة ، وذلك أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة ، إلا أنه يراها تارة في المرآة وتارة على ظاهر الأمر .

وأما في التشبيه الصريح ؛ فإنك ترى صورتين على الحقيقة . يبين ذلك أنا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ، ونفوسنا صور الأجسام في القرب والبعد وغيرها من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة ، لم يمكننا تخيل شيء من تلك الأوصاف في الأشياء المعقولة ، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان ، قريباً من حيث الجود والإحسان ، حتى يخطر ببالك ، وتطمح بفكرك ، إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك ، وقرب نوره منك ، وليس كذلك الحال في الشيثين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر ؛ فإنك لا تفتقر في معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته ، وتوسط أحمره لأبيضه ، إلى تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق ، كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه في قليل المشاهدة ، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التي معك ويحتلبها ، لكن من مكان بعيد حتى تراهما معاً وتجدهما جميعاً .

وأما في الأولى ، فإنك لا تجد في الفرع نفس ما في الأصل من الصفة وجنسه وحقيقته ، ولا يحضرك تمثيل الأصل على التعيين والتحقيق ، وإنما يخيل إليك أنه يحضرك ذلك ، فإنه يعطيك من المدوح بداراً ثانياً فصار وزان أن المرآة تخيل إليك أن فيها شخصاً ثانياً على صورة ما هي مقابلة له ، ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ما كنت تخيله ، فلا تجد إلى وجوده سبيلاً ، ولا تستطيع له تحصيلاً ، لا جملة ولا تفصيلاً .

فصل

« في الفرق بين الاستعارة والتثيل »

اعلم أن من المقاصد التي تقع العناية بها أن تبين حال الاستعارة مع التمثيل أهي هو على الإطلاق حتى لا فرق بين العبارتين أم حدها غير حده ، إلا أنها تبضمفه وتتصل به ، فيجب أن نفرد جملة من القول في حالها مع التمثيل .

قد مضى في الاستعارة أن حدها أن يكون للفظ اللغوي أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم . وهذا الحد لا يجي في معنى التمثيل الذي تقدم من أن الأصل في كونه مثلاً وتمثيلاً هو التشبيه المنزع من مجموع أمور ، والذي لا يحصله لك إلا جملة من الكلام أو أكثر ، لأنك قد تجد الألفاظ في الجمل التي يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها في اللغة .

وإذا كان الأمر كذلك بان أن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على المراد بالتمثيل إذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيل لوجب أن يصح إطلاقها في كل شيء يقال فيه إنه تمثيل ومثل . والقول فيها إنها دلالة على حكم ثبت للفظ وهو نقله عن الأصل اللغوي وإجراؤه على مالم يوضع له . ثم إن هذا النقل يكون في الغالب من أجل شبه بين ما نقل إليه وما نقل عنه .

وبيان ذلك ماضى من أنك تقول رأيت أسداً — تريد رجلاً شبيهاً به في الشجاعة ، وظبية — تريد امرأة شبيهة بالظبية . فالتشبيه ليس هو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه وهو كالفرض فيها ، أو كالعلة والسبب في فعلها . فإن قلت كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه

والتشبيه يكون ولا استعارة ، وذلك إذا جئت بحرفه الظاهر فقلت : زيد كالأسد . فالجواب أن الأمر كما قلت ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة . فقولى « من أجل التشبيه » أردت من أجل التشبيه على هذا الشرط . وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها . ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك « رأيت أسداً » أنك رأيت شجاعاً شبيهاً بالأسد وأن شبهه به فى الشجاعة على أنتم ما يكون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها . وإذا ثبت ذلك فكما لا يصح أن يقال إن الاستعارة هى الاختصار والإيجاز على الحقيقة وأن حقيقتها وحقيقتها واحدة ، ولكن يقال إن الاختصار والإيجاز يحصلان بها ، أو هما غرضان فيها ، ومن جملة ما دعا إلى فعلها ، كذلك حكم التشبيه معها . فإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة ، لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً .

وإذا قد تقرر هذه الجملة فإذا كان المشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجرى مجراها من الأوصاف المعروفة كان حكمها أن يقال إنها تتضمن التشبيه ولا يقال إن فيها تمثيلاً وضرب مثل وإذا كان الشبه عقلياً جاز إطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الاسم مثلاً لكذا كقولنا ضرب النور مثلاً للقرآن ، والحياة مثلاً للعالم . فقد حصلنا من هذه الجملة على أن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله فى اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلى إلى مكان آخر لأجل الأغراض التى ذكرنا من

التشبيه والمبالغة والاختصار : والضارب للمثل لا يفعل ذلك ولا يقصده ولكنه يقصد إلى تقرير الشبه بين الشيئين من الوجه الذى مضى . ثم إن وقع فى أثناء ما يعقد به المثل من الجملة والجلتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها فذاك شيء لم يعتمد من جهة المثل الذى هو ضاربه . وهكذا كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت زيد كالأسد ، وهذا الخبر كالشمس فى الشهرة : وله رأى كالسيف فى المضاء ، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب أن لا يكون فى الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهذا محال لأن التشبيه معنى من المعانى وله حروف وأسماء تدل عليه فإذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم فى سائر المعانى فاعرفه .

واعلم أن اللفظة المستعارة لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلاً ، فإذا كانت اسماً كان اسم جنس أو صفة ، فإذا كان اسم جنس فإنك تراه فى أكثر الأحوال التى تنقل فيها محتملاً متكفئاً بين أن يكون للأصل وبين أن يكون للفرع الذى من شأنه أن ينقل إليه . فإذا قلت رأيت أسداً ، صاح هذا الكلام لأن تريد به أنك رأيت واحداً من جنس السبع المعلوم وجاز أن تريد أنك رأيت شجاعاً بأسلاً شديد الجراءة وإما يفصل لك أحد الغرضين من الآخر شاهد الحال وما يتصل به من الكلام من قبل وبعد . وإن كان فعلاً أو صفة كان فيهما هذا الاحتمال فى بعض الأحوال ، وذلك إذا اسندت الفعل وأجريت الصفة على اسم مبهم يقع على ما يكون أصلاً فى تلك الصفة وذاك الفعل وما يكون فرعاً فيهما نحو أن تقول : أنار لى منيره .

(١٤ - أسرار البلاغة)

فهذا الكلام يحتمل أن يكون « أنار » « ومنير » فيه واقعين على الحقيقة بأن يعنى بالشئ بعض الأجسام ذوات النور . وأن يكونا واقعين على المجاز بأن تريد بالشئ نوعاً من العلم والرأى وما أشبه ذلك من المعانى التى لا يصح وجود النور فيها حقيقة وإنما توصف به على سبيل التشبيه . وفى الفعل والصفة شئ آخر وهو أنك كأنك تدعى معنى اللفظ المستعار له . فإذا قلت : قد أنارت حجته ، وهذه حجة منيرة ، فقد ادعيت للحجة النور ولذلك تجيء فتضيفه إليه كما تضاف المعانى التى يشتق منها الفعل والصفة إلى الفاعل والموصوف فتقول : نور هذه الحجة جلا بصرى وشرح صدرى كما تقول : نور الشمس . والمثل لا يوجب شيئاً من هذه الأحكام ، فلا هو يقتضى تردد اللفظ بين احتمال شيئين ولا أن يدعى معناه للشئ ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله .

وإذ قد ثبت هذا الأصل فاعلم أن ههنا أصلاً آخر يدنى عليه وهو أن الاستعارة وإن كانت تعتمد التشبيه والتمثيل وكان التشبيه يقتضى شيئين مشبهاً ومشبهاً به وكذلك التمثيل لأنه كما عرفت تشبيه إلا أنه عقلى — فإن الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك : رأيت أسداً تريد رجلاً شجاعاً ، ووردت بحراً زاحراً تريد رجلاً كثيراً الجود فأئض الكف ، وأبديت نوراً تريد علماً ، وما شاكل ذلك . فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى . وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كى تقوى أمر المشابهة وتشدده ويكون لها هذا الصنيع

حيث يقع الاسم المستعار فاعلاً أو مفعولاً أو مجروراً بحرف الجر أو مضافاً إليه ،
فالفاعل كقولك : بدا لي أسد ، وانبرى لي ليث ، وبدا نور ، وظهرت شمس
ساطعة ، وفاض لي بالمواهب بحر ، وكقوله :

وفي الجيرة الغادين من بطن وَجْرة غزال كحيل المقلتين ريب^(١)
والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسداً . والمجرور نحو قولك لا عار إن فر
س أسد يزأر ، والمضاف إليه كقوله :

يا ابن الكواكب من أئمة هاشم والرجح الأحساب والأحلام
وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكوراً ، وكان مبتدأ واسم
المشبه به واقعاً في موضع الخبر ، كقولك زيد أسد ، أو على هذا الحد . وهل يستحق
الاسم في هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا ؟ فيه شبهة وكلام سيأتيك إن شاء
الله تعالى .

وإذا قد عرفت هذه الجملة فينبغي أن تعلم أنه ليس كل شيء يحى
مشبهاً به بكاف أو بإضافة « مثل » إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة
وينفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك :
أبدت نوراً ، تريد علماً ، وسللت سيفاً صارماً ، تريد رأياً نافذاً . وإعما يجوز
ذلك إذا كان الشبه بين الشئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ، ويكون
في الحال دليل عليه وفي العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت
له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت فكل شيء كان من الضرب
الأول الذي ذكرت أنك تكفي فيه بإطلاق الاسم داخلاً عليه حرف
التشبيه نحو قولهم : هو كالأسد ، فإنك إذا أدخلت عليه حكم الاستعارة

(١) وجرة موضع بين مكة والبصرة

وجدت في دليل الحال وفي العرف ما يبين غرضك ، إذا علم إذا قلت رأيت أسد —
وأنت تريد الممدوح — أنك قصدت وصفه بالشجاعة وإذا قلت طلعت شمس —
وأنت تريد امرأة — علم بأنك تريد وصفها بالحسن وإن أردت الممدوح علم أنك
تقصد وصفه بالنباهة والشرف .

فأما إذا كان من الضرب الثاني لاسبيل إلى معرفة المقصود من الشبه
فيه إلا بعد ذكر الجمل التي يعقد بها التمثيل فإن الاستعارة لا تدخله لأن وجه
الشبه إذا كان غامضاً لم يجز أن تقتصر الاسم وتغصب عليه موضعه وتنقله إلى
غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ينبي عن الشبه ، فلو حاولت
في قوله : « فإنك كالليل الذي هو مدركي » أن تعامل الليل معاملة الأسد
في قولك : رأيت أسداً — أعني أن تسقط ذكر الممدوح من البين —
لم تجد له مذهباً في الكلام ولا صادفت طريقة توصلك إليه ، لأنك لا تخلو
من أحد أمرين إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجرداً فتقول :
إن فررت أظلني الليل . وهذا محال لأنه ليس في الليل دليل على النكته
التي قصدها من أنه لا يفوته وإن أبعد في الحرب ، وصار إلى أقصى
الأرض لسعة ملكه وطول يده ، وأن له في جميع الآفاق عاملاً وصاحب
حبس ومطيعاً لأوامره ، يرد الهارب عليه ، ويسوقه إليه ، وغاية ما يتأتى
في ذلك أنه يريد إن هرب عنه اظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد فصار
كمن يحصل في ظلمة الليل ، وهذا شيء خارج عن الغرض ، وكلامنا على
أن تستعير الاسم لتؤدي به التشبيه الذي قصد في البيت ولم أرد أنه لا يمكن
استعارته على معنى ما ولا يصلح في غرض من الأغراض ، وإن لم تحذف
الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدي إلى تعسف إذ لو قلت : إن

فررت منك وجدت ليلا يدركني وإن ظننت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد — قلت ما لا تقبله الطباع ، وسلسكت طريقة مجهولة لأن العرف لم يجز بأن تجعل الممدوح ليلا هكذا .

فأما قولهم : إن التشبيه بالليل يتضمن الدلالة على سخطه فإنه لا يفسح في أن يجري اسم الليل على الممدوح جرى الأسد والشمس ونحوهما ، وإنما تصلح استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة ؛ كما قال ابن طباطبا : * بعثت معي قطعاً من الليل مظلماً * يعني زنجياً قد أنفذه الخطاب معه حين انصرف عنه إلى منزله ، هذا — ويأثله كلما وجدت ما إن رمت فيه طريقة الاستعارة لم تجد فيه هذا القدر من التحل والتسكف أيضاً ، وهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » . قل الآن من أى جهة تصل إلى الاستعارة ههنا ، وبأى ذريعة تتذرع إليها ؟ هل تقدر أن تقول : رأيت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة ، في معنى رأيت ناساً والإبل المائة التي لا تجد فيها راحلة تريد الناس ، كما قلت : رأيت أسداً ، على معنى رجلاً كالأسد وأطلقت عليه الأسد على معنى الذي هو الأسد ؟ . وكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة » ^(١) . لا تستطيع أن تتعاطى الاستعارة في شيء منه فتقول : رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمناً . إن من رام مثل هذا كما قال صاحب الكتاب ملغزاً تاركاً لكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم . وقد قدمت طرفاً من هذا الفصل فيما مضى ولكنني أعدته ههنا لاتصاله بما نريد ذكره .

(١) الخامة الغضة الرطبة من النبات ، والحديث : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا » قال الطرماح :
إنما نحن مثل خامة زرع فمضى بأن يأت محتصده

فقد ظهر أنه ليس كل شيء يحىء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والاقتصار على المشبه به . وبقي أن يتعرف الحكم في الحالة الأخرى وهي التي يكون كل واحد من المشبه والمشبه به مذكوراً فيها نحو : زيد أسد ووجدته أسداً ، هل تساوق صريح التشبيه حتى يجوز في كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف من الثاني وتجعله خبراً عن الأول أو بنزلة الخبر ؟ والقول في ذلك : أن التشبيه إذا كان صريحاً بالكاف . و « مثل » كان الأعراف الأشهر في المشبه به أن يكون معرفة كقولك : هو كالأسد وهو كالشمس وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبيح وكالنجم وما شاكل ذلك ، ولا يكاد يحىء نكرة بحيثاً يرتضى ، نحو هو كأسد وكبحر وكغيث ، إلا أن يخصص بصفة نحو : كبحر زاخر ، فإذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معرباً بالإعراب الذي يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين — التعريف والتذكير — فيه حسناً جميلاً . تقول : زيد الأسد والشمس والبحر . وزيد أسد وشمس وبدر وبحر .

وإذا قد عرفت هذا فارجع إلى نحو « فإنك كالليل الذي هو مدركى » واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور (الليل) خبراً فتقول : فإنك الليل الذي هو مدركى . أو أنت الليل الذي هو مدركى . وتقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع » المؤمن الخامة من الزرع . وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس كإبل مائة » : الناس إبل مائة . ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حد : (واسئل القرية) تجعل الأصل فإنك مثل الليل ثم تحذف مثلاً .

والنكتة في الفرق بين هذا الضرب الذي لا بد المجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذي هو نحو زيد كالأسد ، أنك إذا حذف الكاف هناك فقلت : زيد الأسد فائقصد أن تبالغ في التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير إلى مثل ما يحصل لك من المعنى إذا حذف ذكر المشبه أصلاً فقلت : رأيت أسداً أو الأسد . فأما في نحو « فإنك كالليل الذي هو مدركي » فلا يجوز أن تقصد جعل المدوح الليل والكنك تنوى أنك أردت أن تقول : فإنك مثل الليل ثم حذف المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف . وأما هناك فإنه وإن كان يقال أيضاً إن الأصل زيد : مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد بل على أنه جعل كان لم يكن لقصد المبالغة . ألا تراهم يقولون جعله الأسد وبعيد أن تقول جعله الليل لأن القصد لم يقع إلى وصف في الليل كالظلمة ونحوها وإنما قصد الحكم الذي له من تعميمه الآفاق وامتناع أن يصير الإنسان إلى مكان لا يدركه الليل فيه .

وإن أردت أن تزداد علماً بأن الأمر كذلك أعنى أن ههنا ما يصلح فيه التشبيه الظاهر ولا تصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثاني فاعمد إلى ما تجد الاسم الذي افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقوله تعالى « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » الآية لو قلت : إنما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء أو الماء ينزل من السماء فتخضر منه الأرض ، لم يكن للكلام وجه ، غير أن تقدر حذف « مثل » نحو إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت

وكيت ، إذ لا يتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده ، وقد أفرد كما قد يتخيل في البيت أنه قصد تشبيه المدوح بالليل في السخط . وهذا موضع في الجملة مشكل ولا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، ولكن لاسبيل إلى جحد أنك نجد الاسم في الكثير وقد يوضع موضعاً في التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه في ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة والمبالغة ، وجعل هذا ذاك ، لم ينقد لك كالنكرة التي هي « ماء » في الآية وفي الآي الأخر نحو قوله تعالى (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) ولو قلت : هم صيب ولا تضر مثلاً الآية على حد « هو أسد » لم يجز لأنه لا معنى لجمعهم صيباً في هذا الموضع ، وإن كان لا يمتنع أن يقع صيب في موضع آخر ليس من هذا الغرض في شيء استعارة ومبالغة كقولك : فاض صيب منه تريد جوده : وهو صيب يفيض ، تريد يتدفق في الجود — فلننا نقول إن ههنا اسم جنس واسماً صفة لا يصلح للاستعارة في حال من الأحوال .

وهذا شعب من القول^(١) يحتاج إلى كلام أكثر من هذا ويدخل فيه مسائل ولكن استقصاءه يقطع عن الغرض . فإني قلت فلا بد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة والمبالغة وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع . ولكن ههنا

(١) أى جانب وناحية منه فهو بالكسر وقال شيخنا في الدرس : لو جعل الشعب بمعنى القبيلة والطائفة — فيكون بالفتح — لم يكن بعيداً عن المراد انتهى . وكلا الاستعارتين للقول من المحاسن التي لم نعرفها لغير المصنف .

نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها ، وهي أن الشبه إذا كان وصفاً معروفاً في الشيء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعرف كونه أصلاً فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس أو الاشتهار والظهور وأنها لا تخفى فيها أيضاً^(١) وكالطيب في المسك والحلاوة في العسل والمرارة في الصاب والشجاعة في الأسد والفيض في البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة في السيف والنفاذ في السنان وسرعة المرور في السهم وسرعة الحركة في شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم في معانيه — فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشبه تجيء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعرف كونها أصولاً فيها^(٢) وأنها أخص ما توجد فيه بها ، فكل أحد يعلم أن أخص المنيرات^(٣) بالنور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد . ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة ، لم يجوز أن تدل عليه بالاستعارة ، ولكن إن أردتها من الفلك جاز ، فإن قصدتها من الكرة كان أبين لأن الاستدارة من الكرة أشهر وصف فيها . ومتى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بها أفصح ، أعني أنك إذ قلت : « يا ابن الكواكب من أئمة هاشم » : و « يا ابن الليوث الغر » فأجريت الاسم على المشبه إجراءه على أصله الذي وضع له . وادّعيته له كان قولك : هم الكواكب وهم

(١) فيها مرتبط بالاشتهار والظهور وانها لا تخفى

(٢) أي تعرف كون الأسماء أصولاً في الأوصاف وأن الأسماء أخص ما توجد

فيه تلك الأوصاف بالأوصاف

(٣) لعل أصلها النيرات إذ اعتيد إطلاقها على الكواكب .

الليوث ، أو هم كواكب وليوث ، أخرى أن تقوله ، وأخف مؤنة على السامع في وقوع العلم له به .

واعلم أن المعنى في المبالغة — وتفسيرنا لها بقولنا جعل هذا وذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة — أن للشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذي به يجمع بين الشئين وينفى عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ماعداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حظاً ظاهراً في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد ، تنهى في الدعوى إما قريباً من الحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجاوزاً في القول لجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً . وإذا كان بحكم التشبيه وبأنه مقصوده من ذكر الأسد في حكم من يعتقد أن الاسم لم يوضع على ذلك السبع إلا للشجاعة التي فيه ، وأن ماعداها من صورته وسائر صفاته عيال عليها وتبع لها في استحقاقه هذا الاسم ، ثم أثبت لهذا الذي يشبهه به تلك الشجاعة بعينها حتى لا اختلاف ولا تفاوت^(١) فقد جعل الأسد له لا محالة لأن قولنا « هو هو » على معنيين (أحدهما) أن يكون للشيء اسمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر ، فإذا ذكر باسمه الآخر توهم أن معك شيئين ، فإذا قلت : زيد هو أبو عبد الله ، عرفت أن هذا الذي تذكر الآن هو الذي عرفه بأبي عبد الله . و (الثاني) أن يراد تحقيق التشابه بين الشئين وتكميله لهما ، ونفى الاختلاف والتفاوت عنهما ، فيقال « هو هو » أى لا يمكن الفرق بينهما لأن الفرق يقع إذا اختص

(١) قوله : فقد جعل الخ جواب قوله : وإذا كان بحكم التشبيه الخ .

أحدهما بصفة لا تكون في الآخر . وهذا المعنى الثانى فرع على الأول وذلك أن المتشابهين التشابه التام لما كان يحسب أحدهما الآخر ويتوهم الرأى لهما فى حالين أنه رأى شيئاً واحداً صاروا إذا حققوا التشبيه بين الشئين يقولون « هو هو » والمشبّه إذا وقف وهمه كما عرفتكم على الشجاعة دون سائر الأمور ثم لم يثبت بين شجاعة صاحبه وشجاعة الأسد فرقاً فقد صار إلى معنى قولنا « هو هو » بلا شبهة .

وإذا تقررت هذه الجملة فقولنا * فإنك كالليل الذى هو مدركى * إن حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فإنك الليل الذى هو مدركى — لزمك لا محالة أن تعتمد إلى صفة من أجلها تجعله الليل كالشجاعة التى من أجلها جعلت الرجل الأسد . فإن قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم فى عينيه ، حسب الحال فى المستوحش الشديد الوحشة كما قال * أعيذوا صباحى فهو عند الكواعب * قيل لك هذا التقدير إن استجزناه وعملنا عليه فإننا نحتمله والكلام على ظاهره وحرف التشبيه المذكور داخل على الليل كما تراه فى البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يحىء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم إلا بعد أن تتدارك وتقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله : « أنت الصاب والعسل » ولا تقول وأنت مادح : أنت الصاب ، وأسكت ، وحتى ان الحاذق لا يرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتال فى دفع ما يغشى النفس من الكراهة بإطلاق الصفة التى ليست من الصفات المحبوبة فيصل بالكلام ما يخرج به إلى نوع من المدح كقول المتنبي :

حَسَنَ فِي وَجْهِ أَعْدَائِهِ أَقْبَى بِحَ مِنْ ضَيْفِهِ رَأَتْهُ السَّوَامُ^(١)
 بدأ فجعله حسناً على الإطلاق ، ثم أراد أن يجعله قبيحاً في عيون أعدائه
 على العادة في مدح الرجل بأن عدوه يكرهه فلم يقنعه ما سبق من تمهيد ،
 وتقدم من احترازه في تلافي ما يجنيه إطلاق صفة القبح ، حتى وصل به هذه
 الزيادة من المدح ، وهي كراهة سوامه لرؤية أضيافه ، وحتى حصل ذكر القبح
 مغفوراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : يقع النحس مضغوطاً بين
 سعدين ، فيبطل فعله وينمحق أثره . وقد عرفت ما جنأ التهاون بهذا النحو
 من الاحتراز على أبي تمام ، حتى صار ما ينعي عليه منه أبلغ شيء في بسط
 لسان القادح فيه ، والمنكر لفضله ، وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه
 لم يبال في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ واقتصر على صميم التشبيه
 وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبیه كقوله :

وَإِذَا مَا أَرَدْتُ كُنْتُ رِشَاءً وَإِذَا مَا أَرَدْتُ كُنْتُ قَلْبِيًّا^(٢)

فصك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال :

مَا زَالَ يَهْدِي بِالْمُسْكَارِ وَالْعَلَى حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ مَحْمُومٌ

لجعله يهذى وجعل عليه الحمى ، وظن أنه إذا حصل له المبالغة في إثبات
 المكارم له وجعلها مستبعدة بأفكاره وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها ،
 فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجاني ، والمدح المتنافي ، فكذلك

(١) قوله « في وجوه أعدائه » هكذا ورد في نسختي الكتاب هنا وفيما سبق
 والرواية الصحيحة « في عيون أعدائه » ويدل على الرواية الصحيحة قول المصنف :
 « ثم أراد أن يجعله قبيحاً في عيون أعدائه » ، ولعل الخطأ من تحريف النساخ .

(٢) يروي أول البيت : فإذا . والرشاء جبل الدلو والقليب البثر ، وقبل البيت :

مَطَرٌ لِي بِالْجَاهِ وَالْمَالِ مَا أَلَا قَمَاكَ إِلَّا مَسْتَوْهَبًا أَوْ وَهَبًا

أنت هذه قصتك ، وهذه قضيتك ، في اقتراحك علينا أن نسلط بالليل في البيت طريق المبالغة على تأويل السخط .

(فإن قلت) انترى أن تأبى هذا التقدير في البيت أيضاً حتى يقصر التشبيه على ما تفيدده الجملة الجارية في صلة الذي ؟ (قلت) فإن ذلك الوجه فيما أظنه فقد جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يدخلن هذا الدين ما دخل عليه الليل » فكما تجرد المعنى ههنا للحكم الذي هو الليل من الوصول إلى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه كذلك يجوز أن يتجرد في البيت له ويكون ما ادعوه من الإشارة بظلمة الليل إلى إدراكه له سائطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده . وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : إن النهار بمنزلة الليل في وصوله إلى كل مكان فما من موضع من الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما فكما أن الكائن في النهار لا يمكنه أن يصير إلى مكان لا يكون به ليل كذلك الكائن في الليل لا يجد موضعاً لا يلحقه فيه نهار ، فاخصاصه الليل دليل على أنه قد رؤى في نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى ، ويمكن أن يزاد في نصرته بقوله :

نعم كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

وذلك أنه قصد ههنا نفس ما قصده المبالغة في تعميم الأفطار والوصول إلى كل مكان ، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصى البلاد ، وانتشارها في العباد ، بالليل ووصوله إلى كل بلد ، وبلوغه كل أحد ، لكان قد أخطأ خطأ

فاحشاً ، إلا أن هذا وإن كان يحىء مستويًا في الموازنة ففرق بين ما تكره من الشبه وما تحب ، لأن الصفة المحبوبة إذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريباً مما يناله الغرض نفسه . وأما ما ليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحاً وتدع الفكر فيها .

وأما تركه أن يمثل بالنهار وإن كان بمنزلة الليل فيما أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا بحالة ، وإذا كان يكلمه وهو في النهار بُعد أن يضرب المثل بإدراك النهار له ، وكان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذى إقباله منتظر ، وطريانه على السهار متوقع ، فكأنه قال وهو فى صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك ، لم أجد مكاناً يقينى الطلب منك ، ولـكان إدراكك لى وإن بعدت واجباً كإدراك هذا الليل المقبل فى عقب نهارى هذا إياى ، ووصوله إلى أى موضع بلغت من الأرض .

وهنا شىء آخر وهو أن تشبيه النعمة فى البيت بالشمس وإن كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلًا على سبيل العرض وبضرب من التطفل ، فإن تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع ، وجعله أصلاً ومقصوداً على الانفراد مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة . وليس كذلك الحكم فى الليل ، لأن تجريده لوصف الممدوح بالسخط مستكره حتى لو قلت : أنت فى حال السخط ليل وفى الرضى نهار ، فطفت هكذا تجعله بسخطه ، لم يحسن ، وإنما الواجب أن يقول : النهار ليل على من يغضب عليه ، والليل نهار لمن يرضى عنه ، وزمان عدوك ليل كله ، وأوقات وإليك نهار كلها ، كما قال :

أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالي كلها أسحار
وقد يقول الرجل لمحبوبه : أنت ليلي ونهاري . أى بك تضيء الدنيا وتظلم ،
فإذا رضيت فدهري نهار ، وإذا غضبت فليل ، كما تقول : أنت دائي ودوائي ،
وبرئي وسقامي ، ولا تكاد تجد أحداً يقول « أنت ليل » على معنى أن سخطك
تظلم به الدنيا ، لأن هذه العبارة بالذم وبالوصف بالظلمة وسواد الجلد وتجهم الوجه
أنخص ، وبأن يراد بها أخلق ، وهذا المعنى منها إلى القلب أسبق ، فأعرفه .

فصل

اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذي يقتضى كونه
مستعاراً ثم لا يكون مستعاراً ، وذلك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره ،
وليس له شبه ينفرد به ، على ما قدمت لك من أن الشبه يجيئ منتزعاً من مجموع جملة
من الكلام فمن ذلك قول داود بن علي حين خطب فقال :

شكراً شكراً إنا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ،
أظن عدو الله أن لن نظفر به ، أرخى له في زمامه ، حتى عثر في فضل
خطامه ، فالآن عاد الأمر في نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن
قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره
في أهل بيت الرأفة والرحمة^(١) .

(١) الخطام ككتاب جبل يجعل في عنق البعير ويشئ في خطمه ، وكل ما وضع في
عنظم البعير (انفه) ليقتابه . والنزعة بالتحريك الرماة بالنبل جمع نازع وفي الامثال
« صار الامر الى النزعة » أى قام باصلاحه اهل الاناة والسياسة . ومنها « عاد السهم
الى النزعة » أى رجع الحق الى اهلها فالجملة في كلام الخطيب بمعنى ما قبلها وما بعدها
مراداً لا مفهوماً

فقله : الآن أخذ القوس باريها — وإن كان القوس يقع كناية عن الخلافة والبارى عن المستحق لها — فإنه لا يجوز أن يقال إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد وأن يقال « هي قوس » كما يقال « هي نور وشمس » وإنما الشبه مؤلف بحال الخلافة^(١) مع القائم بها ومن حال القوس مع الذى براها ، وهو أن البارى للقوس أعرف بخيرها وشرها ، وأهدى إلى توتيرها وتصريفها إذ كان العامل لها . فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة فى الإمامة والجامع لها يكون أهدى إلى توفية الخلافة وأعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل ، وأن يراعى فى سياسة الخلق بالأمر والنهى التى هى المقصود منها ترتيباً ووزناً تقع به الأفعال مواقعها من الصواب ، كما أن العارف بالقوس يراعى فى تسوية جوانبها ، وإقامة وترها ، وكيفية نزعتها ، ووضع السهم الموضع الخاص منها . ما يوجب فى سهامه أن تصيب الأغراض ، وتُقرطسَ فى الأهداف ، وتقع فى المقاتل ، وتصيب شاكلة الرمى^(٢) .

وهكذا قول القائل وقد سمع كلاماً حسناً من رجل دميم : « عسل طيب فى ظرف سوء » ليس (عسل) ههنا على حده فى قولك : أفاظه عسل ، لأجل أنه لم يقصد إلى بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسل فى

(١) كانه جعل « مؤلفاً » فى معنى مصور ومحصل فعداء بالباء (ش) يعنى على سبيل التضمين وهو سماعى عند الجمهور فهل يعده عبد القاهر وهو من أئمة النحاة قياسياً أم هذا خطأ من الناسخ كما يدل عليه قوله : ومن حال القوس الخ

(٢) تقرطس تصيب القرطاس وهو الهدف وتقدم . والشاكلة الحاصرة والرمى الصيد المرمى ولم أرهم يقولونه الا بالتاء (الرمية)

هذا الكلام الحسن من المتكلم المشنوء في منظره ، وإنما قصد إلى قياس اجتماع فضل المخبر ، مع نقص المنظر ، بالشبه المؤلف من العسل والظرف ، ألا ترى أن الذى يقابل الرجل هو « ظرف سوء » وظرف سوء لا يصلح تشبيه الرجل به على الانفراد ، لأن الدمامة لا تعطيه صفة الظرف من حيث هى دمامة ما لم يتقدم شيء يشبه ما فى الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل ، أو سائر المعانى التى تجعل الأشخاص أوعية لها .

فمن حقت أن تحافظ على هذا الأصل وهو أن الشبه إذا كان موجوداً فى الشيء على الانفراد من غير أن تكون نتيجة بينه وبين شيء آخر — فالاسم مستعار لما أخذ الشبه منه كالنور للعلم ، والظلمة للجهل ؛ والشمس للوجه الجميل ، أو الرجل النبىء الجليل . وإذا لم تكن نسبة الشبه إلى الشيء على الانفراد وكان مركباً من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن مجموع الكلام مثل .

واعلم أن هذه الأمور التى قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة . وذلك أنها معروفة على الجملة لا ينكر بيانها فى نفوس العارفين ذوق الكلام والمتمهرين فى فصل جيده من رديئه^(١) ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجرى مجرى القوانين التى يرجع إليها فتستخرج منها العلل فى حسن ما استحسن ، وقبح ما استهجن ، حتى تعلم علم اليقين غير الموهوم ، ويضبط ضبط المزموم المخطوم^(٢) ، واعلم اللال إن عرض

(١) تمهر الرجل حذق كهر .

(٢) المزموم والمخطوم واحد فى المعنى . فالأول ما شد بالزمام أى العقود . والثانى البعير وضع على خطمه (كأنفه وزنا ومعنى) الخطام (وتقدم تفسيره) ليقناد وكذا المنوع من الكلام .

لك ، أو النشاط إن فتر عنك ، قلت ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة وإنما يكفي أن يقال : الاستعارة مثل كذا ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات ، وهكذا يكفيننا المؤنة في التشبيه والتمثيل يسير من القول . فإنك تعلم أن قائلها لو قال : الخبر مثل قولنا : زيد منطلق . ورضى به وقنع ولم تطالبه نفسه بأن يعرف حداً للخبر إذا عرفه تميز في نفسه من سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم أن هذا كلاماً لفظه الخبر وليس هو بخبر ولكنه دعاء كقولنا : رحمة الله عليه ، وغفر الله له . ولم يجد في نفسه طلباً لأن يعرف أن الخبر هل ينقسم أو لا ينقسم ، وأن أول أمره في القسمة أنه ينقسم إلى جملة من الفعل والفاعل ، وجملة من مبتدأ وخبر ، وأن ما عدا هذا من الكلام لا يأتلف بقم ، ولم يجب أن يعلم أن هذه الجملة يدخل عليها حروف بعضها يؤكد كونها خبراً وبعضها يحدث فيها معاني تخرج بها عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب . وهكذا يقول إذا قيل له « الاسم مثل زيد وعمرو » : اكتفيت ولا أحتاج إلى وصف أو حد يميزه من الفعل والحرف أو حد لهما إذا عرفتهما عرفت أن ما خالعهما هو الاسم على طريقة الكتاب ويقول : لا أحتاج إلى أن أعرف أن الاسم ينقسم فيكون متمكناً أو غير متمكن ، والمتمكن يكون منصرفاً وغير منصرف ، ولا إلى أن أعلم شرح غير المنصرف والأسباب التسعة التي يقف هذا الحكم على اجتماع سببين منها أو تكرر سبب في الاسم^(١) ولا أنه ينقسم إلى المعرفة والنكرة ، وأن النكرة ما عم شيئين فأكثر ، وما أريد به واحد من الجنس لا بعينه ، والمعرفة ما أريد

= وكلام المصنف هنا صريح في أن البيان كان قبل تصنيفه هو لهذا الكتاب أمراً ذوقياً لا فناً ذا قواعد وحدود ورسوم ، وأنه هو الذي جعله فناً أو علماً مدوناً .

(١) يريد بتكرر السبب قيامه مقام السببين .

به واحد بعينه أو جنس بعينه على الإطلاق ، ولا إلى أن أعلم شيئاً من الانقسامات التي تجيء في الاسم — كان قد أساء الاختيار وأسرف في دعوى الاستغناء عما هو محتاج إليه إن أراد هذا النوع من العلم^(١) .

ولئن كان الذي يتكلف شرحه لا يزيد على مؤدى ثلاثة أسماء وهي التمثيل والتشبيه والاستعارة فإن ذلك يستدعى جملاً من القول يصعب استقصاؤها ، وشعباً من الكلام لا نستبين لأول النظر أنحاؤها ، إذ قولنا « شيء » يحتوي على ثلاثة أحرف ولكنك إذا مددت يداً إلى القسمة ، وأخذت في بيان ما تحويه هذه اللفظة ، احتجت إلى أن تقرأ أوراقاً لا تحصى ، وتتجشم من المشقة والنظر والتفكير ما ليس بالقليل النزر . والجزء الذي لا يتجزأ يفوت العين ويدق عن البصر ، والكلام عليه يملأ أجلاً عظيمة الحجم . فهذا مثلك إن أنكرت ما عنيت به من هذا التبع ، ورأيت من البحث وآثرته من تجشم الفكرة ، وسومها أن تدخل في جوانب هذه المسائل وزواياها ، وتستثير كوامنها وخفاياها ، فإن كنت ممن رضى لنفسه أن يكون هذا مثله ، وههنا محله ، فعب كيف شئت ، وقل ما هويت ، وثق بأن الزمان عونك على ما ابتغيت ، وشاهدك فيما ادعيت ، وأنتك واجد من يصوب رأيك ويحسن مذهبك ، ويخاصم عنك ، ويعادى المخالف لك^(٢) .

(١) يعنى علم اليقين (ش) والمتبادر أن المصنف أراد علم النحو .

(٢) قد وقع ما توقعه المصنف من اكتفاء الجمهور بعده بالإجمال من معنى التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها من قواعد البيان والمعاني ، وتركوا هذا التفصيل الفلسفى الذى هو روح العلم ولبابه ، حتى صار أوسع الناس علماً بتلك المصطلحات والتعريفات والتقسيمات الجافة ، أجهلهم بالبلاغة ، والفصاحة ، وأعرقهم فى العى والفهامة ، وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ ، دع إنشاء مرسل أو مشورا أو منظوما .

فصل

في الأخذ والسرقة وما في ذلك من التعليل
وضروب الحقيقة والتخييل

(القسم العقلي)

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق ، واقتدى بمن تقدم
وسبق ، لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً أو في صيغة تتعلق بالعبارة .
ويجب أن نتكلم أولاً على المعاني ، وهي تنقسم أولاً قسمين عقلي وتخييلي ،
وكل واحد منهما يتنوع . فالذي هو العقلي على أنواع . أولها عقلي صحيح ، مجراه
في الشعر والكتابة ، والبيان والخطابة ، مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء ، والفوائد
التي تثيرها الحكماء ، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبي
صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم ومنقولا من آثار السلف الذين
شأنهم الصدق ، وقصدهم الحق . أو ترى له أصلا في الأمثال القديمة والحكم الماثورة
عن القدماء . فقله :

وما الحسب الموروث لا دردره بمحتسب إلا بآخر مكتسب
ونظائره كقوله :

إني وإن كنت ابن سيد عامر وفي السر منها والصريح المذهب
فما سودتني عامر عن ورائة أبي الله أن أسمو بأم ولا أب
معنى^(١) صريح محض يشهد له العقل بالصحة ، ويعطيه من نفسه

(١) قوله معنى صريح الخ خبر مبتدأ هو قوله : فقله * وما الحسب الموروث الخ
وما عطف عليه ، يعني أن قول الشاعر صاحب البيت الأول في الحسب ونظائره كقول
الشاعر صاحب البيتين الآخرين فيه معنى صريح معقول .

أكرم النسبة^(١) ، وتتفق العقلاء عَلَى الأخذ به ، والحكم بموجبه ، فى كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل فى كل لسان ولغة ، وأعلى مناسبة وأنورها ، وأجلها وأخزها ، قول الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »^(٢) وقوله عليه السلام : « يا بنى هاشم لا تبحثنى الناس بالأعمال وتبحثنونى بالأنساب »^(٣) وذلك أنه لو كانت القضية على ظاهر يغتر به الجاهل ويعتمده المنقوص لأدى ذلك إلى إبطال النسب أيضاً وإحالة التكثر به ، والرجوع إلى شرفه ، فإن الأول لو عدم الفضائل المكتسبة ، والمساعى الشريفة^(٤) ولم يبين من أهل زمانه بأفعال تؤثر ، ومناقب تدون وتسطر ، لما كان أولاً ولكان العلم من أمره مجهلاً ، ولما تصور افتخار الثانى بالانتماء إليه ، وتمويله فى المفاضلة عليه ، ولكان لا يتصور فرق بين أن يقول هذا أبى ، ومنه نسبي ، وبين أن ينسب إلى الطين ، الذى هو أصل الخلق أجمعين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم وآدم من التراب »^(٥) ، وقال محمد ابن الربيع الموصلى :

الناس فى صورة التشبيه أ كفاء أبوم آدم والأم حواء
فإن لم يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
فهذا كما ترى باب من المعانى التى تجمع فيها النظائر وتذكر الأبيات

(١) فىقال عقلى ، (ش) .

(٢) رواه مسلم من حديث طويل .

(٣) مروي بالمعنى .

(٤) يريد بقوله (الأول) الأب أو الجد مثلاً ممن يفتخر بالانتماء إليه .

(٥) من خطبة حجة الوداع .

الدالة عليها فإنها تتلاقى وتتناظر ، وتتشابه وتتشا كل ، ومكانه من العقل ما ظهر لك واستبان ، ووضح واستنار ، وكذلك قوله :

* وكل امرئ يولى الجليل محبب *

صريح معنى ليس للشعر فى جوهره وذاته نصيب ، وإنما له ما يلبسه من اللفظ ، ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية ، من الاختصار وخلافه ، والكشف أو ضده . وأصله قول النبى صل الله عليه وسلم : « جبات القلوب على حب من أحسن إليها »^(١) بل قول الله عز وجل : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وكذا قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته ، وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم ، إذ كان موضوع الجلبة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والنواة المعاندين ، الذين لا يعون الحكمة فتدعهم ، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصيح ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص النى والضلال ، وما فى الجور والظلم من الضعة والخلال ، فيجدوا لذلك مسألم يحبسهم على الأمر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجههم إلا ما يخرق الأبرار من حد الحديد ، وسطو البأس الشديد ، فلو لم تطمع

(١) من الأحاديث المشتهرة على الألسن بزيادة : « وبغض من أساء إليها » .

وروى مرفوعاً وموقوفاً عن ابن مسعود ، وكلاهما باطل ، وقيل أو الموقوف معروف عن الأعمش .

لأمثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الختوف ، لما استقام دين ولا دنيا ،
ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل
لم تُنْفَ عنه الأقداء ، ولا تقر الروح في بدن لم تدفع عنه الأدواء ، وكذلك
قوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلی
مضر كوضع السيف في موضع الندى

(القسم التخيلي)

وأما القسم التخيلي فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق ، وإن ما أثبتته
ثابت ، وما نفاه منفي ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لا يكاد يحصر
إلا تقريباً ، ولا يحاط به تقسيماً وتسويباً ، ثم إنه يجيء طبقات ، ويأتي على درجات
فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحدق ، حتى أعطى شهباً
من الحق ، وغشى رونقاً من الصدق ، باحتجاج بخيل ، وقياس يُصنع فيه ويُعمل ،
ومثاله قول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للسكان العالي
فهذا قد خيل إلى السامع ، أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة
في قدره ؛ وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس
أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه
قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام ، فالعلة أن السيل لا يستقر على
الأسكنة العالية ، أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب
تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس في الكريم والمال شيء
من هذه الخلال .

وأقوى من هذا في أن يظن حقاً وصدقاً وهو على التخييل قوله :

الشيب ككره وكره أن يفارقتني أعجب بشيء على البغضاء مودود
هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة ، لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه
الشيب ؛ فإذا هو أدركه كره أن يفارقه ، فتراه لذلك ينكره ويكرهه ، على
أن إرادته أن يدوم له ، إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة
والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة ، فأما كونه مراداً ومودوداً فتمثيل فيه
وليس بالحق والصدق ، بل المودود الحياة والبقاء ، إلا أنه لما كانت العادة
جارية بأن في زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان
العيش فيها محبباً إلى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له^(١) حتى يبقى الشيب كأنها
محبة للشيب .

ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه ، أو مدحه أو ذمه فتملقوا
ببعض ما يشاركه في أوصاف ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة ، وظواهر أمور
لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة كما تراه في باب الشيب والشباب
كقول البهتري :

وبياض البازي أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب
وليس إذا كان البياض في البازي آنق في العين ، وأخلق بالحسن من
السواد في الغراب ، وجب لذلك كله أن لا يذم الشيب ولا تنفر منه طباع
دوى الألباب ، لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون ، ولا أنت
النواي ما أنت من الصد والإعراض لمجرد البياض ، فإنهن يرينه في قباطي

(١) أى للحياة التي لا تبقى له إلا إذا بقي الشيب (ش) .

مصر فيأنسن^(١) ، وفي أنوار الروض وأوراق النرجس الفضّ فلا يعبسن ،
فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته ، بل لذهاب بهيجاته ،
وادباره في حياته ، وإنك لترى الصفرة الخالصة في أوراق الأشجار المتناثرة
عند الخريف وإقبال الشتاء وهبوب الشمال فتكرهها^(٢) وتنفر منها ، وتراها
بعضها في إقبال الربيع في الزهر المتفتق ، وفيما ينشئه ويشيه^(٣) من الديباج
المونق ، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية ، وتمتلىء من الأريحية ،
ذاك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة ، والحياة المستفادة ، وحيث
أبشرت أرواح الرياحين وبشرت أنواع التحاسين^(٤) ، ورأيت في الوقت
الأخر حين ولّت السعود ، واقشر العود^(٥) ، وذهبت البشاشة والبشر ،
وجاء العبوس والعسر — هذا ولو عدم البازي فضيلة أنه جارح وأنه من
عتيق الطير^(٦) لم تجد لبياضه الحسن الذي تراه ، ولم يكن المحتج به على

(١) القباطى بالضم : جمع قبطية ، وهى ثياب من كتان تنسج بمصر نسبة
إلى القبط بالكسر ، على غير قياس كالدهرى والسهلى . وقد تكسر القاف على القياس
ويخفف الجمع .

(٢) فى نسخة الأستانة : فتسكرها بدل فتكرهها .

(٣) أى وفيما ينشئه الربيع ، أى يحدثه من الإنشاء ، وهو إيجاد ما فيه نمو
وتجدد حقيقة أو صورة ولك أن تقول ينشئه بالياء لمناسبة يشيه وهو من الوشى ،
أى ما يزينه الربيع من الأزهار والنوار الذى يشبه الديباج .

(٤) يقال أبشرت الأرض ، إذا أخرجت بشرتها ، أى ما ظهر من نباتها .
وأما بشر الثلاثى فهو من بشرنى فلان أى لقينى ، وهو حسن البشر طلق الوجه
والتحاسين : الأشياء الحسنة جمع تحسين ، اسم بنى على تفعيل ، يقال ما أبدع تحاسين
الطاووس وتزايدنه (ش)

(٥) اقشر العود أى تخشن وتغير لونه لعدم الرى .

(٦) العتيق : القديم والسكريم ، والخيار من كل شىء ولقب البازى .

من يفكر الشيب ويذمه ما تراه من الاستظهار ، كما أنه لولا ما يهدى إليك المسك من رياه التي تقطع إليها الأرواح ، وتهش لها النفوس وترتاح ، لضعفت حجة المتعلق به في تفضيل الشباب ، وكما لم تكن العلة في كراهة الشيب بياضه ولم يكن هو الذي غض عنه الأبصار ، ومنحه العيب والإنكار ، كذلك لم يحسن سواد الشعر في العيون لكونه سواداً فقط ، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته ، وبهجته وطلاوته ، ورأيت بريقه وبصيصه بعداك الإقبال ، ويريانك الاقتبال^(١) ، ويحضرانك الثقة بالبقاء ، ويبعدان عنك الخوف من الفناء ، وإنك لترى الرجل وقد طعن في السن وشعره لم يبيض ولكنه على ذاك قد عدم إبهاجه^(٢) الذي كان ، وعاد لا يزين كما زان^(٣) ، وظهر فيه من السكود والجود ، ما يريكه غير محمود .

وهكذا قوله :

والصارم المصقول أحسنُ حالة يوم الوغى من صارم لم يصقل
احتجاج على فضيلة الشيب وأنه أحسن منظرًا من جهة التعلق باللون
وإشارة إلى أن السواد كالصدأ على صفحة السيف . فكما أن السيف إذا
صقل وجلى وأزيل عنه الصدأ ونقى كان أبهى وأحسن ، وأعجب إلى الرأى
وفى عينه أزين ، كذلك يجب أن يكون حكم الشعر في انجلاء صدأ السواد
عنه ، وظهور بياض الصقال فيه ، وقد ترك أن يفكر فيما عدا ذلك من المعانى
التي يكره لها الشيب ، ويناط بها العيب .

(١) الاقتبال : استئناف الأمر وتجده . واقتبل الرجل : كاس بعد حماقة ، أى صار كيسا بعد أن كان أحمق . وأما الإقبال الذى ذكر قبله فالمراد به إقبال الأرض ومجيئها بالنبات .

(٢) أبهجت الأرض : بهج نباتها ، أى حسن وراق منظره .

(٣) أى لا تظهر فيه زينة كما زان نفسه ، أو زان أقرانه أو حبيباته بصحبتهم أو انتسابهم إليه . (ش)

وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشبثين في وصف علة الحكم يريدونه وإن لم يكن في المعقول ، ومقتضيات المعقول . ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلاً وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو ينقض من قضية ، وأن يأتي على ما صيره قاعدة وأساساً بينة عقلية ، بل تسلم مقدمته التي اعتمدها بينة ، كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه ، وتناسينا سائر المعاني التي لها كره ومن أجلها عيب . وكذلك قول البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يكفى عن صدقه كذبه^(١)

أراد كلفتمونا أن نجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويلجئ إلى موجهه (مع أن الشعر يكفى فيه التخيل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل^(٢)) ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد ، وإياه عمد ، إذ يبعد أن يريد بالكذب اعطاء المدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله ، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ، والقوانين العقلية ، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع

(١) قال شيخنا في الدرس ان في البيت رواية أخرى * والشعر يكفى عن صدقة كذبه * والمصراع عليها جملة حالية والشعر مبتدأ خبره يكفى الخ . وعلى الرواية الأولى « يكفى » جملة حالية وبعد البيت :

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولات خطبه

(٢) وجدت هاتين السجنتين بخط شيخنا في حاشية نسخة الدرس وهما ما يحتاج إليه المقام ، ومن أسلوب المؤلف ، وليستا تفسيراً لشيء كسائر تعليقات (ش) فوضعتهما في الأصل ، وإن لم يصرح شيخنا بأنها منه ، وميزتهما بالوضع بين هاليتين وعلفت عليها هذا التنبيه :

إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته
أوضحته ، ومعرفة محله ومرتبته .

وكذلك قول من قال : « خير الشعر أ كذبه » فهذا مراده لأن الشعر
لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتقاءً بأن ينحل الوضع
من الرفعة ما هو منه عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخله الشعر
وبخيل سخاه ، وشجاع وسمه بالجن وجبان ساوى به الليث ، وذى ضعة أوطاه
قه العيوق^(١) وغبي قضى له بالفهم ، وطائش ادعى له طبيعة الحكم ، ثم لم يعتبر
ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنائره ، وتنشر ديايبجه ، ويفتق^(٢) مسكه
فيضوع أريجه .

وأما من قال في معارضة هذا القول « خير الشعر أ صدقه » كما قال :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب
به الفضل ، وموعظة تروض جماع الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع
القبح والحسن في الأفعال ، وتفصل بين الحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى
بها نحو الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه .
والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر . فمن قال « خير صدقه »
كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجري من
العقل على أصل صحيح ، أحب إليه وآثر عنده ، إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقي ، وفائدته
أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال « أ كذبه » ذهب إلى أن الصنعة إنما يمدبأها ، وينشر

(١) العيوق : نجم أحمر مضى في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها وقمة
الشيء بالكسر أعلاه .

(٢) فتق المسك : أدخل عليه شيئاً يستخرج به رائحته .

شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم ، والوصف والبث والفخر والمباهاة ، وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدىء في اختراع الصور ويعيد ، ، يصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعاني متتابعا ، ويكون كالمغترب من غدير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهى

وأما القبيل الأول ، فهو فيه كالمقصود المدانى قيده^(١) ، والذي لا تتسع كيف شاء يده وأيده^(٢) ؛ ثم هو فى الأكثر يورد على السامعين معانى معروفة ، وصورا مشهورة ، ويتصرف فى أصول هى وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها ، ولا يرجي ازديادها ؛ وكالأعيان الجامدة التى لا تنمى^(٣) ولا تزيد ، ولا تريج ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائعة لا تمتع بجنى كريم .

هذا ونحوه ، يمكن أن يتعلق به فى نصرة التخييل وتفضيله ، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، والمنيع منأكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلج وإن قضى عليه^(٣) ، هذا ومن سلم أن المدانى المعركة فى الصدق ، المستخرجة من معدن الحق ،

(١) دانى القيد : مدانة ضيقه .

(٢) الأيد : القوة .

(٣) نعى ينمى : كرمى يرمى ، أفصح من نما ينمو الواوى ومعناها واحد المفلج (اسم فاعل) الفائز الظافر يقال فليج (كنهى وضرب) وأفليج لازم ويتعدى بعلى فيقال فليج وأفليج على خصمه ، أى استظهر وانتصر .

في حكم الجامد الذي لا ينمى ، والمحصور الذي لا يزيد ، وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبي فراس :

وكنا كالسهم إذا أصابت مراميها فراميتها أصابا

أست تراه عقلياً عريقاً في نسبه ، معترفاً بقوة سببه ، وهو على ذلك من فوائد أبي فراس التي هو أبو عذرها ، والسابق إلى إثارة سرها^(١) .

واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخيل ، لأن المستعير لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة ، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره . وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن ، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى ، كقوله عز وجل : « واشتعل الرأس شيباً » . ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتغال ظاهراً ، وإنما المراد إثبات شبهه . وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة المؤمن » . ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل ، لكن من حيث الشبه المعقول ، وهو كونها سبباً للعلم بما لولاها لم يعلم ، لأن ذلك العلم طريقه الرؤية ، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة ، وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة ، فقد جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة ، وهي أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » . معلوم أن ليس المقصد

(١) يقال (هو أبو عذر هذا الكلام) أى هو أول من اقتضبه واخترعه ، ويقال (ما أنت بذى عذر هذا الكلام) أى لست بأول من اقتضبه . والعذر هنا بالضم مخفف من العذرة وهي البكارة بحذف التاء لجريه مثلاً .

اثبات معنى ظاهر اللفظين ، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل .

وإذا كان هذا كذلك بان منه أيضاً أن لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح ، والمجال الواسع ، وأن ليس الأمر على ما ظنه ناصر الإغراق والتخييل الخارج على أن يكون الخبر على خلاف الخبر من أنه إنما يتسع المقال ويفتن ، وتكثر موارد الصنعة وينزر ينبوعها ، وتكثر أغصانها وتتشعب فروعها ، إذا بسط من عنان الدعوى فادعى ما لا يصح دعواه ، وأثبت ما ينفيه العقل ويأباه .

وجملة الحديث الذى أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً ، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويربها ما لا ترى . أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف فى أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعى دعوى لها شبح فى العقل . وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمراً فى البعد عن الحقيقة تكشف وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزييق ، فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل ، وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاماً فى الفرق بين ما يدخل فى حيز قولهم : خير الشعر أ كذبه . وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه فى أنه اتساع وتجاوز فاعرفه^(١)

وكيف دار الأمر فإنهم لم يقولوا : خير الشعر أ كذبه وهم يريدون كلاماً غفلاً ساذجاً يكذب فيه صاحبه ويفرط نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ،

(١) إن المصنف قد بسط هذه المسألة فى كتاب دلائل الإعجاز .

ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقيين ، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها ،
وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب ، وغوص شديد ،
والله الموفق للصواب .

وأعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقي وغير الحقيقي .

واعلم أن ما شأنه التخييل أمره في عظم شجرته إذ تؤمل نسبه ، وعرفت
شعوبه وشعبه — على ما أشرت إليه قبيل — لا يكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه ،
وتفصيل يستغرقه ، وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشيء بعد الشيء ويجمع ما يحصره
الاستقراء . فالذي بدأت به من دعوى أصل وعلة في حكم من الأحكام هما كذلك
ما تركت المضايقة ، وأخذ بالمساحة ، ونظر إلى الظاهر ، ولم ينقر عن السرائر ،
وهو النمط العدل والفرقة الوسطى ، وهو شيء تراه كثيراً بالآداب والحكم البريئة
من الكذب . ومن الأمثلة فيه قون أبي تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ — سدى الرزايا إلى ذوى الأحساب

فلهذا يحف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابي

وكذا قوله يذكر الممدوح قد زاده مع بعده عنه وغيبته في العطايا على الحاضرين

عنده اللازمين خدمته :

لزموا مركز الندى وذراه وعدتنا عن مثل ذاك العوادي

غير أن الربى إلى سبل الأنو اه أدنى والحظ حظ الوهاد

لم يقصد من الربى إلى العلو ولكن إلى الدنوفقط ، وكذلك لم يرد بذكر

الوهاد الضعة والتسفل والهبوط كما أشار إليه في قوله * والسيل حرب

للمكان العالى * وإنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء

ثم انها تتجاوز الربى التى هى دانية قريبة إليها إلى الوهاد التى ليس لها ذلك القرب ،
ومن هذا النمط فى أنه تخيل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وان ما تعلق به من
العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترَجَّى حين تحجب
فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعد فى مجرى العادة جوداً
منها ، ونعمة صادرة عنها ، كما قال ابن المعتز :

ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار
وهذا نوع آخر وهو دعواهم فى الوصف هو خلقه فى الشيء وطبيعة أو واجب
على الجملة من حيث هو أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفاده .
وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ولم فيه عبارات منها قولهم : إن
الشمس تستعير منه النور وتستفيده ، أو تتعلم منه الإشراف وتكتسب منه الإضاءة .
والطف ذلك أن يقال : تسرق وأن نورها مسروق من الممدوح . وكذلك يقال :
المسك يسرق من عرفه ، وأن طيبه مسترق منه ومن أخلاقه . قال ابن بابك :

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك منتحل
حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل
(ونوع آخر) وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعله بضعها
الشاعر ويخلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور فمن
التعريب فى ذلك معنى بيت فارسى ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق
فهذا ليس من جنس ما مضى أعنى ما أصله التشبيه ثم أريد التناهى فى المبالغة
(١٦ - أسرار البلاغة)

والإغراق والإغراء . ويدخل في هذا الفن قول المتنبي :
لم يحك نائلك السحاب وإنما سُحَّتْ به فصبيها الرخصاء
لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى
وضعا وصوره في صورة خرج معها إلى ما لا أصل له في التشبيه فهو كالواقع بين
الضربين . وقريب منه في أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة في تشبيهه وخلع عنه
صورته خلعا قوله :

وما ربح الرياض لها ولكن كساها دقهم في الترب طيبا
ومن لطيف هذا النوع قول أبي العباس الضبي :
لا تركن إلى الفراق وإن سكنت إلى العناق^(١)
فالشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق
أدعى لتعظيم الفراق أن ما يرى من الصفرة في الشمس حين يرق نورها
بدونها من الأرض^(٢) إنما هو لأنها تفارق الأفق الذي كانت فيه أو الناس الذين
طلعت عليهم ، وأنست بهم وأنسوا بها وسرهم رؤيتها .

(ونوع آخر) منه قول الآخر :
قضيب الكرم نقطه فتبكي ولا تبكي وقد قطع الحبيب^(٣)
وهو منسوب إلى إنشاد الشبلي^(٤) ويقال أيضا إن أبا الباس أخذ معناه
في بيته من قول بعض الصوفية ، وقيل له لم تصفر الشمس عند الغروب

-
- (١) احفظ الشطر الثاني هكذا : « فإنه من المذاق »
(٢) أى بحسب النظر والكلام كله تخييل لاحقيقية
(٣) إذا قطع القضيب من الكرم يظل الماء ينقط من حيث قطع وهو ماعبر عنه
ببكاء شجرة الكرم ولعله فيبكي أى القضيب .
(٤) الشبلي هو أبو بكر دلف ابن جحدر من أئمة الصوفية وتلميذ الجنيد ، مات

فقال من حذر الفراق .

ومن لطيف هذا الجنس قول الصولي :

الريح تحسنى عليـك ولم أخلها في العدا

لما همت بقبلة ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب في طباعها أن ترد الرد عليه ، وأن تلف من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها الحسدها وغيره المحبوبة . وهي من أجل ما في نفسها ، تحول بينه وبين أن ينال من وجهها ، وفي هذه الطريقة قوله :

وحاربني فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص على شيء بل أثبت محاربة من الزمان في معنى الحبيب ثم جعل دليلاً عليها جواز أن يكون شريكاً في عشقه . وإذا حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة للمحاربة وجمع بين الزمان والريح في ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل . وذلك أن الكلام في وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علة لذلك الأمر . وكون العشق علة للمعاداة في المحبوب معقول معروف غير بدع ولا منكر . فإذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة . وليس إذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون لذلك لعل الحسد أو غيرها لأن رد الرداء شأنها فاعرفه ، فإن من حكم المحصل أن لا ينظر في تلاق المعاني وتناظرها إلى جعل الأمور ، وإلى الإطلاق والعموم ، بل ينبغي أن يدقق النظر في ذلك ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل . فأنت في نحو بيت ابن وهيب — وحاربني الخ — تدعى صفة غير ثابتة إذا هي ثبتت اقتضت مثل العلة التي

ذكرها . وفي نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعاً واختراعاً . وهكذا قول المتنبي :

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من السقم
فلو لم تفر لم تزو عني لقاكم ولولم تردكم لم تكن فيكم خصمي
الدعوى في اثبات الخصومة وجعل النوى كالشيء الذي يعقل ويميز ويريد
ويختار ، وحديث الغيرة والمشاركة في هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير
أن يفتقر منك إلى وضع واختراع .

ومما يلحق بالفن الذي بدأت به قوله :

بذفسى ما يشكوه من راح طرفه ونرجسه مما دها حسنه ورد^(١)
أراقت دمي عمداً محاسن وجهه فاضحى وفي عينيه آثاره تبدو
لأنه قد أتى بحمرة العين وهي تعرض لها من حيث هي عين معلة ، وأتى بإراقة
الدم في صورة العلة ، وهو يعلم أنها مخترعة موضوعة فليس ثم إراقة دم . وأصل
هذا قول ابن المعتز :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب^(٢)

(١) الواو في (ونرجسه) للحال يريد الذي صار نرجس طرفه كالورد من الرمد .
(٢) احفظ الصراع الثاني من البيت الأول * من كثرة القتلك نالها وصب *
وكلمة (الفتك) أطرف وأبلغ من كلمة القتل — ومن البيت الثاني بإبدال كلمة السيف
بكلمة النصل . وفي معناها :

قالوا الحبيب شكاً جعلت فداءه رمداً أضر بعينه كالعندم
فأجبتهم ما زال يفتك لحظه في مهجتي حق تلتطخ بالدم =

وبين هذا الجنس وبين نحو « الريح تحسنى » فرق وذلك أن لك هناك فعلا هو ثابت واجب في الريح وهو رد الرداء على الوجه ثم أحببت أن تتطرق فادعيت لذلك الفعل علة من عند نفسك . وأما ههنا فنظرت إلى صفة موجودة فتأولت فيها أنها صارت إلى العين من غيرها وليست هي من شأنها أن تكون في العين ، فليس معك هنا إلا معنى واحد . وأما هناك فعندك معنيان أحدهما موجود معلوم ، والآخر مدعى موهوم ، فأعرفه .

ومما يشبه هذا الفن الذى هو تأول في الصفة فقط من غير أن يكون معلول وعلة ما تراه من تأولهم في الأمراض والحيات أنها ليست بأمراض ولكنها فطن ثاقبة وأذهان متوقدة وعزمات كقوله :

وحوشدت أن تضرى بجسمك علة إلا أنها تلك العزوم الثواقب
وقال ابن بابك :

فترت وما وجدت أبا العلاء سوى فرط التوقد والذكاء
ولكشاجم بقوله في على بن سليمان الأخفش :

ولقد أخطأ قوم زعموا أنها من فضل برد في العضب
هو ذاك الدهن أذكى ناره والمزاج المفرط الحس التهب
ولا يكون قول المتنبي :

ومنازل الحمى الجسم فقل لنا ما عذرنا في تركها خيراتها
أعجبنا شرفاً فطال وقوفها لتأمل الأعضاء لا لأذاتها

= قال صاحب (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) : وقد قلت أحسن من هذا وهو :

لاتنكروا الحمرة في طرف من يسفك بالطرف دماء البشر
وإنما الإنكار من أنفس أرضية مالت بعين القمر

من هذا في شيء بأكثر من أن كلا القولين في ذكر الحمى وفي تطيب النفس عنها ، فهو اشتراك في العرض والجنس فأما في عمود المعنى وصورته الخاصة فلا ، لأن المتنبي لم ينكر أن ما يجده الممدوح حمى كما أنكره الآخر واسكنه كأنه سأل نفسه كيف اجتأت الحمى على الممدوح مع جلالته وهيبته ؟ أم كيف جاز أن يقصد شيء إلى أذاه مع كرمه ونبله ؟ وأن المحبة من النفوس مقصورة عليه ؟ فيمحل لذلك جواباً ، ووضع للحمى فيما فعلته من الأذى عذراً ، وهو تصريح ما اقتصر فيه على التعجب في قوله :

أيدري ما أراك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب^(١)
وجسمك فوق همه كل داء فقرب أقلها منه عجيب
الا ان ذلك الإيهام ، أحسن من هذا البيان ، وذلك التعجب موقوفاً غير مجاب ، أولى بالإعجاب ، وليس كل زيادة تغلح ، وكل استقصاء يملح .
ومن واضح هذا النوع وجيده قول ابن المعتز :

صدت سرير وأزمنت هجرى وصغت ضماؤها إلى الفدر^(٢)
قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر
ألا تراه أنكر أن يكون الذي بدأ به شيئا ، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقاً إلى نفي العيب وقطع الخصومة ، ولم يسلك الطريقة العامية فيثبت المشيب ، ثم يمنع العائب أن يعيب ، ويريه الخطأ في عيبه به ، ويلزمه المناقضة في مذهبه ، كمنحو ما مضى أغنى كقول البحتري : « وبياض البازي » وهكذا

(١) قاله المتنبي في دمل أصيب به سيف الدولة . وأراه الشيء أحدث به ما يوجب القلق والريبة في العاقبة والذي أراه الدمل . « ومن يريب » استفهام وضمير يريب يعود إلى ما أراك

(٢) في نسخ الديوان التي بأيدينا « شرير » بالمعجمة .

إذا تأولوا في الشيب أنه ليس بابيضاض الشعر الكائن في مجرى العادة وموضوع الخلقة ، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر ، وبان من وجهه وظهر ، كقول الطائي الكبير :

ولا يروعك إيماض القتير به فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب^(١)
وينبغي أن باب التشبيهات قد حظى من هذه الطريقة بضرب من
السحر لا تأتي الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنهه ما ناله من اللطف
والظرف ، فإنه قد بلغ حداً يبرز المعروف في طباع الغزل ، ويلهى الثكلان ،
وينفث في عُقد الوحشة ، وينشد ماضل عيك من المسرة ، ويشهد للشعر
بما يطيل لسانه في الفخر ، ويبين جملة مالبيان من القدرة والقدر ، فمن
ذلك قول ابن الرومي :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
لم يُخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة عائد^(٢)
للنرجس الفضل المبين وإن أرى أب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية أن هذا قائد زهر الرياض وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد يتسلب الدنيا وهذا واعد^(٣)
ينهى القديم عن القبيح بلحظه وعلى المدامة والسماع مساعد

(١) القتير الشيب وقيل أول ما يظهر منه .

(٢) عائد من عند (كنصر وضرب) إذا مال عن الطريق أو خالف الحق وأنكره .

(٣) يقال تسلبت المرأة إذا لبست السلاب وهي بالكسر ثياب الحداد السود ،

والبيت بمعنى ما قبله ، والمراد أن النرجس المفضل عنده يظهر في أول الربيع فتتلوه

الأزهار والرياحين والورد المفضول يظهر في آخر الربيع فيتوعد الرياحين سلاب

بهجتها حيث يذهب في أثره زهر الرياض فالنرجس كالقائد والورد كالطارد . وابن

الرومي مشهور بنم الورد وتفضيل النرجس .

اطلب بعقلك في الملاح سميّه أبدأ فإنك لا محالة واجد
والورد إن فكرت فرد في اسمه ما في الملاح له سميّ واحد
هذي النجوم هي التي ربتهما بحيا السحاب كما يربي الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما شهماً بوالده فذاك الماجد
أين الحدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد

وترتيب الصنعة في القطعة أنه عمل أولاً على قلب طرفي التشبيه كما مضى
في فصل التشبيهات ، فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك وخدع عنه
نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ، ثم لما اطمأن ذلك في قلبه
واستحكمت صورته ، طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل على النرجس
ووضع في منزلة ليس يرى نفسه أهلاً لها ، فصار يثوب^(١) من ذلك ويتخوف
عيب العائب وغميزة المستهزئ ، ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب
فيها ، ويفرط حتى تصير كالمزء بمن قصد بها . ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع
الشمر في سحر البيان ، ما رأيت من وضع حجاج في شأن النرجس وجهة استحقاقه
الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له .

ومما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة ، ويلحق بها في لطف
الصنعة ، قول أبي هلال العسكري :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسناً فسكوا من قفاه لسانه
لم يظلموا في الحكم إذ مثلوا به فلشد ما رفع البنفسج شأنه^(٢)

وقد اتفق المتأخرين من المحدثين في هذا الفن نكت واطف وبدع وظرائف
لا يستكثر لها الكثير من الثناء ، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة

(١) ينوب يرجع إلى نفسه .

(٢) مثل به من باب نصر أي نكل به .

الإطراء ، فمن ذلك قول ابن نباتة في صفة الفرس :

وأدم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشيا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشكّ القوت منه تشبث بالقوائم والحميا
وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله في قطعة أخرى :
فكأنما لطم الصباح جبينه فاقصص منه وخاض في أحشائه
وأول القطعة^(١) :

قد جاءنا الطرف الذي أهديته هاديه يعقد أرضه بسماؤه^(٢)
أولاية وليتنا فبعثته رمحا سيب العرف عقد لوائه^(٣)
نختال منه على أغر محجل ماء الدياجي قطرة من مائه^(٤)
فكأنما لطم الصباح جبينه فاقصص منه وخاض في أحشائه
متمهلا والبرق من أسمائه متبرقا والحسن من أكفائه
ما كانت النيران تـكـن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه

(١) القطعتان في فرس أدم أغر محجل حملة عليه سيف الدولة جعل غرته أثر
لظمة من الصباح في جبينه وتحجيلة من خوض قوائمه الأربع في أحشاء الصباح .
وقد ترك المصنف البيت الأول وهو :

يا أيها الملك الذي أخلاقه من خلقه ورواؤه من رائه
أي أخلاقه مخلوقة له ورواؤه ومنظره من رأيه . وبعبارة أخرى هو في خلقه وخلقته
كأنه كون نفسه وخلقها كما يرى ويعجب من السكال .

(٢) الطرف الكريم بالكسر من الخيل والكريم الأطراف من الآباء والأمهات
والهادي العنق يغلو في وصفه بالطول .

العـر مر رقة الفرس الذي ينبت في محدها . والسبيب الخصلة من
الشعر . شبهه على عنقه الطويل بالراية على الرمح .

(٤) في نسخة الكتاب (نختل) وفي نسخة من الديوان (نختال) وهي أظهر

لا تعلق الألفاظ في أعطافه إلا إذا كفكت من غلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه^(١)
ومما له في هذا التفضيل الفضل الظاهر لحسن الإيداع مع السلامة من
التكلف قوله :

وماذا على الرضراض يجري^(٢)

كأن بها من شدة الجرى جنة وقد ألبستن الرياح سلاسل
وإنما ساعده التوفيق ، من حيث وطئ له من قبل الطريق ، فسبق العرف
بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع فتدرج من ذلك إلى أن جعلها
سلاسل كما فعل ابن المعتز في قوله :

وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياضين والزهر
ثم أتم الخلق بأن جعل الماء صفة تقتضي أن يسلسل وقرَّب مأخذ ما حاول
عليه فإن شدة الحركة وفرط سرعتها من صفات الجنون كما أن التمثل فيها والثاني
من أوصاف العقل .

(١) كنت في الطبعة الأولى ضبطت « الطرف » الأول من البيت بالعكس
والثاني بالفتح بمعنى أن الجواد الكريم لا تسكمل محاسنه حتى يأسر طرف الناظر
إليه ، فلا يستطيع أن يتحول عنه ، وقد عكس شيخنا الضبط في نسخة الدرس
فضبط الأول بالفتح والثاني بالعكس ولم يظهر لي جعل الجواد أسيرا للطرف
كعكسه فتأمله .

(٢) هكذا وجدنا البيت في النسختين عرقاً ناقصاً وقد أتمه شيخنا في الدرس
بقوله : وماء على الرضراض يجري كأنه أفاع عراها الدعر تطلب موئلاً
وكتب بإزائه في حاشية نسخته : أتممت البيت على هذا الوجه ويغلب على ظني أن
التممة في معنى ما يريد الشاعر وعلى من وقف على البيت كلامه أن يفيدنا بما وجد .
والرضراض ما دق من الحصى . قال :

يبدو له الداء الخفي كما بدا للعين رضراض الغدير الصافي

ومن هذا الجنس قول ابن المعتز في السيف في أبيات قالها في الموفق وهي :

وفارس أغمد في جُنة يقطع السيف إذا ما ورد^(١)
كأنه ماء عليه جرى حتى إذا ما غاب فيه جمد
في كفه غضب إذا هزه حسبته من خوفه يرتعد

فقد أراد أن يخترع لهزة السيف علة ، فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيبته . ويشبه أن يكون ابن بابك نظر إلى هذا البيب وعلق منه الرعدة في قوله :

فإن عجمتني نيوب الخطوب^(٢) وأوهى الزمان قوى مُنتى^(٣)

فما اضطرب السيف من خيفة ولا أُرعد الرمح من قِرة^(٣)

إلا أنه ذهب بها في أسلوب آخر ، وقصد إلى أن يقول : إن كون حركات الرمح في ظاهر حركة المرتعد ، لا يوجب أن يكون ذلك من ألم عارض ، وكأنه عكس القضية فأبى أن تكون صفة المرتعد في الرمح للعلل التي لمثلها تكون في الحيوان ، وأما ابن المعتز فحقق كونها في السيف على حقيقة العلة التي لها تكون في الحيوان فاعرفه ، وقد أعاد هذا الارتعاد على الجملة التي وصفت لك فقال :

(١) اللجنة بالضم كل ما وقى من سلاح . يصف فارساً اشتمل عليه الحديد وعمته الدروع فإذا ورد عليه السيف قطعه فلا ينفذ فيه (ش) وجعله لفظ اللجنة خاصاً بالسلاح يريد به الحقيقة وقد استعمل في غيرها مجازاً .

(٢) عجمه (كنصر) عضة ليختر صلابته . والنيوب جمع ناب . والمنة كالقوة وزناً ومعنى وكذا الضعف فعى من الأضداد وكأنه أراد صروب القوة وأنواعها . وأصل القوة الطاقة الواحدة من الحبل وجمعها قوى على القياس قال شيخنا هنا كأن القوة حبل ذو طاقات وقوى . وكان المناسب لنظاً أن يقول كأن المنة الخ
(٣) القرعة بالكسر ما يأخذ المرء من البرد . وأرعد بضم الهمزة وارتعد أصابته الرعدة وهي بالفتح والكسر للهيئة الرجفة والاضطراب .

قالوا طواه حزنه فأنحني فقلت والشك عدو اليقين
ماهيف النرجس من صبوة^(١) ولا الضنى في صفرة الياسمين
ولا ارتعاد السيف من قرة ولا انعطاف الرمح من فرط لين

ومما حقه أن يكون طرازاً في هذا النوع قول البحتري :

يتعثرن في النحور وفي الأو جه سكرأ لما شربن الدماء^(٢)
جعل فعل الطاعن بالرماح تعثراً منها كما جعل ابن المعتز تحريكه للسيف وهزه
له ارتعاداً ، ثم طلب للتعثر علة كما طلب هو للارتعاد قاعرفه .

ومن هذا الباب قول عليبة .

وكان السماء صاهرت الأر ض فصار النشار من كافور^(٣)
وقول أبي تمام :

كان السحاب الغر غيبن تحتها حبيباً فما ترقى لمن مدامع
وقال السري يصف الهلال :

جاءك شهر السرور شوال وغال شهر الصيام مغتال
ثم قال :

كانه قيد فضة حرج فُضَّ عن الصائمين فاختلفوا
كل واحد من هؤلاء خدع نفسه عن التشبيه وغالطها وأوم أن الذي
جرى العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر ، وحصل بحضرتهم على الحقيقة

(١) هيف كيبس وهاف كخاف هيفاً بالفتح وبالتحريك ضمير بطنه ورقته خاصرته
فهو أهيف وهى هيفاء .

(٢) قوله لما شربن الخ فيه وجهان كسر اللام وتخفيف الميم على أن ما مصدرية
والمعنى لشربهن الدماء — وفتح اللام وتشديد الميم على أن لما حينية . قاله (ش) .

(٣) المراد بالنشار هنا الثلج كما قال (ش) .

ولم يقتصر على دعوى حصوله حتى يصيب له علة وأقام عليه شاهداً ، فأثبت
 علة زفافاً بين السماء والأرض ، وجعل أبو تمام للسحاب حبيباً قد غيب
 في التراب . وادعى السرى أن الصائمين كانوا في قيد وأنه كان حرجاً فلما
 فض عنهم انكسر بنصفين أو اتسع فصار على شكل الهلال . والفرق بين
 بيت السرى وبيتى الطائيين أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامى جار على
 الألسن وجعل القطر الذى ينزل من السحاب دموءاً ووصف السحاب والسماء
 بأنها تبكى كذلك ، فأما تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه إلا أن نظيره
 معتاد ومعناه من حيث الصورة موجود . وأعنى بالنظير ما مضى من تشبيه
 الهلال بالسوار المنقسم كما قال :

حاكياً نصف سوار من نضار يتوقد

وكما قال السرى نفسه :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق على لبات زرقاء اللباس

إلا أنه ساذج لا تعليل فيه يجب من أجله أن يكون سواراً وطوقاً فاعرفه .

ورأيت بعضهم ذكر بيت السرى الذى هو : « كأنه قيد فضة حرج » مع
 أبيات شعر جمعه إليها وأنشد قطعة ابن الجراح :

يا صاحب البيت الذى قد مات فيه الصيف جوعاً

مالى أرى فلك الرغبة ف لديك مشرقاً ربيعاً^(١)

كالبدر لا نرجو إلى وقت المساء له طلوعاً

(١) الفلك من كل شيء مستداره ومعظمه فقد يطلق بجانب الرغبة بلا تشبيه
 والمشترف فاعل من اشترف إذا انتصب والفرس كان مُشرف الخلق (ش) ولاكن
 الشاعر قصد التشبيه وهو محل الشاهد .

قال إنه شبه الرغيف بالبدر لعلتين إحداهما الاستدارة والثاني طلوعه مساء قال : وخير التشبيه ما جمع معنيين كقول ابن الرومي :

يا شبيه البدر في الحس ن وفي بعد المنال
جُد فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال
وأنشد أيضاً لأبراهيم بن المهدي :

ورحمت أفراخاً كأفراخ القطا وحنين والهمة كقوس النازع
ثم قال : ومثله قول السري * كأنه قيد فضة حرج * وهو لا يشبه ما ذكره إلا أن يذهب إلى حديث أنه أفاد شكل الهلال بالقيد المنفوض ولونه بالفضة ، فأما إن قصد النكتة التي هي موضع الإغراب فلا يستقيم الجمع بينه وبين ما أنشد لأن شيئاً من تلك الأبيات لا يتضمن تعاملاً ، وليس فيها أكثر من ضم شبه إلى شبه كالحنين والانحناء من القوس ، والاستدارة والطلوع مساء من البدر ، وليس أحد المعنيين بعلة للآخر ، كيف ولا حاجة بواحد من الشبهين المذكورين إلى تصحيح غيره له .

ومما هو نظير لبیت السري وعلى طريقه قول ابن المعتز :

سقاني وقد سُلَّ سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب

لم يقنع ههنا بالتشبيه الظاهر والقول المرسل كما اقتصر في قوله :

حتى بدا الصباح من نقاب كما بدا المنصل من قراب

وقوله :

أما الظلام فحين رق قميصه وأنى بياض الصبح كالسيف الصدى

ولكنه أحب أن يحقق دعواه أن هناك سيفاً مسلولاً ، ويجعل نفسه كأنها لا تعلم أن ههنا تشبيهاً ، وأن القصد إلى لون البياض في الشكل المستطيل

فتوصل إلى ذلك بأن جعل الظلام كالعدو المنهزم الذي سل السيف في قناه فهو يهرب مخافة أن يضرب به .

ومثل هذا في أن جعل الليل يخاف الصبح لا في الصنعة التي أنا في سياقها قوله :

سبقنا إليها الصبح وهو مقنع كمين وقلب الليل منه على حذر
وقد أخذ الخالدي بيته الأول أخذاً فقال :

والصبح قد جردت صوارمه والليل قد هم منه بالهرب
وهذه قطعة لابن المعتز بيت منها هو المقصود

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل البقي تتوجت لزناة
جاءتك زائرة كمام أول وتلبست وتعطرت بنبات
وإذا تعرى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس قذيت وآذن حبيها بمات^(١)

هذا البيت الأخير هو المراد ، وذلك أن الضحك في الورد وكل ريحان ونور يتفتح مشهور معروف ، وقد قاله في هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته ، وإبار دولته ، وبدو أمارات الفناء فيه ، وأعاد هذا الضحك من الورد فقال :

ضحك الورد في قفا المنثور واسترحنا من رعدة المقرور
أراد إقبال الصيف وحر الهواء ألا تراه قال بعده :

(١) قذيت دخل فيها القذى شبه النرجس أدركه الجفاف والتصوح بالعيون يصيبها القذى .

(٢) الرعدة بالكسر النافض أى الاضطراب من نحو برد وخوف ، والمقرور من أصابه القر « البرد » على غير قياس

واستطبنا المقيسل في برد ظل وشمنا الريحان بالكافور^(١)
 فالرحيل الرحيل يا عسكر الا ذات عن كل روضة وغدير
 فهذا من شأن الورد الذي عابه به ابن الرومي في قوله :
 فصل القضية ان هذا قائد زهر الرياض وإن هذا طارد
 وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكا ضحك من استولى وظفر ، وابتز غيره
 ولاية الزمان واستبد بها .

ومما يشوب الضحك فيه شيء من التعليل قوله أيضاً :
 مات الهوى منى وضاع شباني وقضيت من لذاته آرابي
 وإذا أردت تصابيها في مجلس فالشيب يضحك بي مع الأحباب
 لا شك أن لهذا الضحك زيادة معنى على الضحك في نحو قول دِعبل :
 * ضحك المشيب برأسه فبكي *
 وما تلك الزيادة إلا أنه جعل المشيب يضحك ضحك المتعجب من تعاطى
 الرجل ما لا يليق به ، وتكلفه الشيء ليس هو من أهله ، وفي ذلك ما ذكرت
 من إخفاء صورة التشبيه ، وأخذ النفس بتناسيه ، وهكذا قوله :

لما رأونا في خميس يلتهب في شارق يضحك من غير عجب^(٢)
 كأنه صب على الأرض ذهب وقد بدت أسـيافنا في القرب
 حتى تكون لمنايهم سبب نرفل في الحديد والأرض تجب^(٣)

(١) أراد انه استبدل الورق الأخضر بالزهر الأبيض لأن وقت الزهر قد انقضى
 فالباء في الكافور للبدل (ش) .

(٢) الشارق الشمس والجانب الشرقي من الجبل وغيره وهو خلاف الغارب

(٣) تجب وجيباً تخفق .

وحن شريان ونبع فاصطخب تترسوا من القتال بالحرب^(١)
المقصود قوله « يضحك من غير عجب » وذلك أن نفيه العلة إشارة إلى أنه من
جنس ما يعمل ، وأنه ضحك قطعاً وحقيقة . ألا ترى أنك لو رجعت إلى صريح
التشبيه فقلت : هيئته في تلالؤه كهيئة الضاحك ثم قلت : من غير عجب — قلت
قولاً غير مقبول . واعلم أنك إن عددت قول بعض العرب :
ونثرة تهزأ بالنصـال كأن فيها حـديق الملـال
الملال الحية ههنا واللام للجنس في هذا القبيل — لم يكن لك ذلك .

فصل

وهذا نوع آخر في التعليل

وهو أن يكون للمعنى من المعانى والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق
العادات والطباع ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك المعروفة ويضع له علة
أخرى . مثاله قول المتنبي :

مابه قتل أعاديه ولكن يتقى إـخـلاف ما ترجو الذئاب
الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلارادته هلاكهم وأن يدفع
مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبي كما ترى
أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك .

واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العلة المدعاة
فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبي

(١) الشريان والنبع نوعان من الشجر تصنع منهما القسي . وحن القضيـب صوت
عندليه . ويقال قوس حنـانة .

ههنا في أن يبالغ في وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنّسهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد فلما علم إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداء كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعها ، وفيه نوع آخر من المدح وهو يهزم العدا ويكسرهم كسراً لا يطمعون بعده في المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم ، وأنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيظ والحنق ، ولا يعفوا إذا قدر ، وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة فأعرفه .

ومن الغريب في هذا الجنس على تعمق فيه قول أبي طالب المأموني في قصيدة يمدح بها بعض الوزراء ببخارى :

مفرم بالثناء صبّ بكسب المـ سجد يهتز للسباح ارتياحا
لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا

وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التي ليست من أوقات الإذن قلوا^(١) فهو يشقّ إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم . والإفراط في التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به ألا ترى أن هذا الكلام قد يوم^(٢) أنه يحتاج له أنه ممن لا يرغب كل واحد في أخذ عطائه وأنه ليس في طبقة من قيل فيه :

عطاؤك زين لا مريء إن أصبته بخير وما كل العطاء يزين

(١) فلوا . وفي نسخة قلوا ، أى صاروا قليلا ، وفل عنه عقله ذهب ثم عاد إليه (ش)

(٢) هذا يندفع بقوله رواحاً أى بعد أن غدا عليه وأخذ من عطائه أول النهار (ش)

ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به (أى بالاعتراض) أن الشاعر يهمله^(١) أبداً إثبات ممدوحه جواداً أو تواقاً إلى السؤال فرحاً بهم . وأن يبرئه من عبوس البخل ، وقطوب المتكلف في البذل ، الذى يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ومن يهوى الثناء والثراء معاً ولا يتمكن في نفسه معنى قول أى تمام :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرىء والدرهم فهو^(٢) يسرع إلى استماع المدائح ، ولا يبطن عن صلة المادح ، نعم فإذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر في خطرات الظنون . وقد يجوز بشيء من الوهم الذى ذكرته على قول المتنبي :

يعطى المبشر بالقصاد قبلهم كمن يبشره بالماء عطشاناً

وهذا شيء عرض ولاستقصائه موضع آخر إن وفق الله .

وأصل بيت الطيف المستميع من نحو قوله :

وإني لأستغشى وما بى نعمة لعل خيالا منك يلقى خيالياً^(٣)

وهذا الأصل غير بعيد أن يكون أيضاً من باب ما استؤنف له علة غير معروفة إلا أنه لا يبلغ في القوة ذلك المبلغ في الغرابة والبعد من العادة ، وذلك أنه قد يتصور أن يريد المخرم المتيم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه في المنام وإذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فأعرفه .

ومما يلحق بهذا الفصل قوله :

(١) قوله يهمله الخ أى فلا يتوهم أنه قصد ما ذكره من الوهم (ش) .

(٢) أى الممدوح .

(٣) الشعر للمجنون يقال استغشى ثوبه وبشوبه إذا تغطى به . ويكنى بذلك عن

طلب النوم .

رحل العزاء برحلتى فكأننى أتبعته الأنفاس للتشييع

وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك ما هو المعلوم المشهور من السبب والعللة فيه وهو التحسر والتأسف والمعنى رحل عني العزاء بارتحالي عنكم أي عنده ومعه أو به وبسببه ، فكأنه لما كان محل الصبر الصدر^(١) وكانت الأنفاس تصعد منه أيضاً صار العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان ، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة :

ومما يلاحظ هذا النوع ويجرى في مسلكه وينتظم في سلكه قول ابن المعتز :

عاقبت عيني بالدمع والسهر إذ غار قلبي عليك من بصرى

واحتملت ذاك وهى رابحة فيك وفازت بلذة النظر

وذلك أن العادة في دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه إغراض الحبيب ، أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب ، الموجبة للاكتئاب ، وقد ترك ذلك كله كما ترى ، وادعى أن العلة ما ذكره من غيرة القلب منها على الحبيب وإيثاره أن يتفرد برؤيته ، وأنه بطاعة القلب وامتنال رسمه رام للعين عقوبة فجعل ذاك أن أبكاه ، ومنعه النوم وحماها ، وله أيضاً في عقوبة العين بالدمع والسهر من قصيدة أولها :

(١) إن الحزن والخوف إنما تشعر النفس بهما بانقباض في الصدر وكذا سائر الانفعالات النفسية . وأما الصبر فهو مقاومة الانفعال بقوة الإرادة حتى لا يترتب عليه من العمل ما هو صار فهو ليس انفعالا بل معنى يشبه السلب لأنه حبس النفس ومنعها من الاسترسال في الجزع وإنما يقال إن موضعه الصدر لأنه معالجة نفسية لما يشعر به في الصدر الذي هو مكان القاب الذي هو ينبوع الدم . على أن الشعور اعصب القلب لا لدمه المتأثر به .

قل لأحلى العباد شكلاً وقدَّأ أبجد ذا المجرُّ أم ليس جدَّأ
ما بذاك كانت المنى حدثتني لهف نفسي أراك قد خفت وُدأ
ما ترى في متيم بك صب خاضع لا يرى من الذل بدا
إن زنت عينه بفيرك فاضرب بها بطول السهاد والدمع حدا

قد جعل البكاء والسهاد عقوبة على ذنب أثبتته العين كما فعل في البيت الأول إلا أن صورة الذنب ههنا غير صورته هناك ، فالذنب ههنا نظرها إلى غير الحبيب واستجارتها من ذلك ما هو محرم محظور ، والذنب هناك نظرها إلى الحبيب نفسه ، ومزاحمتها القلب في رؤيته . وغيره القلب من العين سبب العقوبة هناك ، فأما ههنا فالغيرة كائنة بين الحبيب وبين شخص آخر فاعرفه .

ولا شبهة في قصور البيت الثاني عن الأول ، وأن الأول عليه فضلا كبيراً ، وذلك بأن جعل بعضه يغار من بعض ، وجعل الخصومة في الحبيب بين عينيه وقلبه ، وهو تمام الظرف واللاطف . فأما الغيرة في البيت الأخير فعلى ما يكون أبداً — هذا ولفظ « زنت » وإن كان ما يتلوها من إحكام الصنعة يحسنها ورودها في الخبر « العين تزني » يؤنس بها ، فليست تدع ما هو حكمها من إدخال نفرة على النفس^(١) .

وإن أردت أن ترى هذا المعنى بهذه الصنعة في أعجب صورة

(١) لله در المصنف فإنه لا يفوته شيء من بيان تأثير الكلام في النفس الذي هو روح البلاغة وسرها ، واعمري إن كلمة الزنا الحبيثة لتؤثر في النفس الطيبة تأثيراً يجعل الصنعة في البيت صنعة خسيصة تشعُر منها أهل الحشمة والحياء ، ولا سيما العذارى وفضليات النساء . وأما حديث « العين تزني » فهو للتنفير والزجر عن نظر الشهوة ولا أبلغ في ذلك من التعبير عنه بالزنا ، وما أبعد الفرق بين خطاب الوعظ والتشريع وبين مغازلة المحب للمحب .

أظرفها فانظر إلى قول القائل :

أتنتى تؤنبنى بالبكا فأهلا بها وبقأنبيها
تقول وفي قولها حشمة أتبكي بعين ترانى بها^(١)
فقلت إذا استحسننت غيركم أمرت الدموع بتأديبها^(٢)

أعطاك بلفظة التأديب ، حسن أدب اللبيب ، في صيانة اللفظ عما يحوج إلى الاعتذار ، ويؤدي إلى النفار ، إلا أن الأستاذية تعد ظاهرة في بيت ابن المعتز . وليس كل فضيلة تبدو مع البديهة ، بل تعقب النظر والروية ، وإن يفكر في أول الحديث وآخره . وأنت تعلم أنه لا يكون أبلغ في الذي أراد من تعظيم شأن الذنب من ذكر الحد وإن ذلك لا يتم إلا بلفظة « زنت » .

ومن هذه الجهة يلحق الضيم كثيرا من شأنه ، وطريقه طريق أبي تمام ولم يكن من المطبوعين . وموضع البسط في ذلك غير هذا ، ففرضي الآن أن أريك أنواعاً من التخييل ، وأضع شبه القوانين ليستعان بها على ما يراد من التفصيل والتبيين .

فصل

في تخييل . بغير تعليل

وهذا نوع آخر من التخييل ، وهو يرجع إلى ما مضى من تناسى التشبيه . وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل . بيان ذلك أنهم يستعمرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة ، ثم تراهم كأنهم

(١) في رواية «وقالت» بدل تقول . ويروى الشطر * أما تستحي يا قليل الوفاء * أتبكي الخ .

(٢) هذا أشرف من قول الآخر :

إذا زنت عيفى بها فبالدموع تغتسل

قد وجدوا تلك الصفة بعينها ، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها ، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال ، ولم يروه ولا طيف خيال ، ومثاله استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان ، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً من طريق المكان ، ألا ترى إلى قول أي تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السما
فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجهده ،
يجعله صاعداً في السماء من حيث المسافة الكائنة ، لما كان لهذا الكلام وجه .
ومن أبلغ ما يكون في هذا المعنى قول ابن الرومي :

أعلم الناس بالنجوم بنونو بخت علماء لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء سمرأ بترق في المكرمات الصعاب
مبلغاً لم يكن ليبلغه الطال لب إلا بتلك الأسباب
وأعاده في موضع آخر فزاد الدعوى قوة وصر فيها مرور من يقول صدقاً ،
يذكر حقاً :

يا آل نوبخت لا عدتمكم ولا تبدات بعدكم بدلا
إن صح علم النجوم كان لكم حقاً إذا ما سواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن قاس ولسكن بأن رقى فعلا
أعلامكم في السماء مجسداً فلستم تجهلون ما جهلا
شافتم البدر بالسؤال عن الأمر إلى أن بلغت زحلا
وهذا الحكم إذا استعاروا اسم الشيء بعينه من نحو شمس أو بدر
أو بحر أو أسد فإنهم يبالغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضى

بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة . ومثاله قوله :

قامت تظلالني من الشمس نفس أعز على من نفسي

قامت تظلالني ومن عجب شمس تظلالني من الشمس

فلولا أنه أنسى نفسه أن ههنا استعارة ومجازاً من القول وعمل على دعوى شمس على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى ، فليس يبدع ولا منكر أن يظل إنسان حسن الوجه إنساناً وبقية وهجا بشخصه . وهكذا قول البحترى :

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق

وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق^(١)

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجب لرؤية ما لم يروه قط ولم تجر العادة به ولن يتم للتعجب معناه الذي عناء ولا تظهر صورته على وضعها الخاص حتى يجسرىء على الدعوى جراءة من لا يتوقف ولا يخشى إنكار منكر ولا يحفل بشكذيب الظاهر له ويسوم النفس — شامت أم أبت — تصور شمس ثابتة طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا وفقاً ، وصار غرب تلك القديمة لهذه المتجددة شرقاً ، ومدار هذا النوع الطالب على التعجب وهو والى أمره ، وصانع سحره وصاحب سره ، وتراه أبداً وقد أفضى بك إلى خلافة لم تكن عندك ، وبرز لك في صورة ما حسبتها تظهر لك ، ألا ترى أن صورة قوله « شمس تظلالني من الشمس » غير صورة قوله « وما عاينوا شمسين » وإن اتفق الشعران في أنهما يتعجبان من وجود الشيء على خلاف ما يعقل ويعرف .

وهكذا قول المتنبي :

(١) قوله وفقاً : أى متوافقين متطابقين ويقال أثبتته وفق طلعت الشمس : أى

حين طلعت .

كبرت حول ديارهم لما بدت منها الشمس وليس فيها المشرق
له صورة غير صورة الأولين . وكذا قوله :

ولم أر قبلي من مشى البدر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد
تعرض تلك الصور كلها^(١) ، والاشتراك بينها عامي لا يدخل في السرقة ،
إذ لا اتفاق بأكثر من أن أثبت الشيء في جميع ذلك على خلاف ما يعرفه الناس .
فأما إذا جئت إلى خصوص ما يخرج به عن المتعارف ، فلا اتفاق ولا تناسب ، لأن
مكان الأعمدة مرة أن تظلل الشمس من الشمس وأخرى أن ترى الشمس مثلاً لها
تطلع من الغرب عند طلوعها من الشرق ، وثالثة أن ترى الشمس طالعة من ديارهم .
وعلى هذا الحد قوله : * ولم أر قبلي من مشى البدر نحوه * العجب من أن يمشي البدر
إلى آدمي وتعانق الأسد رجلاً .

واعلم أن في هذا النوع مذهباً هو كأنه عكس مذهب التعجب وتقيضه وهو
لطيف جداً . وذلك أن تنظر إلى خاصية ومعنى دقيق يكون في المشبه به ثم تثبت
تلك الخاصية وذلك المعنى للمشبه وتتوصل بذلك إلى إيهام أن التشبيه قد خرج من
البين ، وزال عن الوهم والعين ، أحسن توصل وألطفه ، ويقام منه شبه الحجة على أن
لا تشبيه ولا مجاز .

ومثاله قوله :

لا تعجبوا من بلى غلاته قد زر أزراره على القمر
قد عمد كما ترى إلى شيء هو خاصية في طبيعة القمر وأمر غريب من
تأثيره ، ثم جعل يرى أن قوماً أنكروا بلى الكتان بسرعة ؛ وأنه قد أخذ
ينهاهم عن التعجب من ذلك ويقول : أما ترونه قد زر أزراره على القمر ، والقمر

(١) تعرض (بوزن تضرب) أى تبدو وتظهر — وتلك الصور فاعلة ،
ويحوز أن يكون تعرض خطاباً للقارئ وتلك الصور مفعولة (ش) .

من شأنه أن يسرع بلى السكتان . وغرضه بهذا كله أن يعلم أن لا شك ولا مزية في أن المعاملة مع القمر نفسه ، وأن الحديث عنه بعينه ، وليس في البين شيء من غيره ، وأن التشبيه قد نسي وأنسى وصار كما يقول الشيخ أبو علي فيما يتعلق به الطرف : إنه شريعة منسوخة . وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان التصريح للكلام حساساً يعرف وحى طبع الشعر ، وخفى حركته التي هي كالهمس ، وكسرى النفس في النفس ، وإن أردت أن تظهر لك صحة عزيمتهم في هذا النحو على إخفاء التشبيه ومحو صورته من الوجدان ، فابرز صفحة التشبيه واكشف عن وجهه وقل : « لا تعجبوا من بلى غلالته فقد زَرَّ أزراره على من حسنه حَسَنُ القمر » . ثم انظر هل ترى إلا كلاماً فاتراً ، ومعنى نازلاً ؟ واخبر نفسك هل تجد ما كنت تجده من الأريحية ! وانظر في أعين السامعين هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ودلالة على الإعجاب ؟ ومن أين ذلك وأنى ؟ — وأنت بإظهار التشبيه تبطل على نفسك ماله وُضع البيت من الاحتجاج على وجوب البلى في الغلالة ، والمنع من العجب فيه بتقرير الدلالة ؟

وقد قال آخر في هذا المعنى بعينه إلا أن لفظه لا يبدى عن القوة التي لهذا البيت في دعوى القمر وهو قوله :

تري الثياب من السكتان يلحمها نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر في كل وقت طالع فيها^(١)
ومما ينظر إلى قوله : * قد زَرَّ أزراره على القمر * في أنه بلغ في دعواه في الجواز حقيقة مبلغ الاحتجاج به ، كما يحتاج بالحقيقة قول العباس بن الأحنف^(٢)

(١) العاجر : جمع معجر (كمنبر) ثوب تعتجر به المرأة أي تشده على رأسها .

(٢) قوله : حقيقة مفعول دعواه . وقول العباس من مؤخر خبره ومما ينظر .

هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا
صورة هذا الكلام ونُصبتُه^(١) والقالب الذي فيه أفرغ يقتضى أن التشبيه
لم يجر في خلقه وأنه معه كما يقال « لست منه وليس مني » وأن الأمر في ذلك قد
بلغ . بلغا لا حاجة معه إلى إقامة دليل وتصحيح دعوى بل هو في الصحة والصدق
بحيث تصحح به دعوى ثابتة . ألا تراه كأنه يقول للنفس ما وجه الطمع في الوصول
وعد علمت أن حديثك مع الشمس ومسكن السماء ؟ أفلا تراه قد جعل كونها
الشمس حجة على نفسه يصدفها بها عن أن ترجو الوصول إليها ويلجئها إلى العزاء
وردها في ذلك إلى مالا تشك فيه وهو مستقر ثابت كما تقول « أو ما علمت ذلك »
و « أليس قد علمت » ؟ ويبين لك هذا التفسير والتقرير فضل بيان بأن تقابل هذا
البيت بقول الآخر :

فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد
وتأمل أمر التشبيه فيه فإنك تجده على خلاف ما وصفت لك وذلك أنه لم
يجعل كونها الشمس حجة على ما ذكر بعد من قرب شخصها ومثالها في
العين مع بعد مثالها ، بل قال « هي الشمس » كذا قولاً مرسلاً يوعى فيه
بل يفصح بالتشبيه ولم يرد أن يقول : لا تعجبوا أن تقرب وتبعد بعد أن
علمتم أنها الشمس . حتى كأنه يقول : ما وجه شككم في ذلك ، ونم يشك
عافل في أن الشمس كذلك ؟ كما أراد العباس أن يقول : كيف الطمع في

(١) النصب بالضم واحدة النصب وهي أعلام وسواري تنصب لمعرفة الطريق
والمراد هنا كما قال شيخنا : ساريته وعموده الذي عليه يقوم .

الوصول إليها مع علمك بأنها الشمس وأن الشمس مسكنها السماء ؟ فبيت ابن أبي عيينة في أن لم ينصرف عن التشبيه جملة ولم يبرز في صورة الجاحد له والمتبرئ منه كبيت بشار الذي صرح فيه بالتشبيه وهو :

أو كبدر السماء غير قريب حين يوفي والضوء فيه اقتراب
وكبيت المتنبي :

كأنها الشمسُ يعني كنفٌ قابضة شعاعها ويراها الطرف مقترباً

فإن قلت : فهذا من قولك يؤدي إلى أن يكون الغرض من ذكر الشمس بيان حال المرأة في القرب من وجه والبعد من وجه آخر دون المبالغة في وصفها بالحسن وإشراق الوجه وهو خلاف المعتاد لأن الذي يسبق إلى القلوب أو يقصد من نحو قولنا : هي كالشمس أو هي شمس — الجمالُ والحسن والبهاء^(١) فالجواب أن الأمر وإن كان على ما قلت فإنه في نحو هذه الأحوال التي يقصد فيها إلى بيان أمر غير الحسن بصير كالشيء الذي يعقل من طريق العرف، وعلى سبيل التبع ، فأما أن يكون الغرض الذي له وضع الكلام فلا . وإذا تأملت قوله :

* فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها *

وقول بشار « أو كبدر السماء » وقول المتنبي « كأنها الشمس » علمت أنهم جعلوا جل غرضهم أن يصيبوا لها شبيهاً في كونها قريبة بعيدة وهو القياس أيضاً . فأما حديث الحسن فدخل في القصد على الحد الذي مضى في قوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

فكما أن هذا لم يضم كلامه لجعل النعمة كالشمس في الضياء والإشراق ولكنها عمت^(٢) كما تعم الشمس بإشراقها ، كذلك لم يضع هؤلاء أبياتهم

(١) الجمال خبر لأن الذي يسبق إلى القلوب .

(٢) قال شيخنا أصله : ولكن لأنها عمت الخ .

على أن يجعلوا المرأة كالشمس والبدر في الحسن ونور الوجه بل أموانحو المعنى الآخر ، ثم حصل هذا لم من غير أن احتاجوا فيه إلى تجشم . وإذا كان الأمر كذلك فلم يقل إن النعمة إنما عمت لأنها شمس ولكن أراك لعمومها وشمولها قياساً ، تحرى أن يكون ذلك القياس من شيء شريف له بالنعمة شبه من جهة أوصافه الخاصة فاختار الشمس . وكذلك لم يرد ابن أبي عيينة أن يقول إنها إنما دنت ونأت لأنها شمس أو لأنها الشمس بل قاس أمرها في ذلك كما عرفتك : وأما العباس فإنه قال إنها إنما كانت بحيث لا تنال ووجب اليأس من الوصول إليها لأجل أنها الشمس فأعرفه فرقاً واضحاً .

ومما هو على طريقة بيت العباس في الاحتجاج وإن خالفه فيما ذكره لك قول الصابي في بعض الوزراء يهنئه بالتخلص من الاستتار :

صح أن الوزير بدر منير إذ توارى كما توارى البدور
 غاب لا غاب ثم عاد كما كان على الأفق طالماً يستنير
 لا تسلى عن الوزير فقد بديتُ بالوصف أنه سابور
 لا خلا منه صدر دست إذا ما قرَّ فيه تقرُّ منه الصدور^(١)

فهو كما تراه يحتاج أن لا مجاز في البين فإن ذكر البدر وتسمية الممدوح به حقيقة واحتجاجه صريح لقوله صح أنه كذلك . وأما احتجاج العباس وصاحبه في قوله : * قد زر أزراره على القمر * فعلى طريق الفحوى . فهذا وجه الموافقة . وأما وجه المخالفة فهو أنهما ادعيا الشمس والقمر بأنفسهما

(١) الدست بالفتح المجلس ويطلق على البيت وعلى الوسادة وعلى الثوب وعلى الحيلة والخديعة والنوبة من الغلبة كما يقال في الشطرنج ونحوه : الدست لى والدست على (ش)

وادعى الصابىء بدرأ لا البدر على الاطلاق . ومن ادّعاء الشمس على الاطلاق
قول بشار :

بعثت بذكرها شعري وقدمت الهوى شركا
فلما شاقها قولي وشب الحب فاحتنكا
أتتني الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلكا
وجدت العيش في سعدى وكان العيش قد هلكا

فقوله : « ولم تك تبرح الفلكا » يريك أنه ادعى الشمس نفسها .
وقال أشجع يرثى الرشيد فبدأ بالتعريف ثم نكر فخط إحدى الطريقتين
بالأخرى وذلك قوله :

غربت بالشرق الشمسُ فقل للعين تدمع
ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع

فقوله : « غربت بالشرق الشمس » على حد قول بشار : « أتتني
الشمس زائرة » في أنه خيّل إليك شمس السماء . وقوله بعد « ما رأينا قط
شمساً » يُفْتَر^(١) أمر هذا التخيل ويميل بك إلى أن تكون الشمس في قوله :
« غربت بالشرق الشمس » غير شمس السماء أعز غير مدّعى أنها هي وذلك
لما يضطرب عليه المعنى ويقلق لأنه إذا لم يدّع الشمس نفسها لم يجب أن
تكون جهة خراسان شرقاً لها وإذا لم يجب ذلك لم يحصل ما أراده من الغرابة
في غروبها من حيث تطلع . وأظن الوجه فيه أن تناول تنكيره للشمس
في الثاني على قولهم : خرجنا في شمس حارة . يريدون في يوم كان للشمس
فيه حرارة وفضل توقّد ، فيصير كأنه قال : ما عهدنا يوماً غربت فيه

(١) يفتّر من الافتار يضيق أو يفتّر من التفتير أى يجعله فاتراً (ش) والمؤدى واحد

الشمس من حيث تطلع وهوت في جانب المشرق . وكثيراً ما يتفق في كلام الناس ما يوم ضرباً من التنكير في الشمس كقولهم : « شمس صيفية » وكقوله :
* والله لا طلعت شمس ولا غربت *

ولافرق بين هذا وبين قول المتنبي :

لم يُرَ قَرْنُ الشمس في شرقه فشكت الأنفس في غربه^(١)

ويجى* التنكير في القمر والحلال على هذا الحد فمنه قول بشار :

أملى لانات في قمر بحديث واتق الدرعا^(٢)

وتوق الطيب ليلتنا إبه واش إذا سـطعا

فهذا بمعنى : لانات في وقت قد طلع فيه القمر . وهكذا قول عمر بن أبي ربيعة :

وغاب قمر كنت أرجو غيوبه وروح رعيان ونوم سمر^(٣)

ظاهره يوم أنه كقولك : جاءني رجل ، وليس كذلك في الحقيقة لأن الاسم

لا يكون نكرة حتى يعم شيئين وأكثر وليس هنا شيان يعمهما اسم القمر^(٤)

وهكذا قول أبي العتاهية :

(١) قوله « فشكت » معطوف على « ير » أي لم يرى الشروق مقروناً بالشك

في الغروب بل من رأى الشمس شارقة أيقن بغروبها .

(٢) الدرع (كصرد) ثلاث ليال تلى البيض سميت بذلك لاسوداد أوائلها

وابيضاض سائرها .

(٣) روح الرعيان أي ردوا إبلهم إلى المراح . والسمر جمع سامر وهو الحادث

ليلاً . والبيت من القصيدة المشهورة التي أنشدها عمر بن عباس (رضى الله عنهما)

فحفظها من مرة واحدة ومطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر عداة غـد أم رائح فمـجر

ولام ابن عباس بعض أصحابه على حفظ هذه القصيدة فقال منكراً لومه :

« أمن آل نعم » ؟ يستجدها . (٤) أي بحسب ما يرى الناس بأبصارهم فيجـرى

فيه كلامهم وشعرهم . والواقع الذي ثبت بالنظر في الرايا الفلكية أن في السماء أقماراً

متعددة تابعة لبعض الدارارى فالمشترى منها له أربعة أقمار .

تسر إذا نظرت إلى هلال ونقصك إذ نظرت إلى الهلال
ليس المنكر غير المعروف ، على أن للهلال في هذا التفكير فضل تمكن ليس
للقمر^(١) ألا تراه قد جمع في قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة) ولم يجمع القمر
على هذا الحد .

ومن لطيف هذا التفكير قول البحتري :

وبدرين أنضيناها بعد ثالث اكناه بالايحاف حتى تمحما
ومما أتى مستكرها نايبا يتظلم منه المعنى وينكره قول أبي تمام :
قريب الندى نأى الحل كأنه هلال قريب النور ناء منازل

سبب الاستكراه وأن المعنى ينبو عنه أنه يوم بظاهره أن ههنا أهلة ليس
لها هذا الحكم ، أعنى أنه يتناءى مكانه ويدنو نوره ، وذلك محال ، فالذى يستقيم
عليه الكلام أن يؤتى به معرقا على حده في بيت البحتري .

كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

فإن قلت أقطع واستأنف فأقول « كأنه هلال » وأسكت ثم ابتدء وأخذ
في الحديث عن شأن الهلال بقولي « قريب النور ناء منازل » أمكنك^(٢) ولكنك
تعلم ما يشكوه إليه المعنى من نبو اللفظ وسوء ملائمة العبارة . واستقصاء هذا الموضع
يقطع عن الغرض وحقه أن يفرد له فصل .

وأعود إلى حديث المجاز وإخفائه ودعوى الحقيقة وحمل النفس على
تخيّلها . فما يدخل في هذا الفن ويجب أن يوازن بينه وبين ماضى قول
سعيد بن حميد .

(١) يعنى أن الهلال أشد قبولا للتفكير ويجرى فيه معناه بخلاف القمر (ش) .

(٢) أمكنك : جواب فإن قلت .

وعد البدر بالزيارة ليلا فإذا ما وفي قضيت نذوري
قلت يا سيدي ولم تؤثر الا يل على بهجة النهار المنير؟
قال لي لا أحب تغيير رسمى هكذا الرسم في طلوع البدور
قالوا وله في ضده :

قلت زوري فأرسلت أنا آتيك — سحره
قلت فالليل كان أخ في وأدنى مسره
فأجابت بحجة زادت القلب حسره
أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

وينبغي أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتاً
للزيارة في تلك والليل في هذه فأما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق
خصوصاً من حيث ينظر الآن فمثل وشبيهه ؛ وليس يصد ولا يقيض .

ثم اعلم أنا إن وازنا بين هاتين القطعتين وبين ما تقدم من بيت العباس
« هي الشمس مسكنها في السماء » وما هو في صورته وجدناهما أمراً بين
أمرين - بين ادعاء البدر والشمس أنفسهما ، وبين إثبات بدر ثان وشمس
ثانية ، ورأينا الشاعر قد شاب في ذلك الإنكار بالاعتراف ، وصادفت
صورة المجاز تعرضُ عنك مرة وتعرض لك أخرى . فقوله « البدر » بالتعريف
مع قوله « لا أحب تغيير رسمى » وتركه أن يقول : رسم مثلي يخيل إليك
البدر نفسه ، وقوله « في طلوع البدور » بالجمع دون أن يفرد فيقول هكذا
الرسم في طلوع البدور » بلغت بك إلى بدر ثان ويعطيك الاعتراف بالمجاز
على وجه . وهكذا القول في القطعة الثانية لأن قولك « أنا شمس » بالتنكير
اعتراف بشمس ثانية أو كالأعتراف .

ومما يدل دلالة واضحة على دعوى الحقيقة ولا يستقيم إلا عليها قول المتنبي :
 واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين في وقت معا
 أراد فأرتنى الشمس والقمر ثم غلب اسم القمر كقول الفرزدق :
 أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع
 لولا تخيل أنها الشمس نفسها لم يكن لتغليب اسم القمر والتعريف بالألف
 واللام معنى . وكذلك لولا ضبطه نفسه حتى لا يجرى المجاز والتشبيه في وهمه
 لكان قوله « في وقت معا » لغواً من القول فليس بمعجيب أن يتراءى لك
 وجه غادة حسناء في وقت طلوع القمر وتوسطه السماء ، وهذا أظهر من أن
 يخفى . وأما تشبيهه أبي الفتح لهذا البيت بقول القائل :

وإذا الفزالة في السماء ترفعت وبدا النهار لوقتته يترجل^(١)
 أبدت لوجه الشمس وجهاً مثله تلقى السماء بمثل ما تستقبل
 فتشبيهه على الجملة ومن حيث أصل المعنى وصورته في المعقول فأما الصورة
 الخاصة التي تحدث له بالصنعة فلم يعرض لها .
 ومما له طبقة عالية في هذا القبيل وشكل يدل على شدة الشكيمة
 وعلو المأخذ قول الفرزدق :

أبي أحمد الغيثين صمصعة الذي متى تخلف الجوزاء والدَّلو يمطر
 أجار بنات الواثدين ومن يجر على الموت تعلم أنه غير مخفر^(٢)

(١) نرجلت الشمس ارتفعت وترجل النهار ارتفع قال * وهاج به لما نرجلت الضحى *
 (٢) رواية الأغاني يعلم بالبناء المفعول . والفرزدق : الرغيف الضخم وهو لقب
 غلب على الشاعر المشهور وكان وجهه غليظاً جهماً واسمه همام ابن غالب بن صمصعة
 الذي يفتخر به في البيت الأول . فالمراد بقوله (أبي) جده وكان مشهوراً في الجاهلية
 بشراء البنات اللاتي يراد وأدهن لتخليصهن من الموت والمخفر مزيل الحفارة وهي من
 اسم خفّره إذا حماه ومنعه وأمنه .

أفلا تراه كيف ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك ومن لا يخطر بباله أنه مجاز فيه ومتناول له من طريق التشبيه وحتى كأن الأمر في هذه الشهرة بحيث يقال : أى الغيثين أجود ؟ فيقال صمصمة ، وحتى بلغ تمكن ذلك في العرف إلى أن يتوقف السامع عند إطلاق الاسم ، فإذا قيل أنك الغيث لم تعلم أيراد صمصمة أم المطر . وإن أردت أن تعرف مقدار ماله من القوة في هذا التخيل وأن مصدره مصدر الشيء المتعارف الذي لا حاجة به إلى مقدمة يدنى عليها نحو أن تبدأ فتقول : أبى نظير الغيث وثان له وغيث ثان ، ثم تقول : وهو خير الغيثين لأنه لا يختلف إذا اختلفت الأنواء^(١) فانظر إلى موقع الاسم فإنك تراه واقعاً موقعا لا سبيل لك فيه إلى حل عقد الثنية^(٢) وتفريق المذكورين بالاسم وذلك أن (أفعل) لا تصح إضافته إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر فلا يقال : جاءنى أفضل زيد وعمرو ، ولا أتى أعلم بكر وخالد عندى . بل ليس إلا أن تضيف إلى اسم مثنى أو مجموع في نفسه نحو أفضل الرجلين وأفضل الرجال وذلك أن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه أبداً فخفه أن يضاف إلى اسم يحويه وغيره . وإذا كان الأمر كذلك علمت أن اللفظ بالتشبيه والخروج عن صريح جمل اللفظ للحقيقة متعذر عليك إذ لا يمكنك أن تقول : أبى أحمد الغيث والثانى له والشبيه به ، ولا شيئاً من هذا النحو ، لأنك تقع بذلك في إضافة أفعل إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر .

وإذ قد عرفت هذا فانظر إلى قول الآخر :

(١) أى لا تختلف أوقاته وحق التعبير : لا يتخلف إذا اختلفت الأنواء . قاله وكتبه شيخنا

(٢) وفي نسخة « البنية » .

قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدرر^(١)
 غيثان في ساعة لنا اتفقا فرحبا بالأمير والمطر
 فإنك تراه لا يبلغ هذه المنزلة وذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثاً
 ولا يدعى فيه عرفاً جارياً وأمرأ مشهوراً متعارفاً يعلم كل واحد منه ما يعلمه .
 وليس بمتعذر أن يقول : عيث وثنان للغيث اتفقا^(٢) . أو يقول : الأمير ثاني الغيث
 والغيث اتفقا . فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت
 في مكانه وكان موضعه من الكلام أضن به وأشد محاماة عليه وأمنع لك من أن
 تتركه وترجع إلى الظاهر وتصرح بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى ، ودعوى
 المتكلم له أظهر وأتم .
 واعلم أن قول الباحثي :

غيثان إن جذب تتابع أقبلا وهما ربيع مؤمل وخريفه
 لا يكون مما نحن بصدده في شيء لأن كل واحد من الغيثين في هذا
 البيت مجاز لأنه أراد أن يشبه كل واحد من الممدوحين بالغيث . والذي نحن
 بصدده هو أن يضم المجاز إلى الحقيقة في عقد التثنية ولكن إن ضمنت
 إليه^(٣) قواه :

فلم أرضرغامين أصدق منكما عرا كما إذا الهيابة النكس كذبا^(٤)
 كان لك ذلك لأن أحد الضرغامين حقيقة والآخر مجاز . فإن قلت فهنا
 شيء يردك إلى ما أبينه من بقاء حكم التشبيه في جعله إياه الغيث وذلك

(١) قحط كعلم وبضم القاف المجهول والدر بالکسر جمع درة كسدره وسدر السحاب

(٢) أى فيجوز حل عقد التثنية (ش)

(٣) أى إلى ما نحن بصدده .

(٤) الهيابة صيغة مبالغة من هاب أى الكثير الخوف والنكس بالکسر الرذل .

أن تقدير الحقيقة في المجاز إنما يتصور في نحو بيت البحتري : « فلم أر ضرغامين » من حيث عمد إلى واحد من الأسود ثم جعل الممدوح أسداً على الحقيقة قد قارنه وضامه ولا سبيل للفرزدق إلى ذلك لأن الذي يقرنه إلى أبيه هو الغيث على الإطلاق . وإذا كان الغيث على الإطلاق لم يبق شيء يستحق هذا الاسم ويدخل تحته^(١) وإذا كان كذلك حصل منه أن لا يكون أبو الفرزدق غيثاً على الحقيقة — فالجواب أن مذهب ذلك ليس على ما تتوهمه ولكن على أصل في التشبيه وهو أن يقصد إلى المعنى الذي من أجله يشبه الفرع بالأصل كالشجاعة في الأسد والمضاء في السيف وينحى سائر الأوصاف جانباً وذلك المعنى في الغيث هو النفع العام . وإذا قدر هذا التقدير صار جنس الغيث كأنه عين واحدة^(٢) وشيء واحد . وإذا عاد بك الأمر إلى أن تتصوره تصور العين الواحدة دون الجنس كان ضم أبي الفرزدق إليه بمنزلة ضمك إلى الشمس رجلاً أو امرأة تريد أن تبالغ في وصفهما بأوصاف الشمس وتنزيلهما منزلتها كما تجده في نحو قوله :

فليت طالعة الشمس غائبة وليت غائبة الشمس لم تغب

(١) أي لجميع أفراد الغيث دخل في لفظه فأبو الفرزدق خارج عنه بالضرورة فحق ذكره ثانياً الغيث علم أنه مجاز لأنه ليس له غيثان بل لا غيث إلا واحد شامل لجميع أفرادها وليس منها أبو الفرزدق (ش)

(٢) أي مشخصة لا عموم فيها وذلك أنك لاحظت الغيث في جميع أفراد جملة واحدة ونظرت إليه نظرك إلى الشيء الواحد ثم شبهت به أبا الفرزدق وضممته إليه (ش)

فصل

« في الفرق بين التشبيه والاستعارة »

إن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما كان ذلك على ما مضى من الوجهين : (أحدهما) أن يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال^(١) أنك أردته وذلك أن تقول « عنت لنا ظبية » وأنت تريد امرأة « ووردنا بحراً » وأنت تريد المدوح ، فأنت في هذا النحو من الكلام إنما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له في أصل اللغة بدليل الحال أو إفصاح المقال بعد السؤال أو بفحوى الكلام وما يتلوه من الأوصاف . مثال ذلك أنك إذا سمعت قوله :

ترنج الشرب واغتالت حلومهم شمس ترجل فيهم ثم ترتحل^(٢)
استدللت بذكر الشرب واغتيال الحلوم والارتحال أنه أراد قينة^(٣) ولو قال
ترجلت شمس ولم يذكر شيئاً غيره من أحوال الآدميين لم يعقل قط أنه أراد امرأة
بأخبار مستأنف أو شاهد آخر من الشواهد .

ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة كما روى أن عدي ابن حاتم
اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط في قوله تعالى : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من
الخيط الأسود) وحمله على ظاهره فقد روى أنه قال لما نزلت هذه الآية أخذت عقلاً
أسود وعقلاً أبيض فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت فلم أتبين ، فذكرت ذلك النبي
صلى الله عليه وسلم فقال : « إن وسادك لطويل عريض إنما هو الليل والنهار^(٤) » .

(١) أى من أول الأمر وبمجرد اللفظ

(٢) الشرب بالفتح جماعة الشاربين وترجلت الشمس ارتفعت والمراد تظهر
ويسطع ضوءها (٣) القينة المغنية والعازفة .

(٤) الحديث في الصحيحين وغيرها ولفظه : « إن وسادك لعريض » وفي مسلم
« وسادتك » وهي أخس إنما « هو سواء الليل وبياض النهار »

(والوجه الثانى) أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فتقول :
زيد أسد ، وهند بدر ، وهذا الرجل الذى تراه سيف صارم على أعدائك .
وقد كنت ذكرت فيما تقدم أن فى إطلاق الاستعارة على هذا الضرب الثانى
بعض الشبهة ووعدتك بكلام يحىء فى ذلك وهذا موضعه .

اعلم أن الوجه الذى يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضى فى الوساطة^(١)
أن لا تطلق الاستعارة على نحو قولنا : « زيد أسد وهند بدر » . ولكن
نقول هو تشبيه ؛ فإذا قال : هو أسد ، لم تقل استعار له اسم الأسد واسكن
تقول شبهه بالأسد ، وتقول فى الأول إنه استعارة لا تتوقف فيه ولا تتحاشى
البهة ، وإن قلت فى القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً ، من حث تخبر
عما فى نفس المتكلم وعن أصل الغرض ، وإن أردت تمام البيان قلت أراد
أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة . فإن قلت فكذلك فقل فى
قولك « زيد أسد » إنه أراد تشبيهه بالأسد فأجرى اسمه عليه ، ألا ترى
أنك ذكرته بلفظ التنكير فقلت : زيد أسد كما تقول زيد واحد من الأسود
فما الفرق بين الحالين ، وقد جرى الاسم فى كل واحد منهما على المشبه ؟
فالجواب أن الفرق بين ، وهو أنك عزلت فى القسم الأول الاسم الأصل
عنه واطرحته وجعلته كأن ليس باسم له ، وجعلت الثانى هو الواقع عليه
والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً فى نفسك ، مكنوناً فى ضميرك
وصار فى ظاهر الحال وصورة الكلام وقضيته ، كأنه الشئ الذى وضع له

(١) أى كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد شعره للقاضى أبى الحسن على
ابن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ وهو الذى ينقل المصنف عنه كثيراً .

الاسم في اللغة وتصور أن تعلقه الوهم كذلك . وليس كذلك القسم الثاني لأنك قد صرحت فيه بالمشبه وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به . وإذا سمع السامع قولك : « زيد أسد وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء » استحال أن يظن ، وقد صرحت له بذكر زيد أنك قصدت أسداً وسيفاً ، وأكثر ما يمكن أن يدعى تخيله في هذا أن يقع في نفسه من قولك : زيد أسد ، حال الأسد في جراته وإقدامه وبطشه ، فأما أن يقع في وهمه أنه رجل وأسد معاً بالصورة والشخص فمحال .

ولما كان كذلك ، كان قصد التشبيه من هذا النحو بيناً لا تحماً ، وكائناً من مقتضى الكلام ، وواجباً من حيث موضوعه ، حتى إن لم يحمل عليه كان محالاً ؛ فالشيء الواحد لا يكون رجلاً وأسداً ، وإنما يكون رجلاً وبصفة الأسد فيما يرجع إلى غرائز النفوس والأخلاق ، أو خصوص في الهيئة كالسكرانة في الوجه ، وليس كذلك الأول ، لأنه يحتمل الحمل على الظاهر على الصحة ، فليست بمنوع من أن تقول : عمت لنا ظيية ، وأنت تريد الحيوان ، وطلعت شمس وأنت تريد الشمس ، كقولك : طلعت اليوم شمس حارة ، وكذلك تقول : هزرت على الأعداء سيفاً ، وأنت تريد السيف ، كما تقوله وأنت تريد رجلاً بأسلاً استعنت به ، أو رأياً ماضياً وفقت فيه ، وأصبت به من العدو فأرهبته وأثرت فيه .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن يفصل بين القسمين فيسمى الأول استعارة على الإطلاق ، ويقال في الثاني إنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيهاً فغير ممنوع ولا غريب ، إلا أنه على أنك تنبهر عن الغرض وتنبيء عن مضمون الحال ، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجباً له صريحاً فلا ، فإن قلت : فكذلك قولك « هو أسد » ليس في ظاهره تشبيه لأن التشبيه

يحصل بذكر الكاف أو « مثل » أو نحوها — فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن موضوعه من حيث الصورة يوجب قصدك التشبيه لاستحالة أن يكون له معنى وهو على ظاهره وله مثال من طريق العادة وهو أن مثل الاسم مثل الهيئة التي يستدل بها على الأجناس كزى الملك وزى السوقه ، فكما أنك لو خلعت من الرجل أثواب السوقه ونفيت عنه كل شيء يختص بالسوقه وألبسته زى الملك فأبديته للناس في صورة الملك حتى يتوهموه ملكاً وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار أو اختبار واستدلال من غير الظاهر — كنت قد أعرتة هيئة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعريه من المعاني التي تدل على كونه سوقه لم تكن قد أعرتة بالحقيقة هيئة الملك لأن المقصود من هيئة الملك أن يحصل بها المهابة في النفس وأن يتوهم العظمة ، ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقه .

افرض هذه الموازنة في الشيء الواحد كالثوب الواحد يعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفرداً وإنما اعتبر الهيئة وهي تحصل بمجموع أشياء وذلك أن الهيئة هي التي يشبه حالها حال الاسم لأن الهيئة تخص جنساً كما أن الاسم كذلك والثوب على الإطلاق لا يفعل ذلك إلا بخصائص تقترب به وتراعى معه ، فإذا كان السامع قولك « زيد أسد » لا يتوهم أنك قصدت أسداً على الحقيقة لم يكن الاسم قد لحقه ولم تكن قد أعرتة إياه بإعارة صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك .

هذا — وإذا تأملنا حقيقة الاستعارة في اللغة والعادة كان في ذلك أيضاً بيان لصحة هذه الطريقة ووجوب الفرق بين القسمين ، وذلك أن من

شرط المستعار أن يحصل للمستعير منفعه على الحد الذي يحصل للمالك فإن كان ثوباً لبسه كما لبسه ، وإن كان أداة استعمالها في الشيء تصلح له ، حتى إن الرأى إذا رآه معه لم تنفصل حاله عنده من حال ما هو ملك يد ليس بغارية وإنما يفضل المالك في أن له أن يتلف الشيء جملة أو يدخل التلف على بعض أجزائه قصداً وليس للمستعير ذلك ، ومعلوم أن ما هو كالمصلحة من الاسم أن يوجب ذكره القصد إلى الشيء في نفسه ، فإذا قلت « زيد » علم أنك أردت أن تخبر عن الشخص المعلوم ، وإذا قلت « لقيت أسداً » علم أنك علمت اللقاء بواحد من هذا الجنس ، وإذا كان الأمر كذلك ثم وجدنا الاسم في قولك « عنت ظبية » يعقل من إطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ولا يعلم أنك قصدت امرأة ، فقد وقع من المرأة في هذا الكلام موقعه من ذلك الحيوان على الصحة فكان ذلك بمنزلة أن المستعير ينتفع بالمستعار انتفاع مالكه فيلبسه ، لبسه ويتجمل به تجمله ، ويكون مكانه عنده مكان الشيء المملوك ، حتى يعتقد من ينظر إلى الظاهر أنه له ، ولما وجدنا الاسم في قولك « زيد أسد » لا يقع من زيد ذلك الموقع من حيث أن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم مطلقاً عليه ومتناولاً له على حسد تناوله ما وضع له وزان ذلك وزان أن يضع الرجل عند الرجل ثوباً ويمنعه أن يلبسه أو بمنزلة أن تطرح عليه طرف ثوب كان عليك فلا يكون ذلك عارية صحيحة لأنك لم تدخله في جملة ، ولم تعطه صورة ما يختص به وبصير إليه ويخفى كونه لك دونه ، فأعرفه .

وهنا فصل آخر من طريق موضوع الكلام يبين وجوب الفرق

بين القسمين ، وهو أن الحالة التي يختلف في الاسم إذا وقع فيها أيسمى استعارة أم لا يسمى — هي الحالة التي يكون الاسم فيها خبر مبتدأ أو متزلاً منزلة ، أعني أن يكون خبر كان ومفعولاً ثانياً لباب علمت ، لأن هذه الأبواب كلها أصلها مبتدأ وخبر ، ويكون حالاً لأن الحال عندهم زيادة في الخبر فحكمها حكم الخبر فيما قصدته ههنا خصوصاً ، والاسم إذا وقع في هذه المواضع فأنت واضح كلامك لإثبات معناه وإن أدخلت النفي على كلامك تعلق النفي بمعناه .

تفسير هذه الجملة أنك إذا قلت « زيد منطلق » فقد وضعت كلامك لإثبات الانطلاق لزيد . ولو نفيت فقلت « ما زيد منطلقاً » كنت نفيت الانطلاق عن زيد . وكذلك « كان زيد منطلقاً » وعلمت زيدا منطلقاً ، ورأيت زيدا منطلقاً . أنت في ذلك كله واضح كلامك ومزج له لتثبيت الانطلاق لزيد ولو خولفت فيه انصرف الخلاف إلى ثبوته . وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت : زيد أسد ، ورأيت أسداً ، فقد جعلت اسم المشبه به خبراً عن المشبه . والاسم إذا كان خبراً عن الشيء كان خبراً عنه إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشيء كالانطلاق في قولك « زيد منطلق » أو إثبات جنسية هو موضوع لها كقولك : هذا رجل فإذا امتنع في قولنا « زيد أسد » أن تثبت شبه الجنسية لزيد على الحقيقة كان لإثبات شبه من الجنس له ، وإذا كنا إنما نثبت شبه الجنس فقد اجتلبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله في حيز الحصول والثبوت ، وإذا كان كذلك كان خليقاً بأن نسميه تشبيهاً إذا كان إنما جاء ليفيده ويوجبه .

وأما الحالة الأخرى التي قلنا إن الاسم فيها يكون استعارة من غير

خلاف فهي حالة إذا وقع الاسم فيها لم يكن الاسم مجتلبا لإثبات معناه للشيء . ولا الكلام موضوعا لذلك لأن هذا حكم لا يكون إلا إذا كان الاسم في منزلة الخبر من المبتدأ . فأما إذا لم يكن وكان مبتدأ بنفسه أو فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه فأنت واضع كلامك لإثبات أمر آخر غير ما هو معنى الاسم .

بيان ذلك أنك إذا قلت : جاءني أسد ورأيت أسدا ومررت بأسد ، فقد وضعت الكلام لإثبات الجيء واقعا من الأسد ، والرؤية والمرور واقعين منك عليه . وكذلك إن قلت : الأسد مقبل ، فالكلام موضوع لإثبات الإقبال للأسد لإثبات معنى الأسد . وإذا كان الأمر كذلك ثم قلت : عنت لنا ظبية وهزرت سيفا صارما على الأعداء — وأنت تعنى بالظبية امرأة وبالسيف رجلا ، لم يكن ذكرك للاسمين في كلامك هذا لإثبات الشبه المقصود الآن . وكيف يتصور أن يقصد إلى إثبات الشبه منهما لشيء وأنت لم تذكر قبلهما شيئا ينصرف إثبات الشبه إليه وإنما يثبت الشبه من طريق الرجوع إلى الحال والبحث عن خيء في نفس المتكلم وإذا كان كذلك بأن أن الاسم في قولك : زيد أسد — مقصود به إيقاع التشبيه في الحال وإيجابه .

وأما في قولك : عنت لنا ظبية ، وسللت سيفا على العدو ، فوضّع الاسم هكذا انتهازا واقتضابا على المقصود وادعاء أنه من الجنس الذي وضع له الاسم في أصل اللغة . وإذا افترقا هذا الافتراق وجب أن يفرق بينهما في الاصطلاح والعبارة كما أنا نفصل بين الخبر والصفة في العبارة لاختلاف الحكم فيهما بأن الخبر إثبات في الوقت للمعنى ، والصفة تبين وتوضيح وتخصيص

بأمر قد ثبت واستقر وعرف ، فكما لم نرض لاتفاق الغرض في الخبر والصفة على الجملة واشتراهما إذا قلت « زيد ظريف وجاءني زيد الظريف » في التباس زيد في الظرف واكتسائه له أن نجعلهما في الوضع الاصطلاحي شيئاً واحداً ولا نفرق بتسميتهما هذا خبراً وذاك صفة ، كذلك ينبغي أن لا يدعونا اتفاق قولنا : جاءني أسد : وهزرت سيفاً صارماً ، وقولنا : زيد أسد وسيف صارم في — مطلق التشبيه — إلى التسوية بينهما وترك الفرق من طريق العبارة ، بل وجب أن نفرق فنسمى ذالا استعارة وهذا تشبيهاً فإن آيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثاني فينبغي أن تعلم أن إطلاقها لا يجوز في كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه عليه بسهولة وذلك نحو قولك : هو الأسد وهو شمس النهار ، وهو البدر حسناً وبهجة ، والقضب عطفاً^(١) وهكذا كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف . فإن قلت : « هو بحر وهو ليث ووجدته بحراً » وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذر أشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبهاً بطرف من الصواب ، وذلك أن الإسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت هو كأسد وهو كبهر ، كان كلاماً نازلاً غير مقبول كما يكون قولك هو كالأسد ، إلا أنه وإن كان لا نحسن فيه الكاف فإنه يحسن فيه « كأن » كقولك : كأنه أسد ، أو ما يجري مجرى « كأن » في نحو « تحسبه أسداً وتخاله سيفاً » فإن غمض^(٢) مكان الكاف وكأن بأن يوصف الإسم الذي فيه

(١) عطف المرء — قيل وغيره — جانباً من لدن رأسه إلى وركيه وقد يكون اللفظ هنا عطفاً بالفتح أى تمايلاً (ش)

(٢) غمض من بابي نصر وضرب غمضا وغموضاً أى غاب أو خفي .

التشبيه بصفة لا تكون في ذلك الجنس وأمر خاص غريب فقيل : هو بحر من
البلاغة ، وهو بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لا تغيب . وكقوله :
شمس تألق والفراق غروبها عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلى أن تسميه استعارة لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه
إذ لا تصل إلى الكاف حتى تبطل بنية الكلام وتبدل صورته فتقول : هو كالشمس
المتألقة إلا أن فراقها هو الغروب وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف .

وقد يكون في الصفات التي تجيء في هذا النحو والصلات التي توصل بها
ما يختل به تقدير التشبيه فيقرب حينئذ من القليل الذي تطلق عليه الاستعارة من
بعض الوجوه وذلك مثل قوله :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريص الموب منه ترعد^(١)

لا سبيل لك إلى أن تقول هو كالأسد وهو كالموت لما يكون في ذلك من
التناقض لأنك إذا قلت هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع المعروف ومحال
أن تجعله محمولا في الشبه على هذا الجنس^(٢) أولا ثم تجعل دم الهزبر الذي
هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه في الشبه دليل على أنه
دونه ، وقولك بعد « دم الهزبر من الأسود خضابه » دليل على أنه فوقها .
وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ثم تجعله يخافه ، وترعد منه أكتافه ،
وكذا قوله :

سحاب عداني سيله وهو مسبل وبحر شداني فيضه وهو منعم
وبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلى منه أسود مظلم

(١) الفريص جمع فريصة وهي لحمة بين الثدي والكتف وقيل بين الجنب والكتف
ترعد عند الفرع ولهذا قال المصنف فيما يأتي ترعد منه أكتافه وأرعد بضم الهمزة
أخذته الرعدة وهي بالكسر الرجفة من برد أو خوف

(٢) أي ملاحظاً به قاله شيخنا

إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت هو كالبدر ثم جئت تقول : أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلى مظلم لم يضيء به ، كنت كأنك تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك ، وذلك محال وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بديراً مفرداً له هذه الخاصة العجيبة التي لم تعرف للبدر ، وهذا إنما يأتي بكلام بعيد من هذا النظم ، وهو أن يقال هل سمعت بأن البدر يطلع في أفق ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التي هي معرضة له وكأنه في مقابلته حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوءه ؟ ومعلوم بعد هذا من طريقة البيت فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد في جنس البدر واحد له حكم وخاصة لم تعرف . وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعاً للإثبات الشبه بينه وبين البدر ولكن لإثبات الصفة في واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر فيصير بمنزلة قولك : زيد رجل يقرى الضيوف ويفعل كيت وكيت . فلا يكون قصدك إثبات الصفة التي ذكرتها له فإذا خرج الاسم الذي يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصوداً بالإثبات تبين أنه خارج عن الأصل الذي تقدم من كون الاسم لإثبات الشبه . فالبحتري في قوله : « وبدر أضاء الأرض » قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بديراً أمراً قد استقر وثبت وإنما يعمل في إثبات الصفة الغريبة والحالة التي هي موضع التعجب . وكما يمتنع دخول السكاف في هذا النحو كذلك يمتنع دخول « كأن وتحسب وتخال » فلو قلت : « كأنه بدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلى منه مظلم » كان خلفاً من القول . وكذلك إن قلت « تحسبه بديراً أضاء الأرض ورحلى منه مظلم » كان كالأول في الضعف .

ووجه بعده من القبول بين وهو أن « كأن وحسبت وخلت وظننت » تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثانى أمراً معقولاً ثابتاً فى الجملة إلا أنه فى كونه متعلقاً بما هو اسم كأن أو المفعول الأول من حسبت مشكوك فيه كقولنا « كأن زيداً منطلق » أو مجاز يقصد به خلاف ظاهره نحو « كأن زيداً أسد » فالأول على الجملة ثابت معروف والغريب هو كون زيد إياه ومن جنسه . والنكرة فى نحو هذه الأبيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شيء لا يعرف ولا يتصور . وإذا كان كذلك كان إدخال « كأن وحسبت » عليه كالتقياس على المجهول :

وتأمل هذه النكتة فإنه يضعف ثانياً إطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضاً لأن موضوع الاستعارة كيف دارت القضية على التشبيه وإذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس إذا قلبت عن سره ونقرت عن خبيثه فمحصوله أنك تدعى حدوث شيء هو من الجنس المذكور إلا أنه اختص بصفة غريبة وخاصية بعيدة لم يكن يتوهم جوازها على ذلك الجنس كأنك تقول : ما كنا نعلم أن ههنا بديراً هذه صفته — كان تقدير التشبيه فيه نقضاً لهذا الغرض ، لأنه لا معنى لقولك أشبهه بيدر حدث خلاف البدور ما كان يعرف .

وهذا موضع لطيف جداً لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه ، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبرة لدقة مسلكه ، ويتصل به أن فى الاستعارة الصحيحة ما لا يحسن دخول كلم التشبيه عليه وذلك إذا قوى الشبه بين الأصل والفرع حتى يتمكن الفرع فى النفس بمدخلته ذلك الأصل والاتحاد به وكونه إياه وذلك فى نحو النور إذا استعير للعلم والإيمان

والظلمة للكفر والجهل ، فهذا النحو لتمكنه وقوة شبهه ومقارنة سببه قد صار كأنه حقيقة ولا يحسن لذلك أن تقول في العلم : كأنه نور ، وفي الجهل كأنه ظلمة ، لا تكاد تقول للرجل في هذا الجنس « كأنك قد أوقعتني في ظلمة » بل تقول : أوقعتني في ظلمة . وكذلك الأكثر على الألسن والأسبق إلى القلوب أن تقول : فهمت المسألة فانشرح صدرى وحصل في قلبي نور ، ولا تقول : كأن نورا حصل في قلبي ، ولكن إذا تجاوزت هذا النوع إلى نحو قولك : سللت منه سيفاً على الأعداء ، وجدت « كأن » حسنة هناك كثيراً كقولك : بعثته إلى العدو فكأنى سللت سيفاً ، وكذلك في نحو : زيد أسد « كأن زيدا أسد » وهكذا يتدرج الحكم فيه حتى كلما كان مكان الشبه بين الشئين أخفى وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر في الاستعمال .

ومما يجب أن نجعله على ذكر منك أبدا وفيه البيان الشافي أن بين القسمين تبايناً شديداً أعنى بين قولك : زيد أسد ، وقولك : رأيت أسداً . وهو ما قدمته لك من أنك قد تجد الشئ يصلح في نحو : زيد أسد ، حيث يذكر المشبه باسمه أولاً ثم يجرى اسم المشبه به عليه ولا يصلح في القسم الآخر الذي لا يذكر فيه المشبه أصلاً وتطرحه . ومن الأمثلة البينة في ذلك قول أبي تمام :

وكان المطل في بدء وعود دخاناً للصنيعة وهي نار^(١)

قد شبه المطل بالدخان ، والصنيعة بالنار ، ولسكنه صرح بذكر المشبه وأوقع

(١) المصراع الأول في نسخة الديوان المطبوعة هكذا « وكان المدح في عود

=

وبدء » وقبله

(١٩ - أسرار البلاغة)

المشبه به خبراً عنه ، وهو كلام مستقيم . ولو سلكت به طريقة ما يسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلاً : « أقبستني ناراً لها دخان » . كان ساقطاً . ولو قلت : « أقبستني نوراً أضاء أفقى به » . تريد علماً ، كان حسناً حسنه إذا قلت : « علمك نور في أفقى » . والسبب في ذلك أن اطراح ذكر المشبه والاقتصار على اسم المشبه به وتنزيله منزلته وإعطاءه الخلافة على المقصود ، إنما يصح إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له وتستنيبه في الدلالة ، وقد تقرر في العرف الشبه بين النور والعلم وظهر واشتهر ، كما تقرر الشبه بين المرأة والطبية ، وبينها وبين الشمس ، ولم يتقرر في العرف شبه بين الصنعة والنار ، وإنما هو شيء يضعه الآن أبو تمام ، ويتمحله ويعمل في تصويره ، فلا بد له من ذكر المشبه والمشبه به جميعاً ، حتى يعقل عندما يريده ، ويبين الغرض الذي يقصده ، وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده رجلاً هو مثل زيد في العلم مثلاً فيقول له : « عندي زيد » ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول عندي رجل مثل زيد أو غيره من المعاني ، وذلك تسكليف علم الغيب ؛ فأعرف هذا الأصل وتبينه فإنك تزداد به بصيرة في وجوب الفرق بين الضربين ، وذلك أنهما لو كانا مجريان مجرى واحداً في حقيقة الاستعارة لوجب أن يستويا في القضية حتى إذا استقام وضع الاسم في أحدهما استقام وضعه في الآخر فأعرفه .

= رأيت صنائعا معكت فأمست ذبائح والمطال لها شفاف
 نسيب البخل مذ كانا والا يكن نسب فبينهما جوار
 لذلك قيل بعض المنع أدنى إلى مجد وبعض الجود عار
 معكت بالبناء للمفعول مطلات يقال معك دينه وبدينه إذا مطله .

فإن قلت : فما تقول في نحو قولهم لقيت به أسداً ورأيت به ايثاً ؟ فإنه ^(١) مما لا وجه لتسميته استعارة ، ألا تراهم قالوا : لئن لقيت فلاناً ليلقينك منه الأسد ، فأتوا به معرفة على حده إذا قالوا : احذر الأسد ، وقد جاء على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه فيظن أنه استعارة وهو قوله عز وجل : (لم فيها دار الخلد) والمعنى والله أعلم أن النار هي دار الخلد وأنت تعلم أن لا معنى ههنا لأن يقال إن النار شبت بدار الخلد إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشيء يسمى دار الخلد كما تقول في زيد : إنه مثل الأسد . ثم تقول : هو الأسد وإنما هو كقولك : النار منزلم ومسكنهم ، نعوذ بالله منها . وكذا قوله :

* بأبي الظلامة منه النوفل الزفر ^(٢) *

المعنى على أنه النوفل الزفر ، وليس النوفل الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد فيقال إنه شبه الممدوح به وإنما هو صفة كقولك هو الشجاع وهو السيد وهو النهاض بأعباء السيادة . وكذا قوله :

ياخير من يركب المطى ولا يشرب كأساً بكف من بخلا
لا يتصور فيه التشبيه وإنما المعنى أنه ليس ببخيل .

هذا — وإنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على ما يدعى أنه مستعار له والاسم في قولك لقيت به أسداً ولقيني منه الأسد لا يتصور جريه على المذكور بوجه لأنه ليس بخبر عنه ولا صفة له ولا حال وإنما هو بنفسه مفعول لقيت وفاعل لقيني ولو جاز أن يجرى الاسم ههنا بجرى الاستعارة المتناولة المستعار له لوجب أن يقول في قوله :

(١) قوله فإنه الخ جواب فإن قلت (س) .

(٢) النوفل الرجل المعطاء والزفر الشجاع وعلى هذا كلام المصنف في جعلهما وصفين ولكن من معاني النوفل البحر ومن معاني الزفر الأسد

حتى إذا جن الظلام واختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط^(١)
 « إنه استعار اسم الذئب للمذق » وذلك بين الفساد . وكذا نحو قوله :
 نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد^(٢)
 لا يكون استعارة وإن كنت تجد من يفهم البيت قد يقول : أراد بالأسد
 النعمان أو شبهه بالأسد . لأن ذلك بيان للغرض . فأما القضية الصحيحة
 وما يقع في نفس العارف ويرحيه نقد الصيرف فإن الأسد واقع على حقيقته
 حتى كأنه قال : ولا قرار على زار هذا الأسد — وأشار إلى الأسد خارجاً
 من عرينه ، مهدداً موعداً بزئيره . وأى وجهه للشك في ذلك وهو يؤدي
 إلى أن يكون الكلام على حد قولك ؟ ولا قرار على زار من هو كالأسد .
 وفيه من العي والفجاجة شيء غير قليل^(٣) .
 هذا — ومن حق غلط غلط في نحو ما ذكرت على قلة عذره أن لا يغلط
 في قول الفرزدق :

قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالاً
 ولا يتوهم أن « هلالاً » استعارة لسعيد لأن الحكم على الاسم بالاستعارة مع
 وجود التشبيه الصريح محال جار مجرى أن يكون كل اسم دخل عليه كلف التشبيه
 مستعاراً . وإذا لم يغلط في هذا فالباقي بمنزلة قاعرفه .

(١) المذق بالفتح مصدر بمعنى اسم المفعول من مذق اللبن والشراب أى مزجه
 فأكثر من الماء فيه فهو ممذوق ومذيق . والمذقة الطائفة أو الدفعة منه ويكنى
 الذئب بأبي مذقة لأن لونه يشبه اللبن الممزوج بالماء . وههنا يصح التشبيه المشار إليه
 برؤية الذئب ولا تصح الاستعارة كما قال المصنف

(٢) زار الأسد وزئيره معروف وفعله من باب فتح وضرب ، شبه وعيد أبي قابوس
 بزئير الأسد في أنه لا يقر للمهدد به قرار .

(٣) قوله الفجاجة بالفتح حالة الفاكهة ونحوها قبل النضج والفج بالكسر الذى
 لم ينضج من الفواكه وغيرها واستعارها للكلام

فصل

« في الاتفاق في الأخذ والسرقة . والاستعداد والاستعانة »

اعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يحل ذلك من أن يكون في الغرض على الجملة والعموم أو في وجه الدلالة على الغرض . والاشتراك في الغرض على العموم أن يقصد كل واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء ، أو حسن الوجه والبهاء ، أو وصف فرسه بالسرعة أو ما جرى هذا المجرى ، وأما وجه الدلالة على الغرض فهو أن يذكر ما يستدل به على اثباته له الشجاعة والسخاء مثلا وذلك ينقسم أقساماً منها التشبيه بما يوجد هذا الوصف فيه على الوجه البليغ والغاية البعيدة كالتشبيه بالأسد وبالبحر في البأس والجود ، وبالبدر والشمس في الحسن والبهاء والإنارة والإشراق ومنها ذكر هيات تدل على الصفة من حيث كانت لا تكون إلا فيمن له الصفة كوصف الرجل في حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح وقلة الفكر كقوله :

كأن دنائراً على قسماتهم وإن كان قد شف الوجوه لقاء^(٢)
وكذلك الجواد يوصف بالتهلل عند ورود العفاة والارتياح لرؤية المجتدين^(٣) والبخيل بالعبوس والقطوب وقلة البشر مع سمة ذات اليد ومساعدة الدهر .

(١) الضمير في كانت للهيات والصفة مثل الشجاعة والهيئة كالابتسام (ش) .
(٢) القسمات الوجوه وأراد أنها تشرق في الحرب . وشغفه الهم والمرض والحب أوهنه وأذا به . والمراد بالوجوه وجوه المخاريب غير المدوحين (ش)
(٣) العفاة كالتقضاة بمعنى المجتدين وهم طلاب الفضل والجدا

فأما الاتفاق في عموم الغرض فما لا يكون الاشتراك فيه داخلا في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ، لا ترى من به حس يدعى ذلك ويأبى الحكم بأنه لا يدخل في باب الأخذ ، وإنما يقع الغلط من بعض من لا يحسن التحصيل ولا ينعم التأمل فيما يؤدي إلى ذلك حتى يدعى عليه في الحاجة أنه بما قاله قد دخل في حكم من يجعل أحد الشعارين عيالا على الآخر في تصور معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به ، وأن الجهل مما يذم به ، فأما أن يقوله صريحا ويرتكبه قصدا فلا .

وأما الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فإن كان مما اشترك الناس في معرفته وكان مستقرا في العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوصا في المعنى حكم العموم الذي تقدم ذكره ، من ذلك ، التشبيه بالأسد في الشجاعة ، وبالبحر في السخاء ، وبالقدر في النور والبهاء ، وبالصبح في الظهور والجلال ، ونفى الاتباس عنه والخفاء ، وكذلك قياس الواحد في خصلة من الخصال على المذكور بذلك والمشهور به والمشار إليه سواء كان ذلك ممن حضرك في زمانك أو كان ممن سبق في الأزمنة الماضية والقرون الخالية ، لأن هذا مما لا يختص بمعرفة قوم دون قوم ، ولا يحتاج في العلم به إلى روية واستنباط وتدبر وتأمل ، وإنما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس ، والقضايا التي وضع العلم بها في القلوب .

وإن كان مما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويناله بطلب واجتهاد ، ولم يكن كالأول في حضوره إياه وكونه في حكم ما يقابله^(١) الذي لا معاناة عليه فيه ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط

(١) أى بمنزلة ما هو بين يديه وتجاهه يقابله بوجهه لا يحجبه عنه شيء (ش)

والاستنارة ، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ، وعليه كم^١ يفتقر إلى شقه بالتفكير^(١) وكان درأ في قعر بحر لا بد له من تكلف الفوص عليه ، وممتنعاً في شاق لا يناله إلا بتجشم الصعود إليه ، وكامناً كالنار في الزند لا يظهر حتى يقتدحه ، ومشابكاً لغيره كمروق الذهب التي لا تبدى صفحتها بالهويناء بل تنال بالحفر عنها ، وبعرق الجبين في طلب التمكن منها ، نعم إذا كان هذا شأنه^(٢) ، وههنا مكانه ، وبهذا الشرط يكون مكانه ، فهو الذي يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية ، وأن يحمل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر ، وأن الثاني زاد على الأول ونقص عنه ، وترقى إلى غاية أبعد من غايته ، أو انحط إلى منزلة هي دون منزلته .

واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العام ، والظاهر الجلى ، والذي قلت إن التفاضل لا يدخله ، والتفاوت لا يصح فيه ، إنما يكون كذلك منه ما كان صريحاً ظاهراً لم تلحقه صنعة ، وساذجاً لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ، ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب السكناية والتعريض ، والرمز والتلويح فقد صار بما غير من طريقتيه ، واستؤنف من صورته ، واستُجد له من المعرض^(٣) ، وكسى من ذلك المعرض^(٤) ، داخلاً في قبيل الخاص الذي يملك بالفكرة والعمل ، ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل ،

(١) الكم بالكسر الغلاف الذي يحيط بالثمر والزهر وينشق عنه .

(٢) شأنه بالرفع لأن الغرض أن يخبر عن الشأن بهذا — لأن « هذا » معناه الأحوال المتقدمة وهي المجهولة التي يحتاج أن يخبر بها عن الشأن (ش)

(٣) المعرض كمنبر هو الثوب الذي تجلى به العروس وتقدم .

(٤) المراد من المعرض الطلب (ش)

وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » كقول بعض العرب :
سلبن ظباء ذى نقر طلائها ونجل الأعين البقر الصوارا^(١)
وكقوله :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت إلى نذاك فقاسته بما فيها
وكقوله :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارها إلا بوجه ليس فيه حياء
وكقوله :

واهتز في درع الندى فتحركت حركات غصن البانة المتأود
وكقوله :

فأقصيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر الأفق حين أقابله
إلى مسرف في الجود لو أن حاتمآ لديه لأمسى حاتم وهو عاذله
فهذا كله في أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ولكن كنى لك عنه
وخودعت فيه وأتيت به من طريق الخسالة في مسلك السحر ومذهب
التخييل ؛ فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن منيع الجانب ، لا يدين
لكل أحد ، يأبى العطف لا يدين به إلا للمروى المجتهد ، وإذا حققت النظر
فالمخصوص الذى تراه ، والحالة التى تراها تنفى الاشتراك^(٢) وتأباه ، إنما هما
من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولاً عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر
المعروف ، بل هو فى حد الحن القول والتعمية اللذين يعتمد عليهما

(١) الطلا بالضم جمع طلية وهى الاعناق ونجل الأعين من إضافة الصفة إلى
الموصوف . والصوار بالضم وبالكسر القطيع من بقر الوحش . والمعنى سلبن البقر
أعينها النجل

(٢) جملة تنفى الاشتراك مفعول ثانٍ لتراها . وقوله بعدها . إنما هما الح خبر قوله :
فالمخصوص . . والحالة . . والضمير فى « أنهم جعلوا التشبيه » يعود إلى الشعراء الذين
روى أبياتهم (ش)

إلى إخفاء المقصود ، حتى يصير المعلوم اضطراراً يعرف امتحاناً واختباراً ؛
كقوله :

مررت بباب هند فكلّ متنى فلا والله ما نطقت بحرف
فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام ، وأن الميم موصولة باللام ،
كذلك المشبه إذا قال : « سرقن الظباء العيون » . فقد أوهم أن ثم سرقة ،
وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن
يقول : إن عيونها كعيون الظباء في الحسن والهيئة وفترة النظر . وكذلك
يوهمك بقوله : « إن السحاب لتستحي » إن السحاب حي يعرف ويعقل ،
وأنه يقيس فيضه بفيض كف المدوح فيخزي ويخجل ، فالاحتفال والصنعة
في التصويرات التي تروق السامعين وتروءهم ، والتخييلات التي تهز المدوحين
وتحركهم ، وتفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكها
الخدق بالتخطيط والنقش ، أو بالفتح والنقر ، فكما أن تلك تعجب وتخلب ،
وتروق وتونق ، وتدخل النفس من مشاهدتها ، حالة غريبة لم تكن قبل
رؤيتها ، ويفشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى شأنه ، فقد
عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها ، والإعظام لها ، كذلك
حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكله من البدع ، ويوقعه في النفوس
من المعاني التي يتوهم بها الجامد الصامت ، في صورة الحى الناطق ، والموات
الأخرس ، في قضية الفصيح المعرب ، والمبين المميز ، والمعدوم المفقود في حكم
الموجود المشاهد ؛ كما قدمت القول عليه في باب التمثيل حتى يكسب الدنى
رفعة ، والغامض القدر نباهة .

وعلى العكس ، يفض من شرف الشريف ، ويطأ من قدر ذى العزة

المنيف ، ويظلم الفضل ويتهمه ، ويخدش وجه الجمل ويتخونه^(١) ، ويعطى
الشبهة سلطان الحجة ، ويرد الحجة إلى صيغة الشبهة ، ويصنع من المادة
الحسيسة بدعاً يغلو في القيمة ويعلو ، ويفعل من قلب الجواهر ، وتبدل
الطبائع ، ما ترى به الكيمياء وقد صحت ، ودعوى الإكسير وقد وضحت ،
إلا أنها روحانية تتلبس بالأروهام والأنفهام ، دون الأجسام والأجرام ،
وكذلك قال^(٢) :

يرى حكمة ما فيه وهو فسكامة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
وقال :

علمم بإبدال الحروف وقامع لكل خطيب يقمع الحق باطله
وقال ابن سكرة فأحسن :

والشعر نار بلا دخان وللقوافي رقى لطيفة
لو هُجى المسك وهو أهل لكل مدح لصار جيفة
كم من معتل في الحل سام هوت به أحرف خفيفة

وقد عرفت ما كان سبيله من أمى القبيلة الذين كانوا يعيرون بأنف الناقة حين
قال الخطيئة :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
فنفى العار ، ووضح الافتخار ، وجعل ما كان نقصاً وشيناً ، فضلاً وزينا ،
وما كان لقباً ونبراً يسوء السمع ، شرفاً وعزاً يرفع الطرف ، وما ذاك
إلا بحسن الانتزاع ولطف القرينة الصنّاع ، والذهن الناقد في دقائق

(١) يتخونه بتشديد الواو يتنقصه قال ابن دريد * لم يتخون جسمه من الضوى *

(٢) في النسخة الأخرى : ولذلك قال :

الإحسان والإبداع ، كما كساهم الجلال من حيث كانوا عروا منه ، وأثبتهم في نصاب الفضل من حيث نفوا عنه ، فلب أنف سليم قد وضع الشعر عليه حده فجده ، واسم رفيع قلب معناه حتى حط به صاحبه ووضعه ، كما قال :

يا حاجب الوزراء إنك عندهم سعد ولكن أنت سعد الذابح

ومن العجب في ذلك قول القائل في كثير بن أحمد :

لو علم الله فيه خيراً ما قال « لاخير في كثير »

فانظر من أى مدخل دخل عليه ، وكيف بالهويناء هدى البلاء إليه ، وكثير هذا هو الذى يقول فيه الصاحب : « ومثل كثير في الزمان قليل » فقد صار الاسم الواحد وسيلة إلى الهدم والبناء ، والمدح والمجاء ، وذريعة إلى التزيين والتهجين .

ومن عجيب ما اتفق في هذا الباب قول ابن المعتز في ذم القمر ، واجترأه بقدره البيان على تقييده وهو الأصل والمثل ، وعليه الاعتماد والمعول في تحسين كل حسن ، وتزيين كل مزين ، وأول ما يقع في النفوس ، إذ أريد المبالغة في الوصف بالجلال ، والبلوغ فيه غاية الكمال ، فيقال : وجه كأنه القمر وكأنه فلقة قمر^(١) . ذلك لثقتة بأن هذا القول إذا شاء سحر ، وقلب الصور ، وأنه لا يهاب أن يخرق الاجماع ، ويسحر العقول ويقتسر الطباع ، وهو :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مشكلى طيب الكرى ومُنغصى

أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلخ بهتاً كلون الأبرص

(١) الفلقة بالفتح نصف الشيء المعلق كالنواة وبالكسر القطعة من الشيء .

وقد علم أنه ليس في الدنيا مثله أخزى وأشنع ، ونكال أبلغ وأفزع ،
ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكاراً ، وتنزعج القلوب استغظاً له واستنكاراً ،
ويُمرى الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، من أن يصلب
المقتول ويشبح في الجذع^(١) . ثم قد ترى مرثية أبي الحسن لابن بقية حين
صلب وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يستنكر من أحوال
المصلوب إلى خلافها ، وتأول فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى
منه العجب^(٢) :

علو في الحياة وفي المات	بحق أنت إحدى المعجزات ^(٣)
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نذك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خفياً	زكاهم قيام الصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء	كدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضم علاك من بعد المات
أصاروا الجو قمرك واستنابوا	عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تثبيت ترعى	بحراس وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلاً	كذلك كنت أيام الحياة ^(٤)
ركبت مطية من قبل زيد	علاها في السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأس	تباعد عنك تعير الصداة
أسأت إلى الحوادث فاستثارت	فأنت قتيل ثار النائبات

(١) أى يثبت عليه منتصباً تمدود اليدين من شبح الجلد ونحوه إذا مد بين أوتاد
مشدوداً بها لئلا يتقاص

(٢) يفنى منه العجب

(٣) وبرى الشطر * لحق أنت إحدى المعجزات *

(٤) يعنى نيران الضيافة المهدودة عند أجواد العرب كانوا يوقدونها في البادية
ليلاً ليتهدى بها الضيفان

ولو أنى قدرت على قيامى بفرضك والحقوق والواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ونحت بها خلال النائمات
ولسكنى أصبرّ عنك نفسى مخافة أن أعد من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهطالات
عليك تحية الرحمن ترى برحمت غواد رأمحات

ومما هو من هذا الباب إلا أنه مع ذلك احتجاج عقلى صحيح قول المتنبي .
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

فحق هذا أن يكون عنوان هذا الجنس وفي صدر صحيفته ، وطارازا
لديباجته ، لأنه دفع النقص وإبطال له ، من حيث يشهد العقل للحجة التى
نطق بها بالصحة ، وذلك أن الصفات الشريفة شريفة بأنفسها وليس شرفها
من حيث الموصوف . وكيف والأوصاف سبب التفاضل بين الموصوفات
فيكون الموصوف شريفا أو غير شريف من حيث الصفة ولم تكن الصفة
شريفة أو خسيصة من حيث الموصوف . وإذا كان الأمر كذلك وجب
أن لا يعترض على الصفات الشريفة بشيء إن كان نقصا فهو في خارج منها .
وفى لا يرجع إليها أنفسها ولا حقيقتها ، وذلك الخارج ههنا هو كون
الشخص على صورة دون صورة . وإذا كان كذلك كان الأمر ، فمقدار ضرر
التأنيث إذا وجد في الخلقة على الأوصاف الشريفة مقداره إذا وجد في
الاسم الموضوع للشيء الشريف ، لأنه فى أن لا تأثير له من طريق العقل
في تلك الأوصاف في الحالين على صورة واحدة ؛ لأن الفضائل التى بها
فضل الرجل على المرأة لم تكن فضائل لأنها قارنت صورة التذكير وخلقته
ولا أوجبت ما أوجبت من التعظيم لاقترانها بهذه الخلقة دون تلك ، بل

إنما أوجبته لأنفسها ومن حيث هي ، كما أن الشيء لم يكن شريفاً أو غير شريف من حيث أنت اسمه أو ذكر ، بل يثبت الشرف وغير الشرف للمسميات من حيث أنفسها وأوصافها ، لامن حيث أسماؤها ، لاستحالة أن يتعدى من لفظ هو صوت مسموع نقص أو فضل إلى ما جعل علامة له فاعرفه .

. واعلم أن هذا هو الصحيح في تفسير هذا البيت والطريقة المستقيمة في الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لأن يقال إن المعنى أن المرأة إذا كانت في كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال المدروحة كانت من حيث المعنى رجلاً وأن عدت في الظاهر امرأة ، لأجل أنه يفسد من وجهين أحدهما أنه قال : « ولا التذكير فخر للهلال » ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : ان الهلال وأن ذكر في لفظه فهو مؤنث في المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلاً لتأنيث المؤنثة على معنى أنها في المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيراً ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهلال ؟ هذا بين التناقض .

فصل

في حدى الحقيقة والمجاز

واعلم أن كل واحد من وصفي المجاز والحقيقة إذا كان الموصوف به الفرد غير حده إذا كان موصوفاً به الجملة : وإنا نحدّهما في المفرد : كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع — وإن شئت قلت : في مواضعة — وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة . وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلمة تحدث في قبيلة من العرب أو في جميع العرب أو في جميع الناس مثلاً ، أو تحدث اليوم . ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزيد وعمر أو مرتجلة كغطفان . وكل كلمة استؤنف بها^(١) على الجملة مواضعة أو ادّعى الاستئناف فيها .

وإعما اشترطت هذا كله لأن وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث أن لها دلالة على الجملة لا من حيث هي عربية أو فارسية أو سابقة في الوضع أو محدثة مولدة ، فمن حق الحد أن يكون بحيث يجرى في جميع الألفاظ الدالة . ونظير هذا نظير أن تضع حداً للاسم والصفة في أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير لغة العرب وجدته يجرى فيها جريانه في العربية ، لأنك تحد من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة . ألا ترى أن حدك الخبر بأنه « ما احتمل الصدق والكذب » مما لا يخص لساناً دون لسان . ونظائر ذلك كثيرة وهو أحد ما غفل عنه الناس ودخل عليهم اللبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية ، وأن مسائله كلها مشبهة باللغة في كونها اصطلاحاً يتوهم عليها النقل والتبديل . ونقد فحش غلطهم فيه ، وليس هذا موضع القول في ذلك .

وإن أردت أن تتمحن هذا الحد فانظر إلى قولك « الأسد » تريد به

(١) وفي نسخة الاستانة « لها »

السبع فإنك تراه يؤدي جميع شرائطه لأنك قد أردت به ما يعلم أنه وقع له في وضع واضح اللغة . وكذلك تعلم أنه غير مستند في هذا الوقوع إلى شيء غير السبع أي لا يحتاج أن يتصور له أصل أدام إلى السبع من أجل التباس بينهما وملاحظة . وهذا الحكم إذا كانت الكلمة حادثة ولو وضعت اليوم متى كان وضعها كذلك . وكذلك الأعلام . وذلك أني قلت : « ما وقعت له في وضع واضح أو مواضعة » على التنكير ولم أقل في وضع الواضع الذي ابتدأ اللغة أو في المواضعة اللغوية فيتوهم أن الأعلام أو غيرها مما تأخر وضعه عن أصل اللغة يخرج عنه . ومعلوم أن الرجل يواضع قومه في اسم ابنه فإذا سماه زيدا فحال الآن فيه كحال واضح اللغة حين جعله مصدراً لزيد يزداد سبق واضح اللغة في وضعه للمصدر المعلوم لا يقدح في اعتبارنا لأنه يقع عند تسميته به ابنه وقوعاً باتاً ولا تستند حاله هذه إلى السابق من حاله بوجه من الوجوه .

وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضحها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز . وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز^(١) بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضحها فهي مجاز . ومعنى الملاحظة هو أنها تستند في الجملة إلى غير هذا الذي تريده بها الآن إلا أن هذا الاستناد يقوى ويضعف . بيانه ما مضى من أنك إذا قلت : رأيت أسداً ، تريد رجلاً شبيهاً بالأسد لم يشبه عليك الأمر في حاجة الثاني إلى الأول إذ لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذي أردته على التشبيه على حد المبالغة وإيهام أن معنى من الأسد

(١) تجوز بضمعين وتشديد الواو المكسورة فعل ماض مبني للمفعول وهو من التجوز في الشيء الترخيص فيه وعد ما يتوهم فيه عدم الجواز جازاً ومنه تجوز في الصلاة إذا خففها وتجاوز في أخذ الدراهم إذا جوزها ولم يردّها ثم استعملوه في المجاز من الكلام أو تجاوز مضارع كتقول من جزت العقبة إذا قطعها وجاوزتها .

حصل فيه إلا بعد أن تجعل كونه اسماً للسبع إزاء عينيك . فهذا استناد تعلمه ضرورة ، ولو حاولت دفعه عن وهمك حاولت محالاً فتى عقل فرع من غير أصل ومشبه من غير مشبه به ؟ وكل ما طريقه التشبيه فهذا سبيله ، أعنى كل اسم جرى على الشيء للاستعارة فالاستناد فيه قائم ضرورة .

وأما ما عدا ذلك فلا يقوى استناده هذه القوة حتى لو حاول محاول أن ينكره أمكنه في ظاهر الحال ، ولم يلزمه به خروج إلى المحال ، وذلك كاليد للنعمة ، لو تكلف متكلف فزعم أنه وضع مستأنف أو في حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه إلا برفق وباعتبار خفي وهو ما قدمت من أنا رأينا لا يوقعون هذه اللفظة على ما ليس بينه وبين هذه الجارحة التباس واختصاص . ودليل آخر وهو أن اليد لا تنكاد تقع للنعمة إلا وفي الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة وإلى المولى لها ، ولا تصالح حيث تراد النعمة مجردة من إضافة لها إلى المنعم أو تلويح به . بيان ذلك أن تقول اتسعت النعمة في البلد ، ولا تقول اتسعت اليد في البلد ، وتقول اقتنى نعمة ، ولا تقول اقتنى يداً . وأمثال ذلك تسكثر إذا تأملت . وإنما يقال : جلت يده عندي ، وكثرت أيادي له . فتعلم أن الأصل صنائع يده وفوائده الصادرة عن يده وآثار يده ، ومحال أن تسكون اليد اسماً للنعمة هكذا على الإطلاق ثم لا تقع موقع النعمة . لو جاز ذلك لجاز أن يكون المترجم للنعمة باسم لها في لغة أخرى واضعاً اسمها من تلك اللغة في مواضع لا تقع النعمة فيها من لغة العرب وذلك محال .

ونظير هذا قولهم في صفة راعي الإبل : إن له عليها أصبعاً ، أى أنراً حسناً وأنشدوا :

ضعيف العصا بادی العروق ترى له عليها إذا ما أجذب الناس أصبعها

وأنشد شيخنا رحمه الله مع هذا البيت قول الآخر : « صلب العصا بالضرب قد دُمّاها » أى جعلها كالدمى^(١) فى الحسن . وكأن قوله « صلب العصا » وإن كان ضد قول الآخر « ضعيف العصا » فإنهما يرجعان إلى غرض واحد وهو حسن الرعية والعمل بما يصحها ويحسن أثره عليها ، فأراد الأول يجعله ضعيف العصا أنه رفيق بها مشفق عليها لا يقصد من حمل العصا أن يوجهها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير ما لان من العصى . وأراد الثانى أنه جيد الضبط لها عارف بسياستها فى الرعى ، يزجرها عن المراءى التى لا تحمد ، ويتوخى بها ما تسمن عليه ، ويتضمن أيضاً أنه يمنعها عن التشرّد والتبدد ، وأنها لما عرفت من شدة شكيمته وقوة عزمته تنساق وتستوثق فى الجهة التى يريدّها من غير أن يحدّد لها فى كل حال ضرباً وقال آخر : « صلب العصا جاف عن التغزل » فهذا لم يبين ما بينه الآخر — وأعود إلى الغرض .

فأنت الآن لا تشك أن الأصبع مشارها إلى أصبع اليد وأن وقوعها بمعنى الأثر الحسن ليس على أنه وضع مستأنف فى إحدى اللغتين ألا تراهم لا يقولون : رأيت أصابع الدار ، بمعنى آثار الدار ، وله أصبع حسنة وأصبع قبيحة ، على معنى أثر حسن وأثر قبيح ، ونحو ذلك . وإنما أرادوا أن يقولوا له عليها أثر حذق ، فدلوا عليه بالأصبع لأن الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصابع وما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصرّف الأصابع

(١) الدمى جمع دمية (كغرفة) وهى الصورة من العاج ويضرب بها المثل فى الحسن .

واللطف في رفعها ووضعها كما يعلم في الخط والنقش وكل عمل دقيق وعلى ذلك قالوا في تفسير قوله عز وجل (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) أى نجعلها كحف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة ، فكما علمت ملاحظة الأصبع لأصلها وامتناع أن تكون متأنفة بأنك رأيته لا يصح استعمالها حيث يراد الأثر على الإطلاق^(١) ولا يقصد الإشارة إلى حذق في الصنعة وأن تجعل أثر الأصبع أصبعا كذلك ينبغي أن تعلم ذلك في اليد لقيام هذه العلة فيها أعنى إن لم تجعل أثر اليد يدأ لم تقع للنعمة مجردة من هذه الإشارات وحيث لا يتصور ذلك كقولنا اقتنى نعمة فاعرفه .

ويشبه هذا في أن عبر عن أثر اليد والأصبع باسمهما وضعهم الخاتم موضع الختم كقولهم : عليه خاتم الملك وعليه طابع من الكرم والمحصل أثر الخاتم والطابع قال :

وقلن حرام قد أحل ربنا وتترك أموال عليها الخواتم
وكذا قول الآخر :

إذا فضت خواتمها وفكت يقال لها دم الودج الذبيح^(٢)

وأما تقدير الشيخ أبى على في هذين البيتين حذف المضاف وتأويله على معنى « وتترك أموال عليها نقش الخواتم » « وإذا فض ختم خواتمها » فبيان لما يقتضيه الكلام في أصله دون أن يكون الأمر على خلاف ما ذكرت من جعل أثر الخاتم خاتما . وأنت إذا نظرت إلى الشعر من جهته الخاصة به وذوقته بالخاصة المهيأة لمعرفة طعمه لم تشك في أن الأمر على ما أشرت لك إليه ويدل على أن المضاف قد وقع في المنسأة وصار كالشريعة المنسوخة تأنيث الفعل في قوله

(١) قوله بأنك متعلق بعلمت

(٢) الكلام في الخمرة .

« إذا فضت خواتما » ولو كان حكمه باقيا لذكرت الفعل كما تذكره مع الإظهار^(١) ولاستقصاء هذا موضع آخر .

وينظر إلى هذا المكان قولهم « ضربته سوطا » لأنهم عبروا عن الضربة التي هي واقعة بالسوط باسمه وجعلوا أثر السوط سوطا ، ويعلم على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم إن المعنى ضربته ضربة بسوط بيان لما كان عليه الكلام في أصله وأن ذلك قد نسي ونسخ وجعل كأن لم يكن فاعرفه .

وأما إذا أريد باليد القدرة فهي إذن أحسن إلى موضعها الذي بدئت منه^(٢) واضبت بأصلها^(٣) لأنك لا تكاد تجدها تراد معها القدرة إلا والكلام مثل صريح ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها أو هناك تلويح بالمثل ، فمن الصريح قولهم فلان طويل اليد يراد فضل القدرة ، فأنت لو وضعت القدرة ههنا في موضع اليد أحلت كما أنك لو حاولت في قول النبي صلى الله عليه وسلم — وقد قالت له نساؤه صلى الله عليه وسلم : أيتنا أسرع لحاقا بك يا رسول الله ؟ فقال « أطولكن يدا » يريد السخاء والجود وبسط اليد بالبذل ، إن تضع موضع اليد شيئا مما أريد بهذا الكلام خرجت عن المعقول ، وذلك أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافا ذلك إلى هذه . وطلبه من اليد وحدها طلب الشيء على غير وجهه .

ومن الظاهر في كون الشبه مأخوذاً ما بين اليد وغيرها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) المعنى على أنهم

(١) يريد إظهار المضاف المحذوف الذي هو نقش .

(٢) في النسخة الأخرى « أجن » بالجيم بدل احن .

(٣) اضبت تفضيل من ضبت بالشيء (كضرب) إذا قبض عليه قبضاً شديداً .

أمروا باتباع الأمر فلما كان المتقدم بين يدي الرجل خارجاً عن صفة المتابع له ضرب له جملة هذا الكلام مثلاً للاتباع في الأمر ، فصار النهي عن التقدم متعلقاً باليد ههنا عن ترك الاتباع . فهذا مما لا يخفى على ذي عقل أنه لا تكون فيه اليد بانفرازها عبارة عن شيء كما يتوهم أنها عبارة عن العمة ومتناولة لها كالوضع المسنأنف حتى كأن لو لم تكن قط اسم جارحة وهكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمنون تكافأ دماؤهم ، وبسمى بذمتهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم » المعنى وإن كان على قولك وهم عون على من سواهم ، فلا تقول إن اليد بمعنى العون حقيقة بل المعنى أن مشاهم مع كثرتهم في وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وأن تختلف بها الجهة في التصرف كذلك سبيل المؤمنين في تعاضدهم على المشركين ، لأن كلمة التوحيد جامعة لهم ، فذلك كانوا كنفس واحدة ، فهذا كله مما يعترف لك كل أحد فيه بأن اليد على انفرازها لا تقع على شيء فيتوهم لها نقل من معنى إلى معنى على حد وضع الاسم واستثناؤه .

فأما ما تكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل دون التصريح حتى ترى كثيراً من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين فكقوله تعالى : (والسماوات مطويات بيمينه) تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة ويصلون إليه قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين^(١)

(١) قبل البيت :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

كما فعل أبو العباس في الكامل فإنه أشد البيت ثم قال قال أصحاب المعاني معناه بالقوة ، وقالوا مثل ذلك في قوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) وهذا منهم تفسير على الجملة ، وقصد إلى نفي الجارحة بسرعة ، خوفاً على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه ، جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ، ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجملة التي منها يحصل على القدرة والقوة ، وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل ، وكما أنا نعلم في صدر هذه الآية وهو قوله عز وجل (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) أن محصول المعنى على القدرة ثم لا نستعجز أن نجعل القبضة اسماً للقدرة بل نصير إلى القدرة من طريق التأويل والمثل ، فنقول إن المعنى والله أعلم أن مثل الأرض في تصرفها تحت أمر الله وقدرته وأنه لا يشذ شيء مما فيها عن سلطانه عز وجل ، مثل الشيء يكون في قبضة الآخذ له مناو الجامع يده عليه — كذلك. حقنا أن نسلك بقوله « مطويات بيمينه » هذا المسلك فكان المعنى والله أعلم أنه عز وجل يخلق فيها صفة الطي حتى ترى كالكتاب المطوى بيمين الواحد منكم ، . وخص اليمين لتكون أغلى وأخف للمثل . وإذا كنت تقول « الأمر كله لله » فتعلم أنه على سبيل أن لا سلطان لاحد دونه ولا استبداد وكذلك إذا قلت للمخلوق « الأمر بيدك » أردت المثل وأن الأمر كالشيء يحصل في يده من حيث لا يمتنع عليه — فما معنى التوقف في أن اليمين مثل وليست باسم للقدرة ، وكاللفظة المستأنفة ؟ ومن أين يتصور ذلك وأنت لا تراها تصلح حيث لا وجه للمثل والتشبيه ؟ فلا يقال : هو عظيم اليمين بمعنى عظيم القدرة ، وقد عرفت يمينك على هذا ، كما نقول عرفت قدرتك ، وهكذا شأن البيت ، إذا حسنت النظر وجدته إذا لم تأخذه من طريق المثل

ولم تأخذ مجموع المعنى من مجموع التلقى واليمين على حسد قولهم « تقبله بكلماتنا
اليدين » وكقوله :

واسكن تلقى باليدين ضمانتي وحل بفاجج والقنفاذ عودى^(١)
وقبل هذا البيت :

لعمرك ما ملت ثواء ثويها دليجة إذ ألقى مراسي مقعد^(٢)
وهو يشكوك إلى طبع الشعر^(٣) ورأيت المعنى يتألم ويتظلم ، وإن أردت
أن تختبر ذلك فقل :

إذا ماراية رفعت لمجد تناولها عرابية باليمين
ثم انظر هل تجد ما كنت تجد إن كنت ممن يعرف طبع الشعر ، ويفرق بين
التفه الذى لا يكون له طعم ، وبين الحلو اللذيذ ؟ . ومما يبين ذلك من جهة
العبارة أن الشعر كما تعلم لمدح الرجل بالجلود والسخاء لأنه سأل الشماخ عما أقدمه
فقال : جئت لامتار . فأوقر رواحله تمرأ وبرأ وأنحفه بغير ذلك .
وإذا كان كذلك كان المجد الذى تناول له ومد إليه يده من المجد الذى
أراده أبو تمام بقوله :

توجع أن رأت جسمي نحيفا كأن المجد يدرك بالصراع
ولو كان فى ذكر البأس والبطش وحيث تراد القوة والشدة لكان حمل
اليمين على صريح القوة أشبه ، وبأن يقع منه فى القلب معنى يتماسك أجدر ،
فإن قال أراد تلقاها بمجد وقوة رغبة ، قيل فينبغى أن يضع اليمين فى مثل هذه

(١) الضمانة الرض كالزمانة وفليج والقنفاذ موضعان

(٢) الثواء الإقامة والثوى (بوزن فعيل) الضيف والراسي جمع مرساة لانجر
السفينة ، ويقال ألقى مراسيه أى أقام ، والمقعد بالغم من يصاب بداء القعاد وهو
داء يقعد من يصاب به .

(٣) الجملة حال من ضمير وجدته ، وقوله « ورأيت » معطوف على وجدته

المواضع^(١) ومن التزم ذلك فالتسكوت عنه أحسن وما زال الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حثه على الأمر وأن يأخذ فيه بالجدة « أخرج يدك اليمنى » وذلك أنها أشرف اليدين وأقواهما والتي لا غناء الأخرى دونها ، فلاعنى إنسان بشيء إلا بدأ يمينه فهيأها لنيله . ومتى ما قصدوا جعل الشيء في جهة العناية جعلوه في اليد اليمنى ، وعلى ذلك قول البحترى :

وإن يدي وقد أسندت أمرى إليه اليوم في يدك اليمنى
« إليه » يعنى إلى يونس بن بغا وكان حظياً عند المدوح وهو المعتز بالله
ولو أن فائلا قال :

إذا ماراية رفعت لمجد ومكرمة مددت لما اليمنى
لم تره عادلا باليمين عن الموضع الذى وضعها الشماخ فيه . ولو أن هذا
التأويل منهم كان فى قول سليمان بن قتة العدوى :

بنى تيم بن مرة ابن ربي كفانى أمرم وكفنا كمنى
فحيوا ما بدا لكم فانى شديد الفرس للضغن الحرون^(٢)
يعانى فقدم أسد مدل شديد الأسر يضبط باليمين^(٣)
لكانوا أعذرفيه ، لأن المدح مدح بالقوة والشدة . وعلى ذلك فإن اعتبار
الأصل الذى قدمت وهو أنك لاترى اليمين حيث لامعنى لليد يقف بنا

(١) يريد بهذا الوضع أن يستعملها فى هذا المعنى استعمالاً حقيقياً لا مثلاً .
(٢) الفرس مصدر فرس الأسد فريسته (كضرب) إذا دق عنتها ثم توضع فيه فاستعمل فى القتل مطلقاً . والضغن (ككفف) المنطوى على الحقد . والحرون الصعب لا ينقاد .
(٣) المدل المحترى والأسر مصدر أسر (كضرب) أى قبض وأخذ وهو فيما يصنعه رجل بآخر فلا يقال أسر الشيء . وشد الله أسره أحكم ربط أعضائه بالأعصاب .
ويضبط يقبض بكفه بشدة وتقدم .

على الظاهر كأنه قال : إذا ضبث ضبث باليمين .

ومما يبين موضع بيت الشماخ إذا اعتبرت^(١) به قول الخنساء :

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يداً

فقال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعداً

إذا رجعت إلى نفسك لم تجد فرقاً بين أن يمد إلى المجد يداً وبين أن يتلقى رايته باليمين ، وهذا إن أردت الحق أبين من أن تحتاج فيه إلى فضل قول إلا أن هذا الضرب من الغلط كالداء الدوى حقه أن يستقصى في السكى عليه والعلاج منه ، فجنايته على معاني ما شرف من الكلام عظيمة ، وهو مادة للتكلفين في التأويلات البعيدة والأقوال الشنيعة .

ومثل من توقف في التفات هذه الأسمى إلى معانيها الأول وظن أنها مقطوعة عنها قطعاً يرفع الصلة بينها وبين ما جازت إليه مثل من إذا نظر في قوله تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) فرأى المعنى على الفهم والعقل أخذه ساذجاً^(٢) وقبله غفلاً ، وقال القلب ههنا بمعنى العقل ، وترك أن يأخذه من جهة ، ويدخل إلى المعنى من طريق المثل ، فيقول : انه حين لم ينتفع بقلبه ، ولم يفهم بعد أن كان القلب للفهم جعل كأنه قد عدم القلب جملة وخلع من صدره خلعا ، كما جعل الذى لا يسي الحكمة ولا يعمل الفسك فيما تدركه عينه وتسمعه أذنه كأنه عادم للسمع والبصر ، وداخل في العمى والصمم ويذهب^(٣) عن أن الرجل إذا قال : قد غاب عني قلبي ، وليس يحضرني قلبي ، فإنه يريد أن يخيل إلى السامع أنه قد فقد قلبه دون أن يقول

(١) أى اعتبرت بذلك الذى يبين موضع بيت الشماخ (ش)

(٢) وجملة أخذه حواب : إذا نظر . .

(٣) ويذهب معطوف على قوله قال القلب ههنا بمعنى العقل الخ (ش) .

غاب عنى علمى وعزب عقل ، وإن كان المرجع عند التحصيل إلى ذلك كما أنه إذا قال : لم أكن ههنا ، يريد شدة غفلته عن الشيء ، فهو يضع كلامه على تخيل أنه كان غاب هكذا بجملة وبذاته ؛ دون أن يريد الرجل الاخبار بأن علمه لم يكن هناك .

وغرضى بهذا أن أعلمك أن من عدل عن الطريقة في الخفى ، أفضى به الأمر إلى أن ينكر الجلى ، وصار من دقيق الخطأ إلى الجليل ، ومن بعض الانحراف إلى ترك السبيل ، والذي جلب التخليط والخبط الذى تراه في هذا الفن ، أن الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذاً من الشيء وحده ، وبين أن يؤخذ ما بين شيئين ، وينتزع من مجموع كلام ، هو كما عرفت في الفرق بين الاستعارة والتمثيل ، من أن من القول ماتدخل فيه الشبهة على الانسان من حيث لا يعلم ، وهو^(١) من السهل الممتنع ، يريك أن قد انقاد وبه اباء ، ويوهمك أن قد أثرت فيه رياضتك وبه بقية شماس .

ومن خاصيته أنك لا تفرق فيه بين الموافق والمخالف ، والمعترف به والمنكر له ، فانك ترى الرجل يوافقك في الشيء منه ويقر بأنه مثل حتى إذا صار إلى نظير له خلط إما في أصل المعنى وإما في العبارة ، فالتخليط في المعنى كما مضى من تأول اليمين على القوة ، وكذا كرم أن القلب في الآية بمعنى العقل ثم عدم ذلك وجهاً ثانياً . والتخليط في العبارة كنعحو ما ذكره بعضهم في قوله :

عون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

فإنه استشهد به في تأويل خبر جاء في عظم الثواب على الزكاة إذا كانت

(١) أى الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذاً من الشيء الواحد أو ما بين شيئين .

من الطيب ثم قال : الكف ههنا بمعنى السلطان والملك والقدرة . قال : وقيل الكف ههنا بمعنى النعمة . والخبر هو ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن أحكم إذا تصدق بالتمر من الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب جعل الله ذلك في كفه فيريها كما يربي أحكم فلوله ^(١) حتى يبلغ بالتمر مثل أحد » ما يظن من نظر في العربية يوماً أن يتوهم أن الكف تكون على هذا الإطلاق وعلى الإنفراد بمعنى السلطان والقدرة والنعمة ، ولكنه أراد المثل فأساء العبارة ، إلا أن من سوء العبارة ما أثر التقصير فيه أظهر ، وضرره على الكلام أبين ، فاستقصاء هذا الباب لا يتم حتى يفرد بكلام والوجه الرجوع إلى الغرض . ويجب أن يعلم قبل ذلك أن خلاف من خالف في اليد واليمين وسائر ما هو مجاز لا من طريق التشبيه الصريح أو التمثيل لا يقدح فيما قدمت من حد الحقيقة والمجاز ، لأنه لا يخرج في خلافه عن واحد من الاعتبارين ، فتمى جعل اليمين على أفرادها تفيد القوة فقد جعلها حقيقة ، وأغناها عن أن تستند في دلالتها إلى شيء ، وإن اعترف بضرب من المجاز إلى الحاجة والنظر إليها فقد وافق في أنها مجاز ، وكذا القياس في الباب كله فاعرفه .

(١) الفلول بالفتح وتشديد الواو كعدو وبالكسر المهر إذا فصل عن أمه وقال بعضهم المهرأ واجعش إذا فطما أو بلغ سنة وجمعه أفلاء كأعداء . ومعنى بلوغ التمرة مثل أحد أن ثوابها يكون في عظمه كذلك الجبل .

فصل

« في المجاز العقلي والمجاز اللغوي والفرق بينهما »

والذي ينبغي أن يذكر الآن حد الكلمة في الحقيقة والمجاز إلا أنك تحتاج أن تعرف في صدر القول عليها ومقدمته أصلاً وهو المعنى الذي من أجله اختصت الفائدة بالجملة ولم تجز حصولها بالكلمة الواحدة كالاسم الواحد والفعل من غير اسم يغم إليه . والعلة في ذلك أن مدار الفائدة في الحقيقة على الإثبات والنفي ، ألا ترى أن الخبر أول معاني الكلام وأقدمها والذي تستند سائر المعاني إليه وتترتب عليه وهو ينقسم إلى هذين الحكمين . وإذا ثبت ذلك فإن الإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له ونحو أنك إذا قلت . ضرب زيد أو زيد ضارب فقد أثبت الضرب فعلاً أو وصفاً . وكذلك النفي يقتضي منفيّاً ومنفيّاً عنه فإذا قلت : ما ضرب زيد ، ما زيد ضارب . فقد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلاً له . فلما كان الأمر كذلك احتيج إلى شيئين يتعلق الإثبات والنفي بهما فيكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً له ، وكذلك يكون أحدهما منفيّاً والآخر منفيّاً عنه ، فكان ذانك الشيطان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل ، وقيل للمثبت والمنفي مسند وحديث والمثبت له والمنفي عنه مسند إليه ومحدث عنه . وإذا رمت الفائدة أن تحصل لك من الاسم الواحد أو الفعل وحده صرت كأنك تطلب أن يكون الشيء الواحد مثبتاً ومثبتاً له ومنفيّاً ومنفيّاً عنه وذلك محال .

فقد حصل من هذا أن لكل واحد من حكمي الإثبات والنفي حاجة إلى تقييده مرتين ، وتعلقه بشيئين ، تفسير ذلك أنك إذا قلت : ضرب

زيد ، فقد قصدت إثبات الضرب لزيد فقولك « إثبات الضرب » تقييد
للإثبات بإضافته إلى الضرب ثم لا يكفيك هذا التقييد حتى تقيده مرة
أخرى فتقول : إثبات الضرب لزيد . فقولك « لزيد » تقييد ثان وفي حكم
إضافة ثانية . وكما لا يتصور أن يكون ههنا إثبات مطلق غير مقيد بوجه
أعنى أن يكون إثباتاً ولا مثبت له ولا شيء يقصد بذلك الإثبات إليه لاصفة
ولا حكم ولا موهوم بوجه من الوجوه ، كذلك لا يتصور أن يكون ههنا
إثبات مقيد تقييداً واحداً نحو إثبات شيء فقط دون أن تقول : إثبات
شيء لشيء . كما مضى من إثبات الضرب لزيد . والنفي بهذه المنزلة
فلا يتصور نفي مطلق ولا نفي شيء فقط ، بل يحتاج إلى قيدين كقولك
نفي شيء عن شيء .

فهذه هي القضية المبرمة الثابتة التي تزول الراسيات ولا تزول . ولا تنظر
إلى قولهم : فلان يثبت كذا أى يدعى أنه موجود وينفى كذا أى يقضى
بعدمه كقولنا : أبو الحسن يثبت مثقال جعديب (بفتح الدال) وصاحب
الكتاب ينفيه لأن الذى قصده هو الإثبات والنفي فى الكلام .

ثم اعلم أن فى الإثبات والنفي بعد هذين التقييدين حكماً آخر هو كتقييد
ثالث وذلك أن للإثبات جهة وكذلك النفي ، ومعنى ذلك أنك تثبت الشيء
لشيء مرة من جهة وأخرى من جهة غير تلك الأولى . وتفسيره أنك
تقول ضرب زيد فتثبت الضرب فعلاً لزيد . وتقول مرض زيد فتثبت
المرض وصفاً له ، وهكذا سائر ما كان من أفعال الفرائز والطباع وذلك
فى الجملة على ما لا يوصف الإنسان بالقدرة عليه نحو كرم وظرف وحسن
وقبح وطال وقصر . وقد يتصور فى الشيء الواحد أن تثبته من الجهتين

جميعاً وذلك في كل فعل دل على معنى يفعله الإنسان في نفسه نحو قام وقعد . إذا قلت قام زيد ، فقد أثبت القيام فعلاً له من حيث تقول فعل القيام وأمرته بأن يفعل القيام ، وأثبتته أيضاً وصفاً له من حيث إن تلك الهيئة موجودة فيه وهو في اكتسابه لها كالشخص المنتصب والشجرة القائمة على ساقها التي توصف بالقيام لا من حيث كانت قائمة له بل من حيث كان وصفاً موجوداً فيها .

وإذا قد عرفت هذا الأصل فههنا أصل آخر يدخل في غرضنا وهو أن الأفعال على ضربين : متعمد وغير متعمد ، فالمتعمد على ضربين ضرب يتعمد إلى شيء هو مفعول به كقولك : ضربت زيدا « زيدا » مفعول به لأنك فعلت به الضرب ولم يفعله بنفسه و « ضرب » يتعمد إلى شيء هو مفعول على الإطلاق وهو في الحقيقة كفعل . وكل ما كان مثله في كونه عاماً غير مشتق من معنى خاص كصنع وعمل وأوجد وأنشأ ، ومعنى قولى « من معنى خاص » أنه ليس كضرب الذى هو مشتق من الضرب أو أعلم الذى هو مأخوذ من العلم . وهكذا كل ما كان له مصدر ذلك المصدر في حكم جنس من المعانى فهذا الضرب^(١) إذا أسند إلى شيء كان المنصوب له مفعول لذلك الشيء على الإطلاق كقولك فعل زيد القيام . فالقيام مفعول في نفسه وليس بمفعول به . وأحق من ذلك أن تقول : خلق الله الأناسى ، وأنشأ العالم ، وخلق الموت والحياة . المنصوب في هذا كله مفعول مطلق^(٢) لا تقييد فيه إذ من المحال أن يكون معنى « خلق العالم »

(١) يريد بهذا الضرب نحو فعل وسنم الخ

(٢) يريد بمطلق معناه اللغوي فلا يشكل على المقيد بنظواهر الأنفاظ فيحسبون أنه للمفعول المطلق الاصطلاحى ثم يتكلفون الأجوبة .

فعل الخلق به كما تقول في « ضربت زيدا » فعلت الضرب بزيد ، لأن الخلق من خلق كالفعل من فعل فلو جاز أن يكون الخلق كالمضروب لجاز أن يكون المفعول نفسه كذلك حتى يكون معنى فعل القيام فعل شيئاً بالقيام وذلك من شنيع المحال .

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن الإثبات في جميع هذا الضرب أعنى فيما منصوبه مفعول وليس مفعولا به يتعلق بنفس المفعول . فإذا قلت : فعل زيد الضرب ، كنت أثبت الضرب فعلا لزيد وكذلك تثبت العالم في قولك « خلق الله العالم » نلقا الله تعالى ولا يصح في شيء من هذا الباب أن تثبت المفعول وصفا^(١) البتة وتوهم ذلك خطأ عظيم وجهل نعوذ بالله منه .

وأما الضرب الآخر وهو الذي منصوبه مفعول به فإنك تثبت فيه المعنى الذي اشتق منه فعل فعلا للشيء كإثباتك الضرب لنفسك في قولك : ضربت زيدا ، فلا يتصور أن يلحق الإثبات مفعوله لأنه إذا كان مفعولا به ولم يكن فعلا لك استحال أن تثبته فعلا وإثباته وصفا أبعد في الإحالة فأما قولنا في نحو : ضربت زيدا أنك أثبت زيدا مضروبا فإن ذلك يرجع إلى أنك تثبت الضرب واقعا به منك ، فاما أن تثبت ذات زيد لك فلا يتصور ، لأن الإثبات معنى لا بد له من جهة ولا جهة ههنا . وهكذا إذا قلت أحيا الله زيدا كنت في هذا الكلام مثبتا الحياة فعلا لله تعالى في زيد . فأما ذات زيد فلم تثبتها فعلا لله بهذا الكلام وإنما يتأتى لك ذلك بكلام آخر نحو أن تقول : خلق الله زيدا وأوجده وما شا كله مما لا يشتق

(١) أى كما أثبته وصفا في فعل القيام . وقوله « من هذا الباب » أى باب خلق الله الأناسى الخ .

من معنى خاص كالحياة والموت ونحوهما من المعاني .

وإذ قد تقرررت هذه المسائل فينبغي أن تعلم أن من حقلك إذا أردت أن تقضى في الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من جهتين :

(إحداهما) أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهو في حقه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذي ينبغى أن يكون فيه ؟ .

(والثانية) أن تنظر إلى المعنى المثبت أعنى ما وقع عليه الإثبات كالحياة في قولك أحيا الله زيدا ، والشيب في قولك أشاب الله رأسي أثابت هو على الحقيقة أم قد عدل به عنها ؟ وإذا مثل لك دخول المجاز على الجملة من الطريقتين عرفت إثباتها على الحقيقة منها .

فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات دون المثبت قوله :

وشيب أيام . الفراق مفارق وأشرب نفسي فوق حيث تكون
وقوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كالفداء ومر العشي

المجاز واقع في اثبات الشيب فعلا للأيام ولسكر الليالي وهو الذي أزيل عن موضعه الذي ينبغى أن يكون فيه ، لأن من حق هذا الإثبات أعنى إثبات الشيب فعلا أن لا يكون إلا مع أسماء الله تعالى فليس يصح وجود الشيب فعلا لغير القديم سبحانه ، وقد وجه في البيت كما ترى إلى الأيام والليالي ، وذلك ما لا يثبت له فعل بوجه لا الشيب ولا غير الشيب . وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود كما ترى . وهكذا إذا قلت : سرنى الخبر وسرنى لقاءك . فالجواز في الإثبات دون المثبت لأن المثبت هو السرور وهو حاصل على حقيقته .

ومثال ما دخل المجاز في مثبته دون إثباته قوله عز وجل : (أو من

كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس) وذلك أن المعنى والله أعلم على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب على حسد قوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) فالجواز في المثبت وهو الحياة فأما الإثبات فواقع على حقيقة لأنه ينصرف إلى أن الهدى والعلم والحكمة فصل من الله وكائن من عنده ، ومن الواضح في ذلك قوله عز وجل (فأحيينا به الأرض بعد موتها) وقوله (إن الذي أحيانا لمحي الموتى) جعل خضرة الأرض ونضرتها وبهجتها بما يظهره الله تعالى فيها من النباتات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها فكان ذلك مجازاً في المثبت من حيث جعل مالميس بحياة حياة على التشبيه فأما نفس الإثبات فمحض الحقيقة لأنه إثبات لما ضرب الحياة مثلاً له فعلا لله تعالى ولا حقيقة أحق من ذلك .

وقد يتصور أن يدخل المجاز للجملة من الطريقتين جميعاً وذلك أن يشبه معنى بمعنى وصفة بصفة فيستعار لهذه اسم تلك ثم تثبت فعلاً لما لا يصح الفعل منه أو فعل تلك الصفة فيكون أيضاً في كل واحد من الإثبات والمثبت مجاز كقول الرجل لصاحبه . أحييتني رؤيتك . يريد آنتنى وسرتنى ونحوه فقد جعل الأنس والمسرة الحاصلة بالرؤية حياة أولاً ثم جعل الرؤية فاعلة لتلك الحياة . وشبيهه به قول المتنبي :

وتحيي له المسال الصوارم والقنا ويقتل ما يحى التيسم والجدا

جعل الزيادة والوفور حياة في المسال وتفريقه في العطاء قتلاً ثم أثبت الحياة فعلاً للصوارم والقتل فعلاً للتيسم مع العلم بأن الفعل لا يصح منهما ونوع منه « أهلك الناس الدينار والدرهم » جعل الفتنة هلاكاً على الجواز ثم أثبت الهلاك فعلاً للدينار والدرهم وليس مما يفعلان فاعرفه .

وإذ قد تبين لك المنهاج في الفرق بين دخول المجاز في الإثبات وبين دخوله في الميثب وبين أن ينتظمها وعرفت الصورة في الجميع فاعلم أنه إذا وقع في الإثبات فهو متلقى من العقل فإذا عرض في الميثب فهو متلقى من اللغة فإن طلبت الحجة على صحة هذه الدعوى فإن فيما قدمت من القول ما بينها لك ويختصر لك الطريق إلى معبفتها وذلك أن الإثبات إذا كان من شرطه أن يقيد مرتين كقولك إثبات شيء شيء ولزم من ذلك أن لا يحصل إلا بالجملة التي هي تأليف بين حديث ومحدث عنه ومسند ومسند إليه علمت أن مأخذه العقل وأنه القاضي فيه دون اللغة لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم أولتثبت وتنفي وتنقض وتبرم فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له وأن المرض صفة له أو ليس بصفة له شيء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب أو اعتراف أو إنكار وتصحيح أو إفساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة في ذلك بسبيل ولا منه في قليل ولا كثير .

وإذا كان كذلك كان كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز واحتمال واستحالة فالمرجع فيه والوجه إلى العقل المحض وليس لغة فيه حظ فلا تحلى ولا تمر والعربي فيه كالعجمي والعجمي كالتركي لأن قضايا العقول هن القواعد والأسس التي يبنى غيرها عليها ، والأصول التي يرد ماسواها إليها .

فأما إذا كان المجاز في الميثب كنعو قوله تعالى : (فأحيينا به الأرض) فإنما كان مأخذه اللغة لأجل أن طريقه المجاز بأن أجرى اسم الحياة على ما ليس بحياة تشبيهاً وتمثيلاً ثم اشتق منها وهي في هذا التقدير الفعل الذي

هو « أحياء » واللغة هي التي اقتضت أن تكون الحياة اسماً للصفة التي هي ضد الموت فإذا تجاوز في الاسم فأجرى على غيرها فالحديث مع اللغة فاعرفه .

إن قال قائل في أصل الكلام الذي وضعته على أن المجاز يقع تارة في الإثبات وتارة في المثبت وأنه إذا وقع في الإثبات فهو طالع عليك من جهة العقل وبذلك من أفقه ، وإذا عرض في المثبت فهو آتيك من ناحية اللغة : ما قولكم إن سويت بين المسألين وادعيت أن المجاز بينهما جميعاً في المثبت وأنزل هكذا فأقول الفعل الذي هو مصدر فعل قد وضع في اللغة للتأثير في وجود الحادث كما أن الحياة موضوعة للصفة المعلومة فإذا قيل « فعل الربيع النور » جعل تعلق النور في الوجود بالربيع من طريق السبب والعادة فعلاً ، كما نجعل خضرة الأرض وبهجتها حياة والعلم في قلب المؤمن نوراً وحياة . وإذا كان كذلك كان المجاز في أن جعل ما ليس بفعل فعلاً وأطلق اسم الفعل على غير ما وضع له في اللغة كما جعل ما ليس بحياة حياة وأجرى اسمها عليه فإذا كان ذلك مجازاً لغوياً فينبغي أن يكون هذا كذلك .

فالجواب أن الذي يدفع هذه الشبهة أن تنظر إلى مدخل المجاز في المسألين فإن كان مدخلهما^(١) من جانب واحد فالأمر كما ظننت وإن لم يكن كذلك استبان لك الخطأ في ظنك . والذي يبين اختلاف دخوله فيهما أنك تحصل على المجاز في مسألة الفعل بالإضافة لا بنفس الاسم فلو قلت أثبت النور فعلاً لم تقع في مجاز لانه فعل لله تعالى وإنما تصير إلى المجاز إذا قلت أثبت النور فعلاً للربيع . وأما في مسألة الحياة فإنك تحصل على المجاز بإطلاق الاسم فحسب من غير إضافة

(١) في النسخة الأخرى « فإذا كان يدخلهما »

وذلك قولك : اثبت بهجة الأرض حياة أو جعلها حياة . أفلا ترى المجاز قد ظهر لك في الحياة من غير أن أضفتها إلى شيء أى من غير أن قلت لكذا . وهكذا إذا عبرت بالنفي تقول في مسألة الفعل جعل ما ليس بفعل للربيع فعلا له . وتقول في هذه : جعل ما ليس بحياة حياة وتسكت ولا تحتاج أن تقول : جعلت ما ليس بحياة للأرض حياة للأرض بل لا معنى لهذا الكلام لأنه يقتضى أنك أضفت حياة حقيقة إلى الأرض وجعلتها مثلا تحيا بحياة غيرها وذلك بين الإحالة . ومن حق المسائل الدقيقة أن تتأمل فيها العبارات التي تجرى بين السائل والمجيب وتحقق فإن ذلك يكشف عن الغرض ويبين جهة الغلط . وقولك « جعل ما ليس بفعل فعلا » احتذاء لقولنا : جعل ما ليس بحياة حياة — لا يصح لأن معنى هذه العبارة أن يراد بالاسم غير معناه أشبه يدعى أو شيء كالشبه ، لا أن يعطى الاسم من الفائدة فيراد بها ما ليس بمعقول فنحن إذا تجاوزنا في الحياة فأردنا بها العلم فقد أودعنا الاسم معنى وأردنا به صفة معقولة كالحياة نفسها ولا يمكنك أن تشير في قولك « فعل الربيع النور » إلى معنى تزعم أن لفظ الفعل ينقل عن معناه إليه فيراد به حتى يكون ذلك المعنى معقولا منه كما عقل التأثير في الوجود وحتى تقول لم أرد به التأثير في الوجود ولكن أردت المعنى الفلاني الذي هو شبيه به أو كالشبيه أو ليس بشبيه مثلا ، إلا أنه معنى خلف معنى آخر على الاسم إذ ليس وجود النور بعقب المطر أو في زمان دون زمان ، فما يعطيك معنى في المطر أو في الزمان فتؤديه بلفظ الفعل فليس إلا أن نقول لما كان النور لا يوجد إلا بوجود الربيع توهم للربيع تأثير في وجوده فاثبت له ذلك اثبات الحكم أو الوصف لما ليس له قضية عقلية لا تعلق لها في صحة وفساد باللغة فاعرفه .

ومما يجب ضبطه في هذا الباب أن كل حكم يجب في العقل وجوباً حتى لا يجوز خلافه بإضافته إلى دلالة اللغة وجعله مشروطاً فيها محال لأن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه وخلافه ، فإنما كانت « ما » مثلاً علماً للنفي لأن ههنا نقيضاً له وهو الإثبات . وهكذا إنما كانت « من » لما يعقل لأن ههنا ما لا يعقل . فمن ذهب يدعى أن في قولنا فعل وصنع ونحوه دلالة من جهة اللغة على القادر فقد أساء من حيث قصد الإحسان لأنه والعياذ بالله يقتضى جواز أن يكون ههنا تأثير في وجود الحادث لغير القادر حتى يحتاج إلى تضمين اللفظ الدلالة على اختصاصه بالقادر ، وذلك خطأ عظيم . فالواجب أن يقال : الفعل موضوع للتأثير في وجود الحادث في اللغة والعقل قد قضى وبت الحكم بأن لاحظ في هذا التأثير لغير القادر وما يقوله أهل النظر من أن من لم يعلم الحادث موجوداً من جهة القادر عليه فهو لم يعلمه فعلاً لا يخالف هذه الجملة بل لا يصح حق صحته إلا مع اعتبارها وذلك أن الفعل إذا كان موضوعاً للتأثير في وجود الحادث وكان العقل قد بين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة استحالة أن يكون لغير القادر تأثير في وجود الحادث وأن يقع شيء مما ليس له صفة القادر ، فمن ظن الشيء واقعاً من غير القادر فهو لم يعلمه فعلاً لأنه لا يكون مستحقاً هذا الاسم حتى يكون واقعاً من غيره ، ومن نسب وقوعه إلى ما لا يصح وقوعه منه ولا يتصور أن يكون له تأثير في وجوده وخروجه من العدم فلم يعلمه واقعاً من شيء البتة ، وإذا لم يعلمه واقعاً من شيء لم يعلمه فعلاً كما أنه إذا لم يعلمه كائناً بعد إن لم يكن لم يعلمه واقعاً ولا حادثاً فاعرفه .

واعلم أنك إن أردت أن ترى المجاز وقد وقع في نفس الفعل والخلق ولحقهما من حيث هما لا اثباتهما وإضافتهما فالمثال في ذلك قولهم في الرجل يشفى على هلكة ثم يتخلص منها : هو إما خلق الآن ، وإنما أنشئ اليوم ، وقد عدم ثم أنشئ نشأة ثانية ، وذلك أنك تثبت ههنا خلقاً وإنشاء من غير أن يعقل ثابتاً على الحقيقة بل على تأويل وتنزيل وهو إن جعلت حالة اشفاؤه على الهلكة عدماً وفناء وخروجاً من الوجود حتى أنتج هذا التقدير أن يكون خلاصه منها ابتداء وجود وخلقاً وإنشاء ، أفيمكنك أن تقول في نحو « فعل الربيع النور » بمثل هذا التأويل فتزعم أنك أثبت فعلاً وقع على النور من غير أن كان ثم فعل ومن غير أن يكون النور مفعولاً ؟ أو هو مما يتعوذ بالله منه وتقول الفعل واقع على النور حقيقة وهو مفعول مجهول على الصحة إلا أن حق الفعل فيه أن يثبت لله تعالى وقد تجوز باثباته للربيع ؟ أفليس قد بان أن التجوز ههنا في إثبات الفعل للربيع لا في الفعل نفسه فإن التجوز في مسألة المتخلص من الهلكة حيث قلت « إنه خلق مرة ثانية » في الفعل لا في اثباته فلك كيف نظرت فرق بين المجاز في الإثبات وبينه في المثبت ، وينبغي أن تعلم أن قولي في المثبت مجاز ليس مرادى أن فيه مجازاً بمن حيث هو مثبت ولكن المعنى أن المجاز في نفس الشيء الذي تناوله الإثبات نحو أنك أثبت الحياة صفة للأرض في قوله تعالى (يحيي الأرض بعد موتها) والمراد غيرها فكان المجاز في نفس الحياة لا في إثباتها هذا — وإذا كان لا يتصور إثبات شيء لا شيء استحال أن يوصف المثبت من حيث هو مثبت بأنه مجاز أو حقيقة .

ومما ينتهي في البيان إلى الغاية أن يقال للسائل : هبك تغالطنا بأن

مصدر فعل نقل أولا عن موضوعه في اللغة ثم اشتق منه فقل لنا ما نصنع بالأفعال المشتقة من معانى خاصة كنسج وصاغ ووشى ونقش ؟ أتقول إذا قيل نسج الربيع وصاغ الربيع ووشى أن المجاز في مصادر هذه الأفعال التي هي النسج والوشى والصوغ أم تعرف أنه في إثباتها فعلا للربيع ؟ وكيف تقول إن في أنفسها مجازاً وهي موجودة بحقيقتها ؟ بل ماذا يغنى عنك دعوى المجاز فيها لو أمكنك ولا يمكنك أن تقتصر عليها في كون الكلام مجازاً أعني لا تملك أن تقول إن الكلام مجاز من حيث لم يكن ائتلاف تلك الأنوار نسجاً ووشياً وتدع حديث نسبتها إلى الربيع جانباً ، هذا — وههنا ما لا وجه لك لدعوى المجاز في صدور الفعل كقولك « سرى الخبر » فإن السرور بحقيقته موجود والكلام مع ذلك مجاز . وإذا كان كذلك علمنا ضرورة أن ليس المجاز إلا في إثبات السرور فعلا للخبر وإيهام أنه أثر في حدوثه وحصوله ويعلم كل عاقل أن المجاز لو كان من طريق اللغة لجعل ما ليس بالسرور سروراً . فأما الحكم بأنه فعل للخبر فلا يجرى في وهم أنه يكون من اللغة بسبيل فاعرفه .

فإن قال : النسج فعل معنى وهو المضامة بين الأشياء وكذلك الصوغ فعل الصورة في الفضة ونحوها وإذا كان كذلك قدرت أن لفظ الصوغ مجاز من حيث دل على الفعل والتأثير في الوجود حقيقة من حيث دل على الصورة كما قدرت * « حيا الله الأرض » ان أحيا من حيث دل على معنى فعل حقيقة ، ومن حيث دل على الحياة مجاز . قيل ليس لك أن تجيء إلى لفظ أمرين فتفرق دلالاته وتجعله منقولاً عن أصله في أحدها دون الآخر . لو جاز هذا لجاز أن تقول في اللطم الذي هو ضرب باليد أن

يجعل مجازاً من حيث هو ضرب ، وحقيقة من حيث هو باليد ، وذلك محال لأن كون الضرب باليد لا يتفصل عن الضرب فكذلك كون الفعل فعلاً للصورة لا يتفصل عن الصورة ، وليس الأمر كذلك في قولنا : أحيا الله الأرض ، لأن معنا هناك لفظين أحدهما مشتق وهو « أحيا » والآخر مشتق منه وهو « الحياة » فنحن نقدر في المشتق منه أنه نقل عن معناه الأصلي في اللغة إلى معنى آخر ثم اشتق منه « أحيا » بعد هذا التقدير ومعناه وهو مثل لفظ اليد ينقل إلى النعمة ثم يشتق منه « يديت » فاعرفه^(١) .

ومما يجب أن يعلم في هذا الباب أن الإضافة في الاسم كالإسناد في الفعل فكل حكم يجب في إضافة المصدر من حقيقة أو مجاز فهو واجب في إسناد الفعل ، فانظر الآن إلى قولك : أعجبنى وشى الربيع الرياض وصوغه تبرها وحوكه ديباجها . هل تعلم لك سبيلاً في هذه الإضافات إلى التعلق باللغة وأخذ الحكم عليها منها ؟ أم تعلم امتناع ذلك عليك ؟ وكيف والإضافة لا تكون حتى تستقر اللغة ويستحيل أن يكون للغة حكم في الإضافة ورسم حتى يعلم بها أن حق الاسم أن يضاف إلى هذا دون ذلك . وإذا عرفت ذلك في هذه المصادر التي هي الصوغ والوشى والحوك فضع مصدر فعل الذي هو عمدتك في سؤالك وأصل تشبهتك موضعها وقل ما ترى إلى فعل الربيع لهذه الحسن ثم تأمل هل تجد فصلاً بين إضافته وإضافة تلك ؟ فإذا لم تجد الفصل البتة فاعلم صحة قضيتنا وانفض يدك بمسئلتك ودع النزاع عنك وإلى الله تعالى الرغبة في التوفيق .

(١) يدي فلانا (كوقى) أصاب يده . ويدي (كرضى) ويدي (مجهول) أصابه بر من آخر .

فصل

قال أبو القاسم الأمدى فى قول البحترى :

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق وحاك ما حاك من وشى وديباج
صوغ الغيث وحوكه النبات ليس باستعارة بل هو حقيقة ولذلك لا يقال :
هو صائغ ولا كأنه صائغ . وكذلك لا يقال : حائك وكأنه حائك . على
أن لفظة حائك خاصة فى غاية الركافة إذا أخرج على ما أخرجه عليه
أبو تمام فى قوله :

إذا الغيث غادى نسجه خلت أنه خلت حُقْبُ حرس له وهو حائك^(١)

وهذا قبيح جداً والذي قاله البحترى « وحاك ما حاك » حسن مستعمل ،
فانظر ما بين الكلامين ، لتعلم ما بين الرجلين .

قد كتبت هذا الفصل على وجهه والمقصود منه منعه أن تطلق
الاستعارة على الصوغ والحوك — وقد جعلنا فعلاً للربيع — واستدلنا على ذلك
بامتناع أن يقال : وكأنه صائغ وكأنه حائك . اعلم أن هذا الاستدلال
كأحسن ما يكون إلا أن الفائدة تتم بأن تبين جهته ومن أين كان كذلك .

(١) الضمير فى « نسجه » لاروض . وغاداه باكره . وأول الشطر الثانى على ما فى
الديوان « أنت حقبة » الخ . قال فى المصباح : الحقب الدهر والجمع أحقاب مثل :
قفل وأقفال — وضم القاف للاتباع لغة . ويقال : الحقب ثمانون سنة . والحقبة
بمعنى المدة والجمع حقب — مثل سدره وسدر ، وقيل الحقبة — أى بالكسر —
مثل الحقب أى بالضم اه . قال شيخنا فى الدرس : إن تأنيث الفعل « خلت » باعتبار
معنى الحقب بالضم وهو المدة أو على أنها بضم ففتح جمع حقبة بالكسر وهى المدة اه .
وحرس بالمهملة يريد بها طويلة . والحرس بالفتح الدهر . ويقال حرس « كعلم »
أى عاش طويلاً .

والقول فيه أن التشبيه كما لا يخفى يقضتي شيئين مشبها ومشبها به ، ثم ينقسم إلى الصريح وغير الصريح . فالصريح أن تقول « كأن زيدا الأسد » فتذكر كل واحد من المشبه والمشب به باسمه ، وغير الصريح أن تسقط المشبه به من الذكر وتجري اسمه على المشبه كقولك : رأيت أسداً . تريد رجلاً شبيهاً بالأسد إلا أنك تغير اسمه مبالغة وإيهاماً . أن لاتصل بينه وبين الأسد وأنه قد استحال إلى الأسدية . فإذا كان الأمر كذلك وأنت تشبه شخصاً بشخص فإنك إذا شبهت فعلاً بفعل كان هذا حكمه ، فأنت تقول مرة : كأن تزيينه لكلامه نظم در . فتصرح بالمشبه والمشب به . وتقول أخرى : إنما ينظم دراً ، تجعله كأنه ناظم دراً على الحقيقة . وتقول في وصف الفرس : كأن سيره سباحة وكأن جريه طيران طائر ، هذا إذا صرحت وإذا أخفيت واستعرت قلت : يسبح براكبه ، ويطير بفارسه ، فتجعل حركته سباحة وطيراناً .

ومن لطيف ذلك ما كان كقول أبي دلالة بصف بغلته :

أرى الشهباء تعجن إذ غدونا برجليها وتخبز باليمين

شبه حركة رجليها حين لم تثبتا على موضع تعتمد بهما عليه وهوتا ذاهبين نحو يديها بحركة يدي العاجن فإنه لا يثبت اليد في موضع بل زلها إلى قدام وتزول من عند نفسها لرخاوة المعجن ، وشبه حركة يديها بحركة يد الخابز من حيث كان الخابز يثني يده نحو بطنه ويحدث فيها ضرباً من التقويس ، كما يجد في يد الدابة إذا اضطربت في سيرها ولم تقف على ضبط يديها ، وأن ترمى بها إلى قدام ، وأن تشد اعتمادها حتى تثبت في الموضع الذي تقع عليه فلا تزل عنه ولا تنثنى ؛ وأعود إلى المقصود .

فإذا كان لا تشبيهه حتى يكون معك شيئان ، وكان معنى الاستعارة أن تغير لفظ المشبه بلفظ المشبه به ولم يكن معنا في « صاغ الربيع » أو « حاك الربيع » إلا شيء واحد وهو الصوغ أو الحوك كان تقدير الاستعارة فيه محالا جارياً مجرى أن يشبه الشيء بنفسه وتجعل اسمه عارية فيه وذلك بين الفساد ، فإن قلت : أليس الكلام على الجملة معقوداً على تشبيه الربيع بالقادر في تعلق وجود الصوغ والنسج به فكيف لم يجز دخول « كأن » في الكلام من هذه الجهة ؟ فإن هذا التشبيه ليس هو التشبيه الذي يعقد في الكلام^(١) ويفاد بكأن والكاف ونحوها ، وإنما هو عبارة عن الجهة التي راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر في إسناد الفعل إليه . ووزانه وزان قولنا إنهم يشبهون « ما » بليس فيرفعون بها المبتدأ وينصبون بها الخبر فيقولون : ما زيد منطلقاً ، فنخبر عن تقدير قدره في نفوسهم وجهة راعوها في إعطاء « ما » حكم « ليس » في العمل ، فكما لا يتصور أن يكون قولنا « ما زيد منطلقاً » تشبيهاً على حد « كأن زيدا الأسد » كذلك لا يكون « صاغ الربيع » من التشبيه فكلامنا إذن في تشبيه منقول منطوق به وأنت في تشبيه معقول غير داخل في النطق — هذا — وإن يكن ههنا تشبيه فهو في الربيع لا في العمل المسند إليه واختلافنا في صاغ وحاك هل يكون تشبيهاً واستعارة أم لا فلا يلتقي التشبيهان أو يلتقي المشتم والمعرق .

وهذا هو القول على الجملة إذا كانت حقيقة أو مجازاً وكيف وجه الحد فيها ، فكل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة ولن تكون كذلك حتى نرى من التأول ، ولا فصل

(١) قوله فإن هذا التشبيه الخ هو جواب فإن قلت الخ .

بين أن تكون مصيباً فيما أفدت بها من الحكم أو مخطئاً ، وصادقاً أو غير صادق . فمثال وقوع الحكم المفاد موقعه من العقل على الصحة واليقين والقطع قولنا : خلق الله تعالى الخلق وأنشأ العالم وأوجد كل موجود سواه فهذه من أحق الحقائق وأرسخها في العقول ، وأقعدتها نسباً في المعقول ، والتي إن رمت أن تغيب عنها غبت عن عقلك ، ومتى هممت بالتوقف في ثبوتها استولى النفي على معقولك ، ووجدتك كالمرمى به من حالق إلى حيث لا مقر لقدم ، ولا مساغ لتأخر وتقدم ، كما قال أصدق القائلين جلّت أسماؤه ، وعظمت كبرياؤه ، (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) . وأما مثال أن توضع الجملة على أن الحكم المفاد بها واقع موقعه من العقل وليس كذلك إلا أنه صادر عن اعتقاد فاسد وظن كاذب فمثل مايجيء في التنزيل من الحكاية عن الكفار نحو (وما يهلكنا إلا الدهر) فهذا ونحوه من حيث لم يتكلم به قائله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماه إطلاق من يضع الصفة في موضعها ، لا يوصف بالمجاز ولكن يقال عند قائله إنه حقيقة ، وهو كذب وباطل ، وإثبات لما ليس بثابت ، أو نفي لما ليس بمنتف ، وحكم لا يصححه العقل في الجملة بل يردده ويدفعه ، إلا أن قائله جهل مكان الكذب والبطلان فيه أو جحد وباهت .

ولا يتخلص لك الفصل بين الباطل وبين المجاز حتى تعرف حد انجاز ، وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول فهي مجاز ومثاله ماضى من قولهم « فعل الربيع » وكما جاء في الخبر

« إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »^(١) قد أثبت الانبات للربيع

(١) قال الأزهرى : وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » فإن أبا عبيد فسر الحبط وترك من تفسير هذا الحديث أشياء لا يستغنى أهل العلم عن معرفتها فذكرت الحديث على وجهه لأفسر منه كل ما يحتاج من تفسيره . قال — وذكر سنده إلى أبي سعيد الخدرى أنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : « إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » . قال : فقال رجل : أويأتى الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرضاء وقال : « أين هذا السائل » وكأنه حمده فقال : « إنه لا يأتى الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاضرتها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم ربت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى المسكين واليتيم وابن السبيل — أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وإنه من يأخذه بغير حقه فهو كالآكل الذى لا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة » . قال الأزهرى : وإنما تفصيت رواية هذا الخبر لأنه إذا بتر استغلق معناه وفيه مثلث : ضرب أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه . والمثل الآخر ضربه للمقتصد فى جمع المال وبذله فى حقه . فأما قوله صلى الله عليه وسلم : « وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً » . فهو مثل الحريص والمفرط فى الجمع والمنع . وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحاولها الماشية فتسكن منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك كذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب . وأما مثل المقتصد المحمود فقوله صلى الله عليه وسلم : « إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خواصرها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم ربت » وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلاً ولكنه من الجنبه التى ترعاها بعد هيج العشب ويبسه . قال : وأكثر ما رأيت العرب يعملون الحصر ما كان أخضر من الحلى الذى لم يصفر والماشية ترتع منه شيئاً شيئاً ولا تستكثر منه فلا تحبط =

وذلك خارج عن موضعه من العقل لأن إثبات الفعل لغير القادر لا يصح

= بطونها . قال : وقد ذكره طرفة فبين أنه من نبات الصيف في قوله :
« نبات الخمر يمدن إذا أنبت الصيف عساليج الخضر »

فالخضر من كلاء الصيف في القيظ وليس من أحرار بقول الربيع والنعم لا تستر به ولا تخبط بطونها عنه . وقال : ونبات الخمر أيضاً وهي سحائب يأتين قبيل الصيف قال : وأما الحضارة فهي من البقول الشتوية وليست من الجنة فضرب النبي صلى الله عليه وسلم آكلة الخضر مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف في ثمنها والحرص عليها وأنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : فإنها إذا أصابت من الخضر استقبلت عين الشمس فثلطت وباتت . وإذا ثلطت فقد ذهب حبطها وإنما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل واتطمت عليها بطونها . وقوله : « إلا آكلة الخضر » معناه لكن آكلة الخضر . وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هذا المال خضرة حلوة » فهو ههنا الناعمة الغضة اه لسان العرب . وفيه والحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها اه .

وفي العبارة ألفاظ غريبة على طلاب العلم في هذا العصر نفسرها ونضبطها وهي الرخصاء بضم الراء وفتح الحاء المهملة العرق الكثير . ويلم مضارع ألم ومعناه هنا يقارب . وثلط « كضرب » سلح رقيقاً ليناً بسهولة . وأحرار العشب الرقيق الرطب منه وقالوا : أحرار البقول ما أكل منه غير مطبوخ كالخس وهو مجاز وقال أبو الهيثم : أحرار البقول ما رقى منها ورطب ، وذكرها ما غلظ منها وخشن ، والجنة بالفتح هي كما قال الأزهرى اسم لنبت كثيرة وهي كلها عروق سميت جنية لأنها صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن القى لا أرومة لها في الأرض . وقال غيره : هي ماله أصل غامض في الأرض والخضر بفتح فكسر ضرب من الجنة واحده بالهاء « خضرة » والحلى « كعلى » ما أبيض من يابس النص وهو « بوزنه » نبات سبط من أفضل المراعى ونبات الخمر في بيت طرفة ويقال نبات خمر سحائب بيض رقاق تأتي قبل « كعنق » الصيف . وقوله : يمدن من مَاد النبات يمد اهتز وتروى وجرى فيه الماء والمراد تتحرك ويضطرب فيها ماؤها . والعساليج جمع عسلوج وهو قضيب الشجر والكرم ونحوه أول ما ينبت

في قضايا العقول إلا أن ذلك على سبيل التأول وعلى العرف الجارى بين الناس أن يجعلوا الشيء إذا كان سبباً أو كالسبب في وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل . فلما أجرى الله سبحانه العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار وتظهر الأنوار وتلبس الأرض ثوب شبابها في زمان الربيع صار يتوهم في ظاهر الأمر ومجرى العادة كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع فأسند الفعل إليه على هذا التأويل والتنزيل .

وهذا الضرب من المجاز كثير في القرآن فمنه قوله تعالى : (تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) وقوله عز اسمه : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) وفي الأخرى : (فمنهم من يقول أئكم زادته هذه إيماناً) وقوله : (وأخرجت الأرض أثقالها) وقوله عز وجل : (حتى إذا أقبلت سحاباً ثقلاً ستفناه لبلد ميت) أثبت الفعل في جميع ذلك لما لا يثبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول على معنى السبب وإلا فمعلوم أن النخلة ليست تحدث الأكل ولا الآيات توجد العلم في قلب السامع لها ، ولا الأرض تخرج الكامن في بطنها من الأثقال ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيها وأودع جوفها . وإذا ثبت ذلك فاللبطل والكاذب لا يتأول في إخراج الحكم عن موضعه واعطائه غير المستحق ، ولا يشبه كون المقصود سبباً بكون الفاعل فاعلاً بل يثبت القضية من غير أن ينظر فيها من شيء إلى شيء ، ويرد فرعاً إلى أصل ، وتراه أعمى أكمه يظن مالا يصح صحتها ، ومالا يثبت ثباتها ، وما ليس في موضعه من الحكم موضوعاً موضعه . وهكذا المتعمد للكذب يدعى أن الأمر على ما وضعه تلييساً وتمويهاً وليس هو من التأول .

والنكتة أن المجاز لم يكن مجازاً لأنه إثبات الحكم لغير مستحقه بل لأنه

أثبت لما لا يستحق تشبيهاً ورداً له إلى ما يستحق ، وأنه ينظر من هذا إلى ذلك ، وإثباته ما أثبت للفرع الذي ليس بمستحق يتضمن الإثبات للأصل الذي هو المستحق ، فلا يتصور الجمع بين شيئين في وصف أو حكم من طريق التشبيه والتأويل حتى يبدأ بالأصل في إثبات ذلك الوصف والحكم له .
 ألا تراك لا تقدر على أن تشبه الرجل بالأسد في الشجاعة ما لم تجعل كونها من أخص أوصاف الأسد وأغلبها عليه نصب عينيك ، وكذلك لا يتصور أن يثبت المثبت الفعل للشيء على أنه سبب ما لم ينظر إلى ما هو راسخ في العقل من أن لا فعل على الحقيقة إلا للقادر ، لأنه لو كان نسب الفعل إلى هذا السبب نسبة مطلقة لا يرجع فيها إلى حكم القادر والجمع بينهما من حيث تعلق وجوده بهذا السبب من طريق العادة كما يتعلق بالقادر من طريق الوجوب لما اعترف بأنه سبب ولا ادعى أنه أصل بنفسه مؤثر في وجود الحادث كالقادر ، وإن تجاهل متجاهل فقال بذلك على ظهور الفضيحة وإسراءها إلى مدعيه كان الكلام عنده حقيقة ولم يكن من مسئلتنا في شيء ، ولحق بنحو قول الكفار « وما يهلكنا إلا الدهر » وليس ذلك المقصود في مسئلتنا لأن الغرض ههنا ما وضع فيه الحكم واضعاً على طريق التأويل فأعرفه .

ومن أوضح ما يدل على أن إثبات الفعل للشيء لأنه سبب يتضمن إثباته للسبب من حيث لا يتصور دون تصوره أن تنظر إلى الأفعال المسندة إلى الأدوات والآلات كقولك : قطع السكين وقتل السيف . فإنك تعلم أنه لا يقع في النفس من هذا الإثبات صورة ما لم تنظر إلى إثبات الفعل لمعمل الأداة والفاعل بهما ، فلو فرضت أن لا يكون ههنا قاطع بالسكين

ومصرف لها أعناك^(١) أن تعقل من قولك « قطع السكين » معنى بوجه من الوجوه . وهذا من الوضوح بحيث لا يشك عاقل فيه ، وهذه الأفعال المسندة إلى من تقع تلك الأفعال بأمره كقولك « ضرب الأمير الدرهم وبني السور » لا تقوم في نفسك صورة لإثبات الضرب والبناء فعلا للأمير بمعنى الأمر به حتى تنظر إلى ثبوتها للمباشر لها على الحقيقة ، والأمثلة في هذا المعنى كثيرة تتلواك من كل جهة وتجدها أنى شئت .

واعلم أنه لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين فأما أن يكون الشيء الذي أثبت له الفعل مما لا يدعى أحد من المحققين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير في وجود المعنى الذي أثبت له وذلك نحو قول الرجل : محبتك جاءت بي إليك . وكقول عمرو بن العاص في ذكر الكلمات التي استحسناها : هن مخرجاتي من الشام ، فهذا مالا يشبهه على أحد أنه مجاز ، وأما أنه يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا للقادر ، وأنه ممن لا يعتقد الاعتقادات الفاسدة كنحو ما قاله المشركون وظنوه من ثبوت الهلاك فعلا للدهر فإذا سمعنا نحو قوله :

أشاب الصغير وأقنى الكبير رَكَرَ الفداة ومرَّ العشى
وقول أبي الأصمعي :

أهلكنا الليل والنهار معاً والدهر يغدو مصمماً جذعاً^(٢)
كان طريق الحكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقاد التوحيد إما بمعرفة أحوالهم

(١) أعناك أتعبك أى أوقعك في العناء .

(٢) مصمماً — ماضياً في سيره . والدهر جذع أى شاب دائماً لا يهرم ، ويسمى الدهر الازلم الجذع وهو مجاز وأصل الازلم ما يقطع طرف أذنه من كرام الإبل والشاء والجذع ما قبل الثني .

السابقة أو بأن تجد في كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو ما يكشف عن قصد المجاز فيه كنعو ما صنع أبو النجم فإنه قال أولاً :

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنباً كله لم أصنع
من أن رأت رأسي كـرأس الأصلع ميز عنه قنزعةً عن قنزعة^(١)
مرثى اليمالى ابطنى أو أسرعى

فهذا على المجاز وجعل الفعل لليالى ومرورها إلا أنه خفى غير بady
الصفحة . ثم فسر وكشف عن وجه التأول ، وأفاد أنه بنى أول كلامه على
التخيل ، فقال :

أفناء قيل الله للشمس اطلعي حتى إذا وأراك أفق فارجمي
فبين أن الفعل لله وأنه المعيد والمبدى والمنشئ والمنفى ، لأن المعنى في
« قيل الله » أمر الله ، وإذا جعل الفناء بأمره فقد صرح بالحقيقة ، وبين ما كان
عليه من الطريقة

واعلم أنه لا يصح أن يكون قول الكفار « وما يهلكنا إلا الدهر »
من باب التأويل والمجاز وأن يكون الإنكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ
وأن فيه إيهاماً للخطأ . كيف وقد قال تعالى بعقب الحكاية عنهم : (وما لهم
بذلك من علم إن هم إلا يظنون) والمتجاوز أو المخطئ في العبارة لا يوصف
بالظن ، إنما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله وكما يوجبه ظاهر كلامه ،
كيف يجوز أن يكون الإنكار من طريق إطلاق اللفظ دون إثبات الدهر
فاعلاً للهلاك وأنت ترى في نص القرآن ما جرى فيه اللفظ على إضافة فعل

(١) المعروف في الشطر الرابع روايتان إحداهما « طير عنها قنزعة » الخ
والأخرى « صير عنه » والقنزعة جمع قنزعة وهي الشعر حوالى الرأس ، وقيل في وسط
أرأس خاصة

المهلك إلى الريح مع استحالة أن تكون فاعلة؟ وذلك قوله عز وجل (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيهما صرأصابت حرث قوم ظلّموا أنفسهم فأهلكته) وأمثال ذلك كثير .

ومن قدح في المجاز ، وهم أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطاً عظيماً وتهدف لما لا ينبغي . ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به ، حتى تحصل ضروبه ، وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص مما نحا نحو هذه الشبهة ، لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ، ويصرف العناية إليه ، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عدها ، وللشيطان من جانب الجهل به مداخل خفية يأتيهم منها فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون ، ويلقيهم في الضلالة من حيث ظنّوا أنهم يهتدون ؟ وقد اقتسمه البلاء فيه من جانبي الإفراط والتفريط ، فمن مغرور مغرّى بنفويه دفعة ؛ والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبوعن اسمه ، يرى أن لزوم الظواهر فرض لازم ، وضرب الخيام حولها حتم واجب ، وآخر يغلو فيه ويفرط ، ويتجاوز حده ويخبط ، فيعدل عن الظاهر والمعنى عليه ، ويسوم نفسه التعمق في التأويل ولا سبب يدعوه إليه .

أما التفريط ، فما تجدد عليه قوماً في نحو قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) . وقوله : (وجاء ربك . و : الرحمن على العرش استوى) وأشباه ذلك من النبوءات أقوال أهل التحقيق . فإذا قيل لهم إن الإتيان والمجيء انتقال من مكان إلى مكان ، وصفة من صفات الأجسام ، وأن الاستواء إن حمل على ظاهره لم يصح إلا في جسم يشغل حيزاً ويأخذ مكاناً ، والله عز وجل خالق الأماكن والأزمنة ، ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة

والتمكن والسكون ، والانفصال والاتصال ، والمماسه والمحاذاة ، وأن المعنى على :
 (إلا أن يأتيهم أمر الله ، وجاء أمر ربك) . وأن حقه أن يعبر بقوله تعالى :
 (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) وقول الرجل : آتيك من حيث لا تشعرون — يريد
 أنزل بك المكروه ، وأفعل ما يكون جزاء لسوء صنيعك في حال غفلة منك ،
 ومن حيث^(١) تأمن حلوله بك . وعلى ذلك قوله :

أتيناهم من أيمن الشق عندهم ويأتي الشقي الحين من حيث لا يدرى
 نعم إذا قلت ذلك للواحد منهم رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه ، فبين جنبيه
 قلب قلب يتردد في الحيرة ويتقلب ، ونفس تفر من الصواب وتهرب ، وفكر
 واقف لا يجرى ولا يذهب ، يحضره الطبيب بما يبرئه من دائه ، ويريه المرشد
 وجه الخلاص من عنائه ، ويأبى إلا نفاراً عن العقل ، ورجوعاً إلى الجهل ،
 لا يحضره التوفيق بقدر ما يعلم به أنه إذا كان لا يجرى في قوله تعالى :
 « واستل القرية » . على الظاهر لأجل علمه أن الجهاد لا يسأل ، مع أنه
 لو تجاهل متجاهل فادعى أن الله تعالى خلق الحياة في تلك القرية حتى عقلت
 السؤال وأجابت عنه ونطقت ، لم يكن قال قولاً يكفر به ، ولم يزد على شيء
 يعلم كذبه فيه ؛ فمن حقه أن لا يجهنم ههنا على الظاهر^(٢) ، ولا يضرب الحجاب
 دون سمعه وبصره حتى لا يعي ولا يراعى مع ما فيه إذا أخذ على ظاهره من التعرض
 للهلاك والوقوع في الشرك .

فأما الإفراط فيما يتعاطاه قوم يحبون الإغراب في التأويل ، ويحرصون

(١) الضمير في حلوله للمكروه أو ما يكون جزاء الخ

(٢) جملة « فمن حقه » الخ جواب قوله « إذا كان لا يجرى » الخ . الجثم والجثوم
 من الطائر والإنسان وغيرها التلبد بالأرض والمراد هنا شدة التمسك .

على تكثير الوجوه ، وينسون أن احتمال اللفظ شرط في كل ما يعدل به عن الظاهر فهم يستكثرون الألفاظ على الأمثلة من المعاني يدعون السليم من المعنى إلى السقيم ويرون الفائدة حاضرة وقد أبدت صفتها وكشفت قناعها ، فيعرضون عنها حياءً للتشوف^(١) وقصداً إلى التويه وذهاباً في الضلالة .

وليس القصد ههنا بيان ذلك فأذكر أمثله ، على أن كثيراً من هذا الفن يرغب عن ذكره لسخفه ، وإما غرضي عما ذكرت أن أريك عظم الآفة على الجهل بحقيقة المجاز وتحصيله ، وأن الخطأ فيه مورط صاحبه ؛ وفاضح له ومستقط قدره ، وجاعله ضحكة يتفكه به^(٢) وكاسيه عاراً يبقى على وجه الدهر . وفي مثل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »^(٣) وليس حمله روايته . وسرد ألفاظه ، بل العلم بمعانيه ومخارجه ، وطرقه ومناهجه ، والفرق بين الجائز والممتنع ، والمنقاد المصحب ، والنافي النافر^(٤) .

وأقل ما كان ينبغي أن تعرفه الطائفة الأولى وهم المنكرون للمجاز أن التنزيل كما لم يقلب اللغة في أوضاعها المفردة عن أصولها ، ولم يخرج الألفاظ عن دلالتها ، وأن شيئاً من ذلك إن زيد إليه ، ما لم يكن قبل الشرع يدل عليه ، أو ضمن ما لم يتضمنه أتبع ببيان من عند النبي صلى الله عليه وسلم وذلك كبيان

(١) التشوف التزين .

(٢) الضحكة بضم فسكون من يضحك عليه الناس

(٣) المراد بالغالين المبتدعة وبالمبطلين الذين يتعمدون الباطل وينتحلون من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يؤيد باطلهم

(٤) المصحب اسم فاعل من أصحب له الرجل والدابة انقادا له وذلا وحقيقته دخل في الصحبة . وقوله « النافي » من اللازم أى البعيد المتجافى والتحقيق أن سيب الإفراط والتفريط هو الجهل .

للاصلاة والحج والزكاة والصوم - كذلك لم يقض بتبديل عادات أهلها ، ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم ، ولم يمنهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع . وكذلك كان من حق الطائفة الأخرى أن تعلم أنه عز وجل لم يرض لنظم كتابه الذي سماه هدى وشفاء ، ونوراً وضياء ، وحياة تحيا بها القلوب ، وروحاً تنشرح عنه الصدور ، ما هو عند القوم الذين خطبوا به خلاف البيان ، وفي حد الإغلاق والبعد من التبيان ، وأنه تعالى لم يكن ليعجز بكتابه من طريق الإلباس والتعمية ، كما يتعاطاه الملغز من الشعراء ، والمحاجي من الناس ، كيف وقد وصفه بأنه « عربي مبين » .

هذا وليس التعسف الذي يرتكبه بعض من يجهل التأويل من جنس ما يقصده أصحاب الألفاظ والأحاجي ، بل هو شيء يخرج عن كل طريق ويبين كل مذهب ، وإنما هو سوء نظر منهم ووضع الشيء في غير موضعه ، وإخلال بالشريطة ، وخروج عن القانون وتوهم أن المعنى إذا دار في نفوسهم وعقل من تفسيرهم فقد فهم من لفظ المفسر وحتى كان الألفاظ تنقلب عن سجيئتها ، وتزول عن موضوعها ، فتحمل ما ليس من شأنها أن تحمله ، وتؤدي ما لا يوجب حكمها أن تؤديه .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هذا كلام في ذكر المجاز وفي بيان معناه وحقيقته)

« وفيه بيان المنقول والمشترك والمجاز المرسل وعلاقته »

المجاز مفعول من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه . وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً .

ثم اعلم بعد أن في إطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطاً وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل . ومعنى الملاحظة أن الاسم يقع لما تقول أنه مجاز فيه بسبب بينه وبين الذي يجعله حقيقة فيه نحو أن اليد تقع للنعمة وأصلها الجارحة لأجل أن الاعتبار اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم ، وما يقتضيه ظاهر البنية وموضوع الجبلة . ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد ومنها تصل إلى المقصود بها والوهو هي منه . وكذلك الحكم إذا أريد باليد القوة والقدرة لأن القدرة أكثر ما يظهر سلطانها في اليد ، وبها يكون البطش والأخذ والدفع والمنع ، والجذب والضرب والقطع ، وغير ذلك من الأفاعيل التي تنجز فضل أخبار عن وجوه القدرة وتنبئ عن مكانها ولذلك تجدهم لا يريدون باليد شيئاً إلا ملاسة بينه وبين هذه الجارحة بوجه .

ولوجب اعتبار هذه النكتة في وصف اللفظ بأنه مجاز لم يجز استعماله في الألفاظ التي يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين كـ بعض الأسماء المجموعة في الملاحن مثل أن الثور يكون اسماً للقطعة الكبيرة من الاقط والنهار اسم لفرخ الحبارى والليل لولد السكران^(١) كما قال :

أكلت النهار بنصف النهار وليلا أكلت بليلى بهم

(١) الاقط بالتثنية وبفتح الهمزة مع تثنية القاف وبكسرتين الجين المتخذ من اللبن الحامض ، والحبارى بالضم والقصر طائر يضرب به المثل في البلاهة والحق لأنها إذا غمرت عشها نسيته وحضنت بيض غيرها ، يقال « هو أبله من الحبارى » وكل شيء يحب ولده إلا الحبارى » واللفظ يطلق على الذكر والأنثى ، وهو ممنوع من الصرف معرفاً ومنكراً . والسكران بالتحريك هو كما في المصباح طائر طويل الرجلين أغبر نحو الحمامة وله صوت حسن . وقيل هو الحجل :

وذلك أن اسم الثور لم يقع على الاقط لأمر بينه وبين الحيوان المعلوم ولا النهار على الفرخ لأمر بينه وبين ضوء الشمس أداه إليه وساقه نحوه .
والغرض المقصود بهذه العبارة — أعنى قولنا المجاز — أن تبين أن اللفظ أصلاً مبدوءاً به في الوضع ومقصوداً ، وإن جريه على الثانی إنما هو على سبيل النقل إلى الشيء من غيره ، وكما يعقب الشيء برأحة ما يجاوره ، وينصبغ بلون ما يدانيه ، ولذلك تراهم لا يطلقون المجاز في الأعلام اطلاقهم لفظ النقل فيها حيث قالوا : العلم على ضربين منقول ومرتبجل ، وإن المنقول منها يكون منقولاً عن اسم جنس كأسد وثور وزيد وعمر ، أو صفة كعاصم وحارث ، أو فعل كيزيد ويشكر ، أو صوت كبيته^(١) فائتوا لهذا كله النقل من غير العلمية إلى العلمية ، ولم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلاً إن « يشكر » حقيقة في مضارع شكر ومجاز في كونه اسم رجل ، وإن حجباً حقيقة في الجاد ومجاز في اسم الرجل ، وذلك أن الحجب لم يقع اسماً للرجل لالتباس كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة وبينها وبين القدرة ولا كما كان بين الظهر الحامل وبين المحمول في نحو تسميتهم المزايدة رادية وهي اسم للبعير الذي يحملها في الأصل ، وكتسميتهم البعير حفزاً وهو اسم لمتاع البيت الذي يحمل عليه — ولا كنفحو ما بين الجزء من الشخص وبين جملة الشخص كتسميتهم الرجل عيناً إذا كان ربيضة ، والناقة ناباً — ولا كما بين النبت والغيث وبين السماء والمطر حيث قالوا : رعيننا الغيث يريدون النبت الذي الغيث سبب في كونه ، وقالوا : أصابنا السماء . يريدون المطر . وقال « تلقه الأرواح والسعى^(٢) » وذلك أن في هذا كله تأولا

(١) سيأتي تفسيره « ص ٣٥٣ »

(٢) السعى جمع مماء بمعنى المطر والأرواح الرياح

وهو الذى أفضى بالإسم إلى ما ليس بأصل فيه ، فالعين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ريثة صارت كأنها الشخص كله ، إذ كان لولا هداها لا يعى شيئاً مع فقدوها ، والنمىث لما كان النمىث يكون عنه صار كأنه هو ، والمطر لما كان ينزل من السماء عبروا عنه باسمها .

واعلم أن هذه الأسباب السكائنة بين المنقول والمنقول عنه تختلف فى القوة والضعف والظهور وخلافه فهذه الأسماء التى ذكرتها إذا نظرت إلى المعانى التى وصلت بين ما هى له وبين ما ردت إليه وجدتها أقوى من محوماتها فى تسميتهم الشاة التى تذبح عن الصبي إذا حلقت عقيقته عقيقة^(١) وتجد حالها بعد أقوى من حال العقيرة فى وقوعها للصوت فى قولهم : رفع عقيرته . وذلك أنه شئ جري اتفاقاً ولا معنى يصل بين الصوت وبين الرجل المعقورة . على أن القياس يقتضى أن لا يسمى مجازاً ولكن يجرى بجرى الشئ يحكم فيه بعد وقوعه كالمثل إذا حكى فيه كلام صدر عن قائله من غير قصد إلى قياس وتشبيه بل الاخبار عن أمر من قصده بالخطاب كقولهم « الصيف ضيعت الابن^(٢) » .

ولهذا الموضع تحقيق لا يتم إلا بأن يوضع له فصل مفرد . والمقصود الآن غير ذلك لأن قصدى فى هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعم من الاستعارة وأن

(١) العقيقة شعر كل مولود من الناس والبهائم يولد وهو عليه

(٢) المثل يضرب لمن ضيع الشئ فى وقته وعاد يطلبه بعد فواته . وسببه أن امرأة كرمت زوجها الموسر فطلقها فتزوجت بمعلق وأرسلت تستمىح زوجها الأول فقالت مكسورة . ويروى أن الأسود بن هرمز طلق امرأته العنود الشنية وتزوج بامرأة جميلة غنية من قومه فحدث ما أوجب طلاقها ثم راسل الأولى فقالت فى بيتين من الشعر فأيهما كان السابق ؟

الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن أعنى علم الخطابة ونقد الشعر^(١) والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع يجرى على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة .

قال القاضي أبو الحسن في أثناء فصل ذكرها فيه : وملاك الاستعارة تقريب الشبه ومناسبة المستعار المستعار منه . وهكذا تراهم يسودونها في أقسام البديع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر^(٢) وغير ذلك من غير أن يشترطوا شرطاً ويعقبوا ذكرها بتقييد فيقولوا ومن البديع الاستعارة التي من شأنها كذا . فلولا أنها عندهم لنقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة إما قطعاً وإما قريباً من المقطوع عليه لما استجازوا ذكرها مطلقة غير مقيدة . يبين ذلك أنها إن كانت تسارق

(١) لم يقل علماء البيان لأن البيان لم يكن قبله علماً بل هو الذي جعله علماً بهذا الكتاب وإنما خاض الباحثون في نقد الكلام في بعض مسائله ولم يضعوا لها حدوداً ولا رسوماً اصطلاحية تكون بها علماً أو فناً .

(٢) كتب شيخنا في تفسير هذه الاصطلاحات ما نصه :

التطبيق المطابقة كقوله تعالى : « وتعرّض من تشاء وتذل من تشاء » والتوشيح كون فاتحة دالة بمعناها على خاتمة كقول أبي فراس :

إذا ما ثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آساداً غضابا

أسننته إذا لاقى طعاناً صوارمه إذا لاقى ضرابا

دعانا والأسنة مشرعات فسكننا عند دعوته الجوابا

ورد العجز على الصدر تكرير كلمة في الشطرين من الشعر ، أو التقرين من النثر

كقول بعضهم :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى يسريع

المجاز^(١) وتجري مجراه حتى تصلح لكل ما تصلح له^(٢) فذكرها في أقسام البديع يقتضى أن كل موصوف بأنه مجاز فهو بديع عندهم حتى يكون إجراء اليد على النعمة بديعاً وتسمية البعير حَفْضاً والناقة ناباً والريثة عينا والشاة عقيقة بديعاً كله ، وذلك بين الفساد .

وأما ما نجده في كتب اللغة من إدخال ما ليس طريق نقله التشبيه في الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد في الجمهرة فإنه ابتداءً باباً فقال : (باب الاستعارات) ثم ذكر فيه أن الوغى اختلاط الأصوات في الحرب ثم كثرت وصارت الحرب وغى وأنشد :

أضامة من دونها الثلاثين لها وغى مثل وغى الثمانين^(٣)

يعنى اختلاط أصواتها . وذكر قولهم « رعيننا الغيث والسماء » يعنى المطر وذكر ما هو أبعد من ذلك فقال : الخرس ما تطعمه النفساء ثم صارت

(١) فسر شيخنا تسارق بقوله : تنظر إليه وتميل إليه . وأرى أنها محرفة أصلها تساوقه بالواو أى تشاركه في المساق أو السياق الواحد ويفسرها في المعنى ما بعدها .

(٢) قوله « حتى يصلح لكل ما تصلح له » صححه شيخنا بالعكس وبينه في الدرس في حاشية نسخته بأن معنى الأصل : حتى يصلح المجاز لكل ما تصلح له الاستعارة (قال) وهذا غير ما يراه أو يريد (أى المؤلف) فالصواب حتى تصلح الاستعارة لكل ما يصلح له المجاز كما أصلحناه انتهى . وأقول : الظاهر من السياق أنه لا فرق بين الضبطين هنا ، لأن كلا منهما مراد فقوله « حتى يصلح لكل ما تصلح له » يستلزم عكس وهو : وتصلح لكل ما يصلح له . ولكن هذا لا يستلزم ذلك ، لأن كل استعارة مجاز ولا عكس كما حققه المصنف وأنكر على المتكلمين في البديع ونقد الشعر أنهم لم يفرقوا هذه التفرقة كما أنكروا عليهم هنا وقل إن كلامهم بين الفساد فتأمل .

(٣) الاضامة الجماعة من الرجال .

الدعوة للولادة خرساً^(١) والاعذار الختان وسمى الطعام للختان إغذاراً وأن الظعينة أصلها المرأة في الهودج ثم صار البعير والهودج ظعينة ، والخطر سرب البعير بذنبه جانبي وركيه^(٢) ، ثم صار مالصق من البول بالوركين خطراً . وذكر أيضاً الراوية بمعنى المزادة والحقيقة وذكر فيما بين ذكره لهذه الكلم أشياء هي استعارات على الحقيقة ، على طريقة أهل الخطابة - ونقد الشعر لأنه قال : الظماً العطش وشهوة الماء ثم كثر ذلك حتى قالوا « ظمئت إلى لقائك » . وقال الزجاج ما أوجر الإنسان من دواء أو غيره^(٣) ثم قالوا أوجره الرمح إذا فزعته في فيه .

فالوجه في هذا الذي رواه من إطلاق الاستعارة على ما هو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر وعلى ما ليس من التشبيه في شيء ولكنه نقل اللفظ عن الشيء إلى الشيء بسبب اختصاص وضرب من الملابس بينهما وخلط أحدهما بالآخر أنهم كانوا^(٤) نظروا إلى ما يتعارفه الناس في معنى العارية وأنها شيء حول عن مالكه ونقل عن مقره الذي هو أصل في استحقاقه إلى ما ليس بأصل ، ولم يراعوا عرف القوم . ووزانهم في ذلك وزان من يترك عرف النحويين في التمييز واختصاصهم له بما احتمل أجناساً مختلفة كالمقادير والاعداد وما شاركتها في أن الإيهام الذي يراد كشفه منه هو احتماله الأجناس فيسمى الحال مثلاً تمييزاً من حيث أنك إذا قلت « راكباً » فقد ميزت المقصود وبينته كما فعلت ذلك في قولك : عشرون

(١) المعروف في طعام النساء الحرسه بالتاء . وأما الحرس فهو طعام الولادة وكلاهما بالضم ،

(٢) الخطر بالفتح ويكسر مع سكون الطاء فيها .

(٣) الوجور بالفتح ويضم وهو ما يوجر أي يسب في الحلق .

(٤) قوله إنهم كانوا الخ خبر قوله فالوجه

درهما ومنوان سمنًا وقفيزان برأ ولى مثله رجلا ولله دره رجلا . وليس هذا المذهب بالمذهب المرضى بل الصواب أن تقصر الاستعارة على ما نقله نقل التشبيه المبالغة لأن هذا نقل بطرد على حد واحد وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة فالتطفل به على غيره في الذكر وتركه مغموراً فيما بين أشياء ليس لها في نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده ضعف من الرأى وتقصير في النظر .

وربما وقع في كلام العلماء بهذا الشأن الاستعارة على تلك الطريقة العامة إلا أنه لا يكون عند ذكر القوانين وحيث تقرر الأصول . ومثاله أن أبا القاسم الآمدي^(١) قال في أثناء فصل يبحث عن شيء اعترض به على البحتري في قوله :

(١) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الأديب صاحب كتاب المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء والموازنة بين أبي تمام والبحتري توفي سنة ٣٧٠ وتقدم ذكره قال في الموازنة : « وما نسبوا فيه البحتري إلى سوء القسمة قوله :

فسكان مجلسه المحجب محفل وكان خلوته الخفية مشهد

وقالوا إنه ليس في المصراع الثاني من الفائدة إلا ما في الأول لأن مجلسه المحجب هي خلوته الخفية وقوله محفل كقوله مشهد . والمعنى عندي صحيح لأن المجلس المحجب قد يكون فيه الجماعة الذين ينحصرهم وفي الأكثر الأعم لا يسمى مجلساً إلا وفيه قوم . ألا ترى إلى قول مهمل * واسقب بعدك يا كليب المجلس * أي أهل المجلس على الاستعارة فجعل البحتري مجلسه الذي احتجب فيه مع من ينحصره كالمحفل والمحفل هو الجمع الكثير . والخلوة الخفية قد يكون متفرداً ويكون معه محبوبه فبينها وبين المجلس فرق أي فسكانه إذا خلا خلوة خفية ففيها معه من يشاهده ، ومن يشاهده يجوز أن يكون واحداً أو اثنين والمحفل لا يكون إلا عدداً كثيراً ، فهذا أيضاً فرق صحيح بين المحفل والمشهد . وإنما أراد البحتري أنه لا يفعل في مجلسه المحجب إلا ما يفعله إذا حضره من يشاهده : ينسبه إلى شدة التصون وكرم السريرة » اهـ

فكان مجلسه المحجب محفل وكان خلوته الخفية مشهد
 إن المكان لا يسمى مجلساً إلا وفيه قوم . ثم قال : ألا ترى إلى قوم
 المهمل « واستبَّ بعدك يا كليب المجلس » على الاستعارة . فاطلق لفظ
 الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون في الأمور
 وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على وجه وقوع
 الشيء على ما يتصل به وتكثر ملابسته إياه ، وأى شبه يكون بين القوم
 ومكانهم الذي يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لا يعتد بمثل هذا فإن ذلك قد يتفق
 حيث ترسل العبارة :

وقال الآمدى نفسه : ثم قد يأتي في الشعر ثلاثة أنواع آخر يكتسى
 المعنى العام بها بهاء وحسناً حتى يخرج بعد عمومته إلى أن يصير مخصوصاً
 ثم قال : وهذه الأنواع هي التي وقع عليها اسم البديع وهي الاستعارة والطباق
 والتجنيس . فهذا نص في موضع القوانين ، على أن الاستعارة من أقسام
 البديع ولن يكون النقل بديعاً حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما
 بينت لك وإذا كان كذلك ثم جعل الاستعارة على الإطلاق بديعاً فقد أعلمك
 أنها اسم للضرب الخاص من النقل دون كل نقل فاعرفه .

واعلم أنا إذا أعمنا النظر وجدنا المنقول من أصل التشبيه على المبالغة
 أحق بأن يوصف بالاستعارة من طريق المعنى ، بيان ذلك أن ملك المعير
 لا يزول عن المستعار واستحقاقه إياه لا يرتفع ، فالعارية إنما كانت عارية لأن
 يد المستعير يد عليها مادامت يد المعير باقية وملكه غير زائل ، فلا يتصور

= وأول بيت المهمل الذي استشهد بمصراعه الآمدى * نبئت أن النار بعدك أوقدت *
 وبعده :

وتكلموا في أمر كل عظمة لو كنت شاهدم بها لم ينبسوا

أن يكون المستعير تصرف لم يستفده من المالك الذى أعاره ، ولا أن تستقر يده مع زوال اليد المنقول عنها . وهذه جملة لا تراها إلا فى المنقول نقل التشبيه لأنك لا تستطيع أن تتصور جرى الاسم على النرع من غير أن تخرجه إلى الأصل : كيف ولا يعقل تشبيه حتى يكون ههنا مشبه ومشبه به ، هذا والتشبيه ساذج مرسل فكيف إذا كان على معنى المبالغة ، وعلى أن تجعل الثانى كأنه انقلب مثلاً إلى جنس الأول فصار الرجل أسداً وبحراً وبدرأً ، والعلم نوراً ، والجهل ظلمة ، لأنه إذا كان على هذا الوجه كانت حاجتك إلى أن تنظر به إلى الأصل أمس ، لأنه إذا لم يتصور أن يكون ههنا سبع من شأنه الجراءة العظيمة والبطش الشديد ، كان تقديرك شيئاً آخر يتحول إلى صفتة ويصير فى حكمه من أبعد المحال .

وأما ما كان منقولاً ، لا لأجل التشبيه كاليد فى نقلها إلى النعمة فلا يوجد ذلك فيه ، لأنك لا تثبت للنعمة بإجراء اسم اليد عليها شيئاً من صفات الجارحة المعلومه ، ولا تروم تشبيهاً بها البتة ، لا مبالغاً ولا غير مبالغ ، فلو فرضنا أن تكون اليد اسماً وضع للنعمة ابتداءً ، ثم نقلت إلى الجارحة ، لم يكن ذلك مستحيلاً . وكذلك لو ادعى مدع أن جرى اليد على النعمة أصل ولغة على حديثها وليست مجازاً ، لم يكن مدعياً شيئاً يحيله العقل . ولو حاول أن يقول فى مسئلتنا قولاً شبيهاً بهذا فرام تقدير شيء يجرى عليه اسم الأسد على المعنى الذى يريده بالاستعارة مع نقد السبع المعلوم ومن غير أن يثبت استحقاقه لهذا الاسم فى وضع اللغة رام شيئاً فى غاية البعد .

(وعبارة أخرى) العارية من شأنها أن تكون عند المستعير على صفة تشبيهية بصفها — وهى عند المالك — ولسنا نجد هذه الصورة إلا فيما نقل نقل

التشبيه المبالغة دون ما سواه ، ألا ترى أن الاسم المستعار يتناول المستعار له ليدل على مشاركته المستعار منه في صفة هي أخص الصفات التي من أجلها وضع الاسم الأول ، أعني أن الشجاعة أقوى المعاني التي من أجلها سمي الأسد أسداً ، وأنت تستعير الاسم للشيء على معنى إثباتها له على حدها في الأسد ؛ فأما اليد ونقلها إلى النعمة فليست من هذا في شيء ، لأنها لم تتناول النعمة لتدل على صفة من أوصاف اليد بحال . ويحزر ذلك نسكته وهي أنك تريد بقولك رأيت أسداً أن تثبت للرجل الأسدية ، ولست تريد بقولك : له عندي يد ، أن تثبت للنعمة اليدية وهذا واضح جداً .

واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفة والجحفة في مكان المشفر ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة^(١) ، وأضنّ باسمها أن يقع عليه ، ولكن رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدّها ، فكرهت التشدد في الخلاف واعتددت به في الجملة ؛ ونهيت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة ، وكان وزان ذلك أن يقال المفعول على ضربين ، مفعول صحيح ومشبه بالمفعول ، فيتجاوز باعتداد المشبه بالمفعول في الجملة ثم يفصل بالوصف ، ووجه شبه هذا النحو الذي هو نقل الشفة إلى موضع الجحفة بالاستعارة الحقيقية لأنك تنقل الاسم إلى مجانس له ، ألا ترى أن المراد بالشفة والجحفة عضو واحد ، وإنما الفرق أن هذا من الفرس وذاك من الإنسان ، والمجانسة والمشابهة من واد واحد ، فأنت تقول : أعير الشيء اسم الموضوع له هنالك (أي في الإنسان) ههنا (أي في الفرس)

(١) قوله « في الاستعارة » متعلق بأعد أو بذكرها ويكون ما يتعلق بأعد محذوفاً مثل المذكور .

لأن أحدهما مثل صاحبه وشريكه في جنسه كما أعرت الرجل اسم الأسد لأنه شاركه في صفته الخاصة به وهي الشجاعة البليغة وليس لليد مع النعمة هذا الشبه إذ لا مجانسة بين الجارحة وبين النعمة ، وكذا لا شبه ولا جنسية بين البعير ومتاع البيت وبين المزاودة وبين البعير ، ولا بين العين وبين جملة الشخص فإطلاق اسم الاستعارة عليه بعيد ولو كان اللفظ يستحق الوصف بالاستعارة بمجرد النقل لجاز أن توصف الأسماء المنقولة من الأجناس إلى الأعلام بأنها مستعارة فيقال حجر مستعار في اسم الرجل ولزم لذلك في الفعل المنقول نحو يزيد ويشكر وفي الصوت نحو « بيه » في قوله :

لأنكحنَّ بيه جارية خِدَّيْهِ^(١)
مكرَّمة محبَّبه تحب أهل الكعبة

وذلك ارتكاب قبيح وفرط تعصب على الصواب ويلوح ههنا شيء وهو أنا وإن جعلنا الاستعارة من صفة اللفظ فقلنا اسم مستعار وهذا اللفظ استعارة ههنا وحقيقة هناك ، فإننا على ذلك نشير بها إلى المعنى من حيث قصدنا باستعارة الاسم أن ثبت أخص معانيه للمستعار له ، يدلك على ذلك قولنا : جعله أسداً وجعله بديراً وجعل للشمال يداً ، فلولاً ، أن استعارة الاسم للشيء تتضمن استعارة معناه له لما كان لهذا الكلام معنى لأن جعل لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفة للشيء كقولنا : جعلته أميراً وجعلته لصاً تريد أنه أثبت له الإمارة والوصوية ، وحكم جعل إذا تعدى إلى مفعولين حكم صير فكما لا تقول صيرته أميراً إلا على معنى أنك أثبت له صفة الإمارة

(١) بية حكاية صوت صبي . وهو لقب عبد الله بن الحارث . وقد قالت والدته منذ بنت أبي سفيان وهي ترقصه « لأنكحن بيه » الخ والحديث السمينة . « وتجب أهل الكعبة » معناه المراد تغلب نساء قريش في حسنها .

كذلك لم يقل : جعلته أسداً ، إلا على أنه أثبت له معنى من معانى الأسود ولا يقال : جعلته زيداً ، بمعنى سميته زيداً ، ولا يقال للرجل : اجعل ابنك زيداً ، معنى سمى زيداً ، ولا يقال لفلان ابن فعله زيداً^(١) أى سماه زيداً وإنما يدخل الغلط فى ذلك على من لا يحصل هذا الشأن .

فأما قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) فإنما جاء على الحقيقة التى وصفها وذلك أنهم أثبتوا للملائكة صفة الإناث واعتقدوا وجودها فيهم ، وهذا الاعتقاد صدر عنهم لتمثيلها فى أذهانهم بصور الإناث وما صدر من الاسم أعنى إطلاق اسم البنات . وليس المعنى أنهم وضعوا لها لفظ الإناث أو لفظ البنات اسماً من غير اعتقاد معنى وإثبات صفة ، هذا محال لا يقوله عاقل ، أو ما يسمعون قول الله عز وجل (أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسئلون) فإن كانوا لم يزيدوا على إجراء الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا إثبات صفة ومعنى فأى معنى لأن يقال : (أشهدوا خلقهم) — هذا ولو كانوا لم يقصدوا إثبات صفة ولم يفعلوا أكثر من أن وضعوا اسماً لما استحقوا إلا اليسير من الذم ، ولما كان هذا القول كفراً منهم ، والأمر فى ذلك أظهر من أن يخفى ، ولاكن قد يكون للشئ المستحيل وجوه فى الاستحالة فتذكر كلها وإن كان فى الواحد منها ما يزيل الشبهة ويتم الحجة .

(١) لعل أصله : ولد لفلان ابن الخ ليكون فعله معطوفاً على ولد والاتصل بفعله

فصل

« في تقسيم المجاز إلى اللغوى والعقلى »

« واللغوى إلى الاستعارة وغيرها »

واعلم أن المجاز على ضربين مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا : اليد مجاز في النعمة ، والأسد مجاز في الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكماً أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأننا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذى وقعت له ابتداء في اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيهاً وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه .

ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجميل من حيث هى جل لا يصح ردها إلى اللغة ولا وجه لنسبتها إلى واضعها لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ، وذلك شئ يحصل بقصد المتكلم فلا يصير ضرب خبراً عن زيد بوضع اللغة بل بمن قصد إثبات الضرب فعلاً له .

وهكذا « ليضرب زيد » لا يكون أمراً لزيد باللغة ولا (اضرب) أمراً للرجل الذى تخاطبه وتقبل عليه من بين كل من يصح مخاطبه باللغة بل بك أيها المتكلم ، فالذى يعود إلى واضع اللغة أن ضرب لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج ، وأنه لإثباته في زمان ماض وليس لإثباته في زمان مستقبل ، فأما تعين من يثبت له فيتملق بمن أراد ذلك من المخبرين والمعبرين عن ودائع الصدور ، والكاشفين عن المقاصد والدعاوى صادقة كانت تلك الدعاوى

أو كاذبة ، وبجراحة على صحتها ، أو مزالة عن مكانها من الحقيقة وجهتها ، ومطلقة بحسب ما تأذن فيه العقول وترسمه ، أو معدولا بها عن مراسمها نظما لها في سلك التخيل ، وسلوكا بها في مذهب التأويل .

فإذا قلنا مثلاً : خطأ أحد من مما وشاه الربيع أو صنعه الربيع ، كنا قد انعمنا في ظاهر اللفظ أن للربيع فعلاً أو صنماً وأنه شارك الحى القادر في صحة الفعل منه ، وذلك تجوز به من حيث المعقول لا من حيث اللغة ، لأنه إن قلنا إنه مجاز من حيث اللغة صرنا كأننا نقول إن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وإنها لو حكمت بأن الجماد يصح منه الفعل والصنع والوشى والتزيين ، والصبغ والتحسين ، لكان ما هو مجاز الآن حقيقة ولعاد ما هو الآن يتأول ، معدوداً فيما هو حق محصل ، وذلك محال . وإنما يتصور مثل هذا القول فى الكلام المفردة نحو اليد للنعمة وذلك أنه يصح أن يقال لو كان واضح اللغة وضع اليد أولاً للنعمة ثم عداها إلى الجارحة لكان حقيقة فيما هو الآن مجاز ومجازاً فيما هو حقيقة ، فلم يكن بواجب من بيان المعقول أن يكون لفظ اليد اسماً للجارحة دون النعمة ، ولا فى العقل أن شيئاً بلفظ أن يكون دليلاً عليه أولى منه بلفظ ، لا سيما فى الأسماء الأول التى ليست بمشتقة . وإنما وزان ذلك وزان أشكال الخط التى جعلت أمارات لأجراس الحروف المسموعة فى أنه لا يتصور أن يكون العقل اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به دون أن يكون ذلك لاصطلاح وقع وتواضع تنق . ولو كان كذلك لم تختلف المواضع فى الألفاظ والخطوط ، وإن كانت المآزب واحدة ، كما وجب فى عقل كل عاقل يحصل ما يقول أن لا يثبت الفعل على الحقيقة إلا للحى القادر .

فإن قلت فإن اللغة رسمت أن يكون « فعل » لإثبات الفعل تلى .

كما زعمت ولكننا إذا قلنا : فعل الربيع الوشى أو وشى الربيع . فإننا نريد بذلك معنى معقولا وهو أن الربيع سبب في كون الأنوار التي تشبه الوشى^(١) فقد نقلنا الفعل عن حكم معقول وضع له إلى حكم آخر معقول شبيهه بذلك الحكم ، فصار ذلك كنقل الأسد عن السبع إلى الرجل الشبيه به في الشجاعة أفنقول : الأسد على الرجل مجاز من حيث المعقول لا من حيث اللغة كما قلت في صيغة فعل إذا أسندت إلى مالا يصح أن يكون له فعل : إنها مجاز من جهة العقل لا من جهة اللغة ؟ فالجواب أن بينهما فرقا وإن ظننتهما متساويين . وذلك أن « فعل » موضوع لإثبات الفعل للشيء على الإطلاق والحكم في بيان من يستحق هذا الإثبات وتعيينه إلى العقل ، وأما الأسد فموضوع للسبع قطعاً واللغة هي التي عينت المستحق بها وبرسمها وحكمها ثبت هذا الاستحقاق والاختصاص ، ولولا نصها لم يتصور أن يكون هذا السبع بهذا الاسم أولى من غيره . فأما استحقاق الحى القادر أن يثبت الفعل له واختصاصه بهذا الإثبات دون كل شيء سواء فبفرض العقل ونصه لا باللغة فقد نقلت الأسد عن شيء هو أصل فيه باللغة لا بالعقل . وأما فعل فلم تنقله عن الموضع الذى وضعت اللغة فيه لأنه كما مضى موضوع لإثبات الفعل للشيء في زمان ماض وهو في قولك « فعل الربيع » باق على هذه الحقيقة غير زائل عنها ولن يستحق اللفظ الوصف بأنه مجاز حتى يجرى على شيء لم يوضع له فى الأصل . وإثبات الفعل لغير مستحقه ولما ليس بفاعل على الحقيقة لا يخرج فعلاً عن أصله ولا يجعله جارياً على شيء لم يوضع له لأن الذى وضع له فعلاً هو إثبات الفعل للشيء فقط وأما وصف

(١) أى سبب في وجودها .

ذلك الشيء الذي يقع هذا الإثبات له فخارج عن دلالاته وغير داخل في الموضع اللغوي بل لا يجوز دخوله فيه لما قدمت من استحالة أن يقال إن اللغة هي التي أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد وما في ذلك من الفساد العظيم فاعرفه فرقاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً .

وهنا نكتة جامعة وهي أن المجاز في مقابلة الحقيقة فيما كان طريقاً في أحدهما من لغة أو عقل فهو طريق في الآخر . ولست تشك في أن طريق كون الأسد حقيقة في السبع اللغة دون العقل وإذا كانت اللغة طريقاً للحقيقة فيه وجب أن تكون هي أيضاً الطريق في كونه مجازاً في المشبه بالسبع إذا أنت أجريت اسم الأسد عليه فقلت : رأيت أسداً ، تريد رجلاً لا تميزه عن الأسد في بسالته وإقدامه وبطشه . وكذلك إذا علمت أن طريق الحقيقة في إثبات الفعل لشيء هو العقل فينبغي أن تعلم أنه أيضاً الطريق إلى المجاز فيه . فكما أن العقل هو الذي ذلك حين قلت : « فعل الحى القادر » أنك لم تتجاوز وأنتك واضح قدمك على محض الحقيقة كذلك ينبغي أن يكون هو الدال والمقتضى إذا قلت « فعل الربيع » أنك قد تجوزت وزلت عن الحقيقة فاعرفه .

فإن قال قائل : كان سياق هذا الكلام وتقريره يقتضى أن طريق المجاز كله العقل وأن لاحظ لغة فيه ، وذاك أنا لا مجرى اسم الأسد على المشبه بالأسد حتى ندعي له الأسدية وحتى نوهم أنه حين أعطاك من البسالة والبأس والبطش ما تجده عند الأسد صار كأنه واحد من الأسود قد استبدل بصورته صورة الإنسان . وقد قدمت أنت فيما مضى ما بين أنك لا تتجاوز في إجراء اسم المشبه به على المشبه حتى تخيل إلى نفسك أنه هو بعينه

فإذا كان الأمر كذلك فأنت في قولك : رأيت أسداً . متجاوز من طريق المعقول ، كما أنك كذلك في فعل الربيع . وإذا كان كذلك عاد الحديث إلى أن المجاز فيهما جميعاً عقلى فكيف قسمته قسمين لغوى وعقلى ؟

فالجواب أن هذا الذي زعمت من أنك لا تجري اسم المشبه به على المشبه حتى تدعى أنه قد صار من ذلك الجنس نحو أن نجعل الرجل كأنه في حقيقة الأسد — صحيح كما زعمت لا يدفعه أحد ، وكيف السبيل إلى دفعه وعليه الممول في كون التشبيه على حد المبالغة وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل . إلا أن ههنا نكتة أخرى قد أغفلتها وهي أن تجوزك هذا الذي طريقه العقل يفضى بك إلى أن تجري الاسم على شيء لم يوضع له في اللغة على كل حال فتجاوز بالاسم على الجملة الشيء الذي وضع له فن ههنا جعانا اللغة طريقاً فيه .

فإن قلت : لا أسلم أنه جرى على شيء لم يوضع له في اللغة لأنك إذا قلت لا تجربه على الرجل حتى تدعى له أنه في معنى الأسد لم تكن قد أجريرته على ما لم يوضع له . وإنما كان يكون جارياً على غير ما وضع له أن لو أجريرته على شيء لتفيد به معنى غير الأسدية ، وذلك ما لا يعقل ، لأنك لا تفيد بالأسد في التشبيه أنه رجل مثلاً أو عاقل أو على وصف لم يوضع هذا الاسم للدلالة عليه البتة — قيل لك ، قصارى حديثك هذا أنا أجرينا اسم الأسد على الرجل المشبه بالأسد على طريق التأويل والتخيل ، أفليس على كل حال قد أجريناه على ما ليس بأسد على الحقيقة ؟ والسفاهة^(١) قد

(١) القاعدة أن يقال « أولسنا » لأن أداة الاستفهام لها الصدارة فهو كقوله : أفليس الخ وما أرى سكوت شيخنا عن تصحيحها إلا سهواً ؛ لا لوجه رآه ككون اللفظ محكيّاً أو في معنى المحكي كقوله الآتي : وأهو مستحق الخ

جعلنا له مذهباً لم يكن له في أصل الوضع ، وهنا قد ادعينا للرجل الأسدية حتى استحق بذلك أن نجرى عليه اسم الأسد . أترانا نتجاوز في هذه الدعوى حديث الشجاعة حتى يدعى الرجل صورة الأسد وهيئته وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه الظاهرة البادية للعيون ؟ ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد وأمکنها فإن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها ، بل لها في مثل تلك الجثة ، وهاتيك الصورة والهيئة ، وتلك الأنياب والمخالب — إلى سائر ما يعلم من الصورة الخاصة في جوارحه كلها . ولو كانت وضعته لتلك الشجاعة التي تعرفها وحدها لكان صفة لا اسماً ، ولكان كل شيء ينفى في شجاعته إلى ذلك الحد مستحقاً للاسم استحقاقاً حقيقياً لا على طريق التشبيه والتأويل .

وإذا كان كذلك فإنا وإن كنا لم ندل به على معنى لم يتضمنه اسم الأسد في أصل وضعه فقد سلبناه بعض ما وضع له وجعلناه للمعاني التي هي باطنة في الأسد وغريزة وطبع به وخلق مجردة عن المعاني الظاهرة التي هي جثة وهيئة وخاق ، وفي ذلك كفاية في إزالته عن أصل وضع له في اللغة ونقله عن حد جريه فيه إلى حد آخر مخالف له . وليس في فعل إذا تجوز فيه شيء من ذلك ، لأننا لم نسلبه لا بالتأويل ولا غير التأويل شيئاً وضعته اللغة لأنه كما ذكرت غير مرة لإثبات الفعل للشيء من غير أن يتعرض لذلك الشيء ما هو وأهو مستحق لأن يثبت له الفعل أو غير مستحق ، وإذا كان كذلك كان الذي أرادت اللغة به موجوداً فيه ثابتاً له في قولك « فعل الربيع » ثبوته إذا قلت « فعل الحى القادر » لم تتغير له صورة ولم ينقص منه شيء ولم يزل عن حد إلى حد فاعرفه .

فإن قلت : قد علمنا أن طريق المجاز ينقسم إلى ما ذكرت من اللغة

والمعقول وأن « فعل » في نحو فعل الربيع مما طريقه المعقول ، وأن نحو الأسد إذا قصد به التشبيه واستعير لغير السبع طريق مجازه اللغة وبقى أن تعلم لم خصصت المجاز إذا كان طريقه العقل بأن توصف به الجملة من الكلام دون الكلمة الواحدة ؟ وهلا جوزت أن يكون فعل على الانفراد موصوفاً به ؟ فإن سبب ذلك أن المعنى الذى له وضع فعل لا يتصور الحكم عليه بمجاز أو حقيقة حتى يسند إلى الاسم وهكذا كل مثال من أمثلة الفعل لأنه موضوع لإثبات الفعل للشيء فما لم يبين ذلك الشيء الذى نثبت له ونذكره لم يعقل أن الإثبات واقع موقعه الذى نجده مرسوماً به في صف العقول أم قد زال عنه وجازه إلى غيره — هذا وقولك « هلا جوزت أن يكون فعل على الانفراد موصوفاً به » ومحال بعد أن ثبت أن لا مجاز في دلالة اللفظ وإنما المجاز في أمر خارج عنه .

فإن قلت : أردت هلا جوزت أن تنسب المجاز إلى معناه وحده وهو إثبات الفعل فيقال هو إثبات فعل على سبيل المجاز — فإن ذلك لا يتأتى أيضاً إلا بعد ذكر الفاعل لأن المجاز أو الحقيقة إما يظهر ويتصور من المثبت والمثبت له والإثبات . وإثبات الفعل من غير أن يقيد بما وقع الإثبات له لا يصح الحكم عليه بمجاز أو حقيقة فلا يمكنك أن تقول : إثبات الفعل مجاز أو حقيقة — هكذا مرسلنا وإنما تقول : إثبات الفعل للربيع مجاز وإثباته للحى القادر حقيقة .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن لا سبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازاً وحقيقة من طريق العقل إلا في جملة من الكلام . وكيف يتصور خلاف ذلك ووزان الحقيقة والمجاز العقليين وزان الصدق والكذب ، فكما يستحيل

وصف الكلم المفردة بالصدق والكذب وأن يجرى ذلك في معانيها مفرقة غير مؤلفة فيقال « رجل — على الانفراد — كذب أو صدق » كذلك يستحيل أن يكون معناهما حكم بالمجاز أو الحقيقة وأنت تنحو نحو العقل إلا في الجملة المفيدة فأعرفه أصلاً كبيراً ، والله الموفق للصواب والمسئول أن يعصم من الزلل بمنه وفضله .

فصل

« في الحذف والزيادة وهل هما من المجاز أم لا »

واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلها عما عن معناها كما مضى فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها . ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف في نحو (واسأل القرية) والأصل واسأل أهل القرية . فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ، والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم « بنو فلان تطؤم الطريق » يريدون أهل الطريق ، الرفع في الطريق مجاز لأنه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذي هو الأهل والذي يستحقه في أصله هو الجر .

ولا ينبغي أن يقال إن وجه المجاز في هذا الحذف ، فإن الحذف إذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام ما بقى بعد الحذف لم يسم مجازاً ألا ترى أنك تقول : زيد منطلق وعمرو . فتحذف الخبر ثم لا توصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز ، وذلك لأنه لم يؤد إلى تغيير حكم فيما بقى من الكلام ، ويزيده تقريراً أن المجاز إذا كان معناه أن تجوز بالشئ موضعه وأصله فالحذف بمجرد لا يستحق الوصف به لأن ترك الذكر وإسقاط

الكلمة من الكلام لا يكون نقلاً لها عن أصلها إنما يتصور النقل فيما دخل تحت النطق .

وإذا امتنع أن يوصف المحذوف بالجاز نقي القول فيما لم يحذف ، وما لم يحذف ودخل تحت الذكر لا يزول عن أصله ومكانه حتى يغير حكم من أحكامه أو يغير عن معانيه ، فأما وهو على حاله^(١) والمحذوف مذكور فتوهم ذلك فيه من أبعاد المحال فاعرفه .

وإذا صح امتناع أن يكون مجرد الحذف مجازاً أو تحقق صفة باقي الكلام بالجاز من أجل حذف كان على الإطلاق دون أن يحدث هناك بسبب ذلك الحذف تغير حكم على وجه من الوجوه — علمت منه أن الزيادة في هذه القضية كالحذف فلا يجوز أن يقال إن زيادة (ما) في نحو « فيما رحمة » مجاز أو أن جملة الكلام تصير مجازاً من أجل زيادته فيه . وذلك أن حقيقة الزيادة في الكلمة أن تعرى من معناها وتذكر ولا فائدة لها سوى الصلة ويكون سقوطها وثبوتها سواء ، ومحال أن يكون ذلك مجازاً لأن الجواز أن يراد بالكلمة غير ماضية له في الأصل أو يزداد فيها أو يورث شيء ليس من شأنها ، كإيهامك بظاهر النصب في القرية أن السؤال واقع عليها . والزائد الذي سقوطه كثبوته لا يتصور فيه ذلك .

فأما غير الزائد من أجزاء الكلام الذي زيد فيه فيجب أن ينظر فيه فإن حدث هناك بسبب ذلك الزائد حكم تزول به الكلمة عن أصلها جاز حينئذ أن يوصف ذلك الحكم أو ما وقع فيه بأنه مجاز ، كقولك في نحو قوله تعالى (ليس كمثله شيء) إن الجر في المثل مجاز لأن أصله النصب

(١) أى على حاله قبل أن يحذف المحذوف (ش)

والجر حكم عرض من أجل زيادة الكاف . ولو كانوا إذ جعلوا الكاف مزيدة لم يعملوها لما كان لحديث المجاز سبيل على هذا الكلام . ويزيده وضوحاً أن الزيادة على الإطلاق لو كانت تستحق الوصف بأنها مجاز ينبغي أن يكون كل ما ليس بمزيد من الكلم مستحقاً الوصف بأنه حقيقة حتى يكون الأسد في قولك رأيت أسداً — وأنت تريد رجلاً — حقيقة . فإن قلت : المجاز على أقسام والزيادة من أحدها . قيل : هذا لك إذا حددت المجاز بحد تدخل الزيادة فيه ، ولا سبيل لك إلى ذلك لأن قولنا « المجاز » يفيد أن تجوز بالكلمة موضعها في أصل الوضع وتنقلها عن دلالة إلى دلالة أو ما قارب ذلك .

وعلى الجملة فإنه لا يعقل من المجاز أن تسلب الكلمة دلالتها ثم لاتعطيها دلالة أخرى وأن تخليها من أن يراد بها شيء على وجه من الوجوه ووصف اللفظ بالزيادة يفيد أن لا يراد بها معنى وأن يجعل كأن لم يكن لها دلالة قط .

فإن قلت : أو ليس يقال إن الكلمة لاتعري من فائدة ما ولا تصير لغواً على الإطلاق حتى قالوا إن نحو (ما) في نحو « فيما رحمة من الله » تفيد التوكيد ؟ فأنا أقول : إن كون (ما) تأكيداً نقل لها عن أصلها ومجاز فيها . وكذلك أقول إن كون الباء المزيدة في « ليس زيد بخارج » لتأكيد النفي مجاز في الكلمة لأن أصلها أن تكون للاصاق — فإن ذلك على بعده لا يقدح فيما أردت تصحيحه لأنه لا يتصور أن تصف الكلمة من حيث جعلت زائدة بأنها مجاز ومتى ادعينا لها شيئاً من المعنى فإننا نجعلها من تلك الجهة غير مزيدة ، ولذلك يقول الشيخ أبو علي في الكلمة إذا كانت تزول عن أصلها من وجه ولا تزول من آخر « معتد بها من

وجه غير معتد بها من وجه . كما قال في اللام من قولهم : « لا أبا يزيد » جعلها من حيث منعت أن يتعرف الأب بزيد معتداً بها ، ومن حيث عارضها لام الفعل^(١) من الأب التي لا تعود إلا في الإضافة ، نحو : أبو زيد وأبا زيد ، غير معتد بها ، وفي حكم المقحمة الزائدة ، وكذلك توصف (لا) في قولنا : « مررت برجل لا طويل ولا قصير » بأنها مزيدة ولكن على هذا الحد ، فيقال هي مزيدة غير معتد بها من حيث الإعراب^(٢) ، ومعتد بها من حيث أوجبت نفي الطول والقصر عن الرجل ، ولولاها لسكانا ثابتين له . وتطلق الزيادة على (لا) في نحو قوله تعالى : (لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدر) . لأنها لا تفيد النفي فيما دخلت عليه ، ولا يستقيم المعنى إلا على إسقاطها ، ثم إن قلنا إن (لا) هذه المزيدة تفيد تأكيد النفي الذي يجيء من بعد في قوله : (أن لا يقدر) وتؤذن به ، فإنما نجعلها من حيث أفادت هذا التأكيد غير مزيدة ، وإنما نجعلها مزيدة من حيث لم تفد النفي الصريح فيما دخلت عليه كما أفادته في المسألة^(٣) .

وإذا ثبت أن وصف الكلمة بالزيادة نقيض وصفها بالإفادة علمت أن الزيادة من حيث هي زيادة لا توجب الوصف بالمجاز . فإن قلت : تكون سبباً لنقل الكلمة عن معنى هو أصل فيها إلى معنى ليس بأصل — كدت تقول قولاً يجوز الإصغاء إليه وذلك إن صح ، نظير ما قدمت من أن الحذف

(١) أى التى تظهر فى الفعل فى نحو أبوت وأبيت أى صرت أباً وأبوتة إياوة بالكسر صرت له أباً

(٢) أى لأن الوصفين مجروران على النهى بدون دخل لا

(٣) حقق الأستاذ فى الدرس أن (لا) فى (لئلا يعلم أهل الكتاب) من آخر سورة الحديد أصلية أى يمنعكم الله ما ذكر فى الآية قبلها بالتقوى والإيمان بالرسول لتكون العاقبة عدم علم أهل الكتاب (أن لا يقدر) على شيء من فضل الله .

أو الزيادة قد تكون سببا لحدوث حكم في الكلمة تدخل من أجله في المجاز كمنصب القرية في الآية وجبر المثل في الأخرى فاعرفه .

واعلم أن من أصول هذا الباب أن من حق المحذوف أو المزيد أن ينسب إلى جملة الكلام لا إلى الكلمة المجاورة له ؛ فأنت تقول إذا سئلت عن القرية : في الكلام حذف والأصل أهل القرية ثم حذف الأهل ، يبنى حذف من بين الكلام . وكذلك تقول : الكاف زائدة في الكلام والأصل ليس مثله شيء ، ولا تقل هي زائدة في « مثل » إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقال إن (ما) في « فبما رحمة » مزيدة في الرحمة أو في الباء ، وإن (لا) مزيدة في (يعلم) وذلك بين الفساد ، لأن هذه العبارة إنما تصلح حيث يراد أن حرفا زيد في صيغة اسم أو فعل على أن لا يكون لذلك الحرف على الانفراد معنى ولا تعدده وحده كلمة ، كقولك : زيدت الياء للتصغير في قولك رجيل والتاء للتأنيث في ضاربة . ولو جاز غير ذلك لجاز أن يكون خبر المبتدأ إذا حذف في نحو : « زيد منطلق وعمرو » . محذوفاً من المبتدأ نفسه على حد حذف اللام من يدٍ ودَم ؛ وذلك ما لا يقوله عاقل ، فنحن إذا قلنا إن الكاف مزيدة في « مثل » فإمّا نعى أنها لما زيدت في الجملة وضعت في هذا الموضع منها . والأصح في العبارة أن يقال : الكاف في (مثل) مزيدة يعنى الكاف الكائنة في مثل مزيدة كما تقول : الكاف التي تراها في مثل مزيدة ، ولذلك تقول : حذف المضاف من الكلام ولا تقول : حذف المضاف من المضاف إليه ، وهذا أوضح من أن يخفى ولكنني استقصيته لأني رأيت في بعض العبارات المستعملة في المجاز والحقيقة ما يوهم ذلك فاعرفه .

ومما يجب ضبطه هنا أيضاً ، أن الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى

يدعو إلى تقدير حذف أو إسقاط مذكور كان على وجهين :

(أحدهما) أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم ومثله الآيتان المتقدم تلاوتهما ، ألا ترى أنك لو رأيت « سل القرية » في غير التنزيل لم تقطع بأن ههنا محذوفاً ، لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربث وباد أهلها فأراد أن يقول لصاحبه واعظاً ومذكراً أو لنفسه متعظاً معتبراً : سل القرية عن أهلها وقل لها ما صنعوا . على حد قولهم : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وكذلك إن سمعت الرجل يقول ليس كمثل زيد أحد . لم تقطع بزيادة الكاف وجوزت أن يريد ليس كالرجل المعروف بمائلة زيد أحد .

(والوجه الثاني) أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بحذف أو بزيادة من أجل الكلام نفسه لا من حيث غرض المتكلم به ، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزئي الجملة كالمبتدأ في نحو قوله تعالى « فصبر جميل » وقوله « متاع قليل » لابد من تقدير محذوف ولا سبيل إلى أن يكون له معنى دونه سواء كان في التنزيل أو في غيره فإذا نظرت إلى « صبر جميل » في قول الشاعر :

يشكو إلى جميل طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى

وجدته يقتضى تقدير محذوف كما اقتضاه في التنزيل ، وذلك أن الداعى إلى تقدير المحذوف ههنا هو أن الاسم الواحد لا يفيد والصفة والموصوف حكمهما حكم الاسم الواحد ، وجميل صفة للصبر . وتقول للرجل : من هذا ؟ فيقول : زيد ، يريد هو زيد ، فتجد هذا الإضمار واجباً لأن الاسم الواحد

لا يفيد ، وكيف يتصور أن يفيد الاسم الواحد ومدار الفائدة على إثبات أو نفي وكلاهما يقتضي شيئين : مثبت ومثبت له ومنفى ومنفى عنه .

وأما وجوب الحكم بالزيادة لهذه الجهة فكأنحو قولهم : بحسبك أن تفعل وكفى بالله . إن لم تقض بزيادة الباء لم تجد للكلام وجهاً تصرفه إليه وتأويلاً تتأوله عليه البتة ، فلا بد لك من أن تقول : إن الأصل حسبك أن تفعل وكفى الله . وذلك أن الباء إذا كانت غير مزیدة كانت لتعدية الفعل إلى الاسم وليس في « بحسبك أن تفعل » تعدية بالباء إلى حسبك . ومن أين أن يتصور أن يتعدى إلى المبتدأ فمل والمبتدأ هو المعرى من العوامل اللفظية ؟ وهكذا الأمر في « كفى » أو أقوى ، وذلك أن الاسم الداخل عليه الباء في نحو « كفى بزيد » فاعل كفى ، ومحال أن تعدى الفعل إلى الفاعل بالباء أو غير الباء ، ففي الفعل من الاقتضاء للفاعل ما لا حاجة معه إلى متوسط وموصل ومعد فاعرفه ، والله أعلم بالصواب .

(تم الكتاب والحمد لله)

فهرس مباحث كتاب أسرار البلاغة

صفحة

- و- ك مقدمة الكتاب وفيها تحقيق معنى البلاغة وتفضيل كتب عبد القاهر
على كتب السعد وأمثالها — وتنبيهات لقراء الطبعة الثانية .
- ١ مقدمة المصنف وفيها أن المقصود بالكلام المعاني وبحث السجع والتجنيس .
- ٤ القول في التجنيس .
- ١٠ شرط استحسان الجناس والسجع .
- ١٢ و٣٥ أمثلة التجنيس الحسن والتبجح .
- ١٤ فصل في قسمة التجنيس وتنويعه . الاستعارة والتطبيق .
- ١٧ تحقيق كون حسن الكلام بالمعاني لا الألفاظ .
- ١٩ بيان كيفية اتفاق المعاني واختلافها وأبنية اجتماعها وافتراقها الخ .
- ٢٥ اشتراك اللغات في التجوز وانفراد العربية .
- ٢٧ الاعتبار بترجمة الاستعارة .
- ٣٢ القول في الاستعارة المفيدة .
- ٣٤ فصل في تقسيم آخر للاستعارة المفيدة .
- ٣٧ الاستعارة والتطبيق .
- ٤٢ » المختلفة الجنس والأنواع .
- ٤٤ و٥٨ » القريبة من الحقيقة .
- ٤٦ و٦٠ » فيما وجه الشبه فيه تحقيق .
- ٤٨ التفرقة بين نوعي الاستعارة في الجنس .
- ٥٢ و٦٢ وجه الشبه العقلي في الاستعارة .
- ٥٤ و٦٤ تشبيه ما يصلح به الناس أو الكلام بالملح .
- ٥٦ تشبيه المعقول بالمعقول .

صفحة	
٦٦	تحقيق معنى الغنى والفقر .
٦٨	اعتراض على أن تنزىل الوجود منزلة العدم وعكسه ليس من حديث التشبيه .
٧٤	التشبيه الذى يحتاج إلى التأويل .
٧٨	فصل فى التشبيه للاشتراك فى نفس الصفة وفى مقتضاها .
٨٠	» فى وجوه الشبه المنبذة من شىء أو أشياء .
٨٢	التشبيه الممقود على أمرين وليس بتمثيل .
٨٣	فصل فى حال انتزاع الشبه من الوصف .
٨٤	بحث دقيق فى تمثيل حال اليهود بالحجار يحمل أسفاراً .
٨٦	فروق بين التشبيه والتمثيل .
٩٠	وجوه الشبه فى جمل من التمثيل .
٩٢	التمثيل فى المدح والذم وأمثلتها .
٩٤	» فى الحجاج والافتخار والاعتذار .
٩٥	» فى الوعظ .
٦٦	» فى ضروب الكلام المختلفة .
٩٨	تعليل بلاغة الكلام بتأثيرها فى النفس .
١٠٠	الفرق بين تأثير الكلام فى التمثيل وعدمه .
١٠٢	أسباب قوة تأثير التمثيل وعمله النفسية .
١٠٤	سبب تأثير التمثيل فى ضريبه .
١٠٦	زيادة تأثير التمثيل بالأمثال المشاهدة .
١٠٨	تعليل دقيق جليل ، فى فلسفة التمثيل .
١١٠	تأثير اختلاف الجنس بين المشبه والمشب به .
١١٢	جعل التمثيل الشىء كعدمه أو ضده .
١١٦	مآخذ التمثيل من الموجودات .
١١٨	فصل آخر فى الفرق بين التمثيل الدقيق والتمقيد .

- ١٢٢ التعقيد والكلام البليغ المتوقف على دقة الفكر .
 ١٢٤ و١٣٤ مكانة ما لا يدرك إلا بالتعب .
 ١٢٦ سبب قببح الكلام المعقد .
 ١٣٠ شرط حسن التأليف بين مختلفي الجنس .
 ١٣٢ التشبيه المتوقف على دقة الفكر .
 ١٣٨ الإدراك الإجمالي والتفصيلي الذي به التفاضل .
 ١٤٠ التشبيه التفصيلي المتوقف على دقة الفكر .
 ١٤٦ العبرة والتفصيل في ضروب التشبيه والتمثيل .
 ١٥٤ و١٧٤ التفصيل لدقائق التشبيه المركب .
 ١٥٦ التشبيه في الهيأة التي تقع عليها الحركات .
 ١٥٨ و١٦٤ الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه .
 ١٦٢ مأخذ التشبيه من هيئات الحركة والسكون .
 ١٦٦ النفيس ينتقل بكثرة الاستعمال .
 ١٧٨ قلب التشبيه .
 ١٨٦ القلب أو العكس في طرفي التشبيه .
 ١٩٦ رد الفرع إلى الأصل في التمثيل وعكسه .
 ٢٠٢ القياس في التشبيه وتشبيه الحقيقة بألجاز .
 ٢٠٤ جعل الفرع أصلاً في التشبيه وعكسه .
 ٢٠٧ و٢٢٢ و٢٢٤ فصل في الفرق بين الاستعارة والتمثيل .
 ٢١٨ الاستعارة والمبالغة في التشبيه .
 ٢٢٠ صناعة أبي تمام وفساد ذوقه .
 ٢٢٣ فصل في وقوع الاسم مستعاراً بحسب الحس وهو ليس كذلك .
 ٢٣٤ بناء الشعر والخطابة على التخيل لا العقول .
 ٢٣٦ و٢٥٢ من قال خير الشعر أ كذبه وضده .

- ٢٣٨ بيان أن الاستعارة ليست من التخيل
- ٢٤٢ التخيل الشبيه بالحقيقة مما أصله التشبيه .
- ٢٤٧ براعة ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد .
- ٢٥٦ الفرق بين المعنى الحقيقي والتخيل .
- ٢٥٧ فصل في نوع آخر من اعليل
- ٢٥٨ الأخذ والسرقة في التخيل مع حسن التعليل .
- ٢٦٢ و٢٧٤ فصل في التخيل بغير تعليل .
- ٢٦٨ وجه الشبه المقصود بالذات والحاصل بالتبع
- ٢٧٢ عود على ادعاء المجاز حقيقة .
- ٢٧٦ بناء الاستعارة والتخيل على تناسي التشبيه .
- ٢٧٧ فصل في الفرق بين التشبيه والاستعارة .
- ٢٩٣ » » الاتفاق في الأخذ والسرقة والاستعداد والاستعانة .
- ٣٠٢ » » حدى الحقيقة والمجاز .
- ٣١٦ » » المجاز العقلي واللفوي والفرق بينهما .
- ٣٢٩ » منه في ما قيل فيه إنه استعارة وليس كذلك بل هو حقيقة .
- ٣٣٠ المجاز العقلي والمجاز اللفوي ومنه الاستعارة .
- ٣٤٢ ذكر المجاز وبيان معناه وحقيقته وكونه أعم من الاستعارة .
- ٣٤٨ معنى المجاز وحقيقته ومكان الاستعارة منه .
- ٣٥٤ و٣٥٥ تقسيم المجاز إلى لفظي وعقلي واللفوي إلى الاستعارة ومجاز مرسل .
- ٣٦٠ كون تقسيم العقلي في الجمل لا المفردات .
- ٣٦٢ فصل في الحذف والزيادة وهل هما من المجاز أم لا .
- ٣٦٦ بيان أن الحذف والإسقاط على وجهين .

